ذكريات لا تنسى



مشاهداتي في الهند

محمد المجذوب

دار الاعتصام

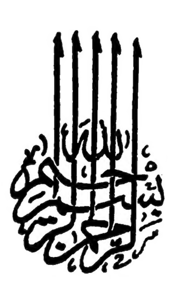
ذكريات لا تنسى



محمد المجذوب

دار الاعتصام

دار الإعتصام
٨ شارع حسين حجازى - تليفون ٣١٧٤٨/٢٦٠٣١ - ص.ب ٤٧٠ - القاهرة
للطبع والنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هـذا الكتاب الثاني الذى أتابع فيه تسـجيل الانطباعات التى حملتها من رحلاتى فى بعض أرجـاء العـالم الاسلامى ، وهو الخـاص بمشاهداتى وتأملاتى فى العديد من ربـوع الهنـد .. أكرر فى تقديمه ما سبق أن قلته فى مقدمة الكتاب الأول ، من أنى لا أعرض معلومات موضوعية تحـاور العقل ، بقدر ما أصور انطباعات ذاتية تتحدث الى القلب .

وما أحوج القارىء فى هذه المرحلة التائهة من حيـاة الانسان الى حـديث القـلوب !

من جوار مسجد « قبـاء »

محمـد المجـذوب

الى الهنـــد :

كان المتوقع لرحلتى هــذه الى الهند أن تبدأ قبل عامين أو قبــل عام على الأقل ، لو وجدت دعوة الرائد الاسلامى الكبـــير الشيخ أبى الحسن الندوى استجابة من الجامعة الاسلامية ، تلك الدعوة الكريمة التى تكررت خلال العامين أكثر من مرة ، ثم شاء الله ألا تتحقق الا فى عهــد فضـــيلة الدكتور عبد الله الزايد نائب الرئيس الجديد للجامعة ٠٠

ولا جرم ان سرورى بزيارة دار العلوم ، التابعة لنــدوة العلماء فى لكناو ، لا يقل عن رغبة فضيلة رئيسها الشيخ أبى الحسن فى هذه الزيارة ، ذلك لأن فى نفسى من التقدير لهذه المؤسسة الاسلامية ما يجعلنى أستشــعر السعادة حين يقدر لى الاسهام ببعض الواجب نحوها ٠٠ وهو شعور قديم مستمر النمو منذ عرفت فضــل رئيسها الجليل من خلال آثاره الجدية فى الفكر الاسلامى المعاصر ، وبخاصة فى نطاق التربية والتعليم والتوجيه الاجتماعى، ومنذ تعرفت ثمـــار نــدوة العلماء من خلال طلابها الذين ما تزال الجامعـة الاسلامية تستقبل أفواجهم عاما بعد عـــام ، فتستقبل فيهم الخلق العالى ، والروح الاســلامى الأصـيل ، والاجتهاد المساعد على التفوق ، الى جـانب العناية البالغة بلغـــة الكتاب العزيز ، حتى ليكادون يؤثرونها على لسانهم الموروث ، فيمتازون بفصاحتهم حتى على الكثير من العرب أنفسهم ٠

وفى الساعة ٢٥ر٦ من صباح الثلاثاء الثانى من صفر الخير عام ١٤٠١ أنطلقت بنا الطائرة من المدينة المنـورة الى جـدة حيث أنتقلنا الى الطائرة المتجهة نحو الكويت ، وحاولت تفقد حقيبة الأمتعة فى القاعة الخاصة من المطار ، ولكن موظف الاستعلامات أخبرنى أن لا حاجـــة لذلك ، ما دامت مشحونة من المدينة الى الكويت فهناك أتسلمها حتى ترفـــع الى الطـائرة البريطانية التى ستقلنى الى دهلى (١)

وهبطت بنا الطائرة مطار الظهران فلبثت هناك قرابة نصف الساعة ، حيث حملت بعض المسافرين وأنزلت غيرهم ، ثم استأنفت رحلتهـــا حتى أنحدرت الى مطار الكويت فى تمام الساعة ١٠ر٢ وكانت المفاجأة الأولى فقدان الحقيبة ، اذ لم نجد لها أثرا بين أمتعة النازلين هناك ٠٠ ورحنا نبحث عن مندوب الخطوط السعودية حتى وفقنا الى لقائه بعد ساعة ، فســطر

---

(١) هذا هو اسم البلد الأصلى ، وقد حرفه المستعمر فقدم لامه على هائه٠

محضرا بالواقعة ، وذهب ليبرق بشأنها الى الجهات المختصة ، وسلم الى نسخة من ذلك المحضر بعد أن أخذ عنوانى فى لكناو وفى المدينة ٠٠ وهكذا قدر على أن أقضى بقية اليوم والليلة دون متاع ولا ثياب نوم ، ولا شىء سوى هذه الحقيبة اليدوية التى لا تتسع لغير الكتب والأدوية وبعض اللوازم الأخرى ٠٠ ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

السـجن الكبـير :

والانتظار فراغ ثقيل ، ولعل أضناه للنفس انتظارك فى مطار ما مثل الساعات الطوال التى كان علينا أن نعانيها فى مطار الكويت ، خمس ساعات مفروض علينا قضاؤها فى ما يشبه السجن الكبير ٠ كل ما تملكه من الحرية هو أن تنتقل بين هاتيك الجدران الضخمة المتباعدة ، حتى اذا نهكت الحركة ساقيك تهاويت على أحد المقاعد المنثورة فى بعض أقسام المطار ٠٠

وما أدرى أكان ذلك المطار كما رأيت حقا ، أم هو القلق النفسى صوره لى على ما أرى ٠٠ انه لبناء هائل ذو دورين كبيرين ، ولكنه أقرب الى الحصون القديمة منه الى المطارات الدولية ٠٠ وقد كان الناس – المنتظرون مثلى – هناك قليلى العدد حتى ليبدو الدور الأرضى الذى حصرنا فيه أشبه بمجمع للحكم فى اللحظات الاخيرة من الدوام الرسمى ٠٠

خمس ساعات من حياتى بعثرتها بين الصبر الجميل والملل الثقيل ، ما فتئت خلالها أرجع البصر فى ساعتى لأحسب ما مضى منها وما بقى ٠٠ وقبيل الموعد المحدد فى بطاقة الطيران – وهو السابعة مســاء – حملت حقيبتى اليتيمة الى جناح السفر استعدادا للعبور من خلال الممر المباشر الى الطائرة البريطانية ٠٠ ولكن ٠٠ ما ان استقر بى المقـام قليلا حتى لاحظت زجاجة المؤشر الالكترونى تسجل موعد اقلاعها فى الساعة ٢٠ز٨ وتعذر على ان أعرف سبب التأخير ، وربما كان عائدا الى اختلاف التوقيت ، مع العلم بأن الساعة ما بين المدينـة والكويت لم تختلف قط ٠٠ وصبرت نفسى على تلك الاضافة من العناء ، مستسلما لليقين الذى ملأ كيانى بأن كل شىء مرهون بقدر الله ، وله سبحانه فى كل حركة وسكنة حكمة لا ندركها بمقاييسنا المـادية ٠

اخوة لا سبيل اليهم :

على أن ذلك اليقين لم يمنعنى من الأسف العميق ، الذى يقودنى اليه التفكير فى هذا السجن المضروب على بغير مسوغ من منطق الاسلام ٠٠ لقد كان بالامكان الانتفاع بهذه الساعات الضائعة لو أبيح لنا الخروج الى

البلد ، حيث ننعم بلقاء اخوة فارقناهم منذ سنين الى غير رجعة ، وقد ودعتهم يومئذ بل بكيت فراقهم بأبيات لعلهم لم يطلعوا عليها بعد ، وقد جاء فيها :

نودعكم والقلب يعصره الأسى	وليس لنا حول سوى الزفرات
ووالله لولا رادع الصبر والحيا	شغلنا عن الالفاظ بالعبرات
ولا غرو أن نبكي لفقد أحبة	وجدنا بهم في الحق خير أساة
صحبناهم حينا فكانوا عزاءنا	اذا فاضت الأيام بالنكبات
ويقصون عنا فجاة فكأننا	انامل كف عوجلت بشتات

واخوة آخرين الف الله بيني وبينهم على حبه وخدمة دعوته وبذل المجهود المتاح لاعلاء كلمته ، ومع ذلك فلا سبيل الى أى منهم ، على حين ليس بيني وبينهم من المكان سوى كيلات ، ومن الزمان الا هنيهات هذا على الرغم من مراجعتنا والحاحنا بالاستئذان لاخلاء سبيلنا الى حين ، دون مردود سوى التوكيد على ان ذلك امر ممنوع ولا مطمع فيه . ولقد هون على بعض هذا العبء ما علمته من مسلمين آخرين لا يزالون هناك منذ ليال وايام ، ينتظرون المركب الذى سيحملهم الى بلدهم دون أن يسمح لهم بمزايلة حبسهم .. ولا موجب لذلك الا الخضوع لقيود فرضناها على أنفسنا فزادت فى تمزق امتنا ، ولم ينتفع بها سوى أعدائنا ..

واقبل الليل واقبل معه البرد يتسلل الى عروقنا شيئا بعد شيء ، وما ادرى كيف ساقضى ساعات الرحلة فى الطائرة ، وبعد الوصول الى مطار دهلى الذى سيكون مع الفجر .. وها هى ذى اخيرا مذيعة المطار تعلن للمنتظرين موعد الدخول الى الطائرة ، فاسرعنا للاجابة ، وما هى سوى لحظات حتى كان كل منا فى مقعده .

ومرة أخرى أجدنى معطل السمع والنطق لأنى لا أجد حولى من اتفاهم واياه ، فأسلمت أجفانى لغفوة أنستنى لسعة البرد ، وردت الى جسدى بعض ما هو بحاجة اليه بعد ذاك العناء المرهق .. ثم لم أعد الى الوعى الا على صوت مذيع الطائرة يذكر الركب بقرب الهبوط .. وفى مطار دهلى – البادى الفقر – لمست أقدامى صعيد الهند للمرة الثانية ، وكان ذلك فى تمام الساعة ١ ½ ، أى الرابعة تماما بتوقيت الهند .. وبذلك بدأت المعاناة الجديدة ، التى لا مندوحة لكل مسافر من ورودها ، حين يضعه قدره فى صف العرض الطويل الزاحف باتجاه المحققين فى الهسريات ، ثم المدققين بالأمتعة ..

السلام عليكم :

وقد ضاعف من وحشتى مشكلة اللسان فلا أعرف سبيلا للتفاهم مع موظف ·· ولكن العناية التى لم تتخل عنى فى أى مأزق قط سرعان ما وافتنى بالحل غير المنتظر ، واذا أنا بواحد من الصف يبادرنى بلغة القرآن . السلام عليكم ·· ومن هنا جاء الفرج ، فتم انجاز الجواز ، وهدانى الى موضع التفتيش على المتاع ··وكان المتوقع أن يكون ضياع أمتعتى سببا فى تسهيل خروجى ، ولكن العكس هو الذى حدث ، وكأن المسئولين قد توجسوا ريبة فى عدم اصطحابى المتاع ، فراحوا يحققون ويدققون ، ولم يدعوا لى سبيل الخلاص الا بعد أن استوثقوا من المحضر الذى يؤكد فقدانى الحقيبة ··

وهكذا غادرت هذا الجانب من المطار لأبحث عن القسم الخاص بطائرة لكناو ·· وكان الامل أن القى هناك من ينتظرنى من قبل الندوة ، لأن الجامعة قد أبرقت اليها بسفرى منذ أول أمس ـ الاثنين ـ غير أن ذلك الأمل لم يتحقق ، وبات على أن أكدح بنفسى دون أن أنتظر عونا من غير الله ·· فأبرزت بطاقة السفر الى الموظف المختص فأشار على بالانتظار الى النهاية ، لأن البطاقة لم تحمل اشارة حجز الى لكناو ·· وبسر الله فتم الحجز اللازم ، وفى قاعة المسافرين كان على أن أمضى قرابة الساعتين بانتظار موعد الطائرة ! ··

مزعجات ثم الفرج :

كان الضباب كثيفا يغطى كل شىء حتى لكأنه امتداد لليل ، وقد خدعنى منظره حتى توهمت أن الفجر قد أطل منذ قليل ، ولم أكن قد غيرت مؤشر ساعتى التى كان عقربها على الرابعة والنصف ، فأديت الصلاة فى جانب من البهو وانا حتى الان لا أعلم أقضاء وقعت أم أداء ···

ووجدت مكانا لى فى أحد المقاعد المصنوعة من اللدائن فأسرعت الى احتجازه ، الا انى لم أكد استريح عليه حتى فوجئت بما أثار فى نفسى شبه الغثيان . وليلعن الله حضارة الغرب التى مسخت المرأة المسكينة قردا عارى العورة ·· فقد وقع بصرى على اوربية تنتظر مثلى فى الصف المقابل ، وقد لفت ساقا بساق ، وبدا ما فوقهما تماما كالذى يبدو من مؤخرة بعض القرود ·· ولا حول ولا قوة الا بالله ! ·

وأخيرا جاء الفرج ولله الحمد ، وظهر رقم الرحلة على الاعلان الالكترونى ، وسرعان ما اخذت مقعدى فى الطائرة المتجهة الى لكناو ومنها الى كلكوتة ··

حتى الطائرة الداخلية هذه تلوح عليها سيما الفقر الذى يتراءى للناظر فى معظم المشاهد التى يقع عليها بصره ، وقد عاودنى النوم نتيجة الرهق الذى كابدته حتى الآن ، فلم أر ما تحت الطائرة ، هذا فضلا عن أن ضيق مابين المقاعد قد حجزنى عن التطلع ٠٠

واستغرقت الرحلة ساعة انتهينا بعدها الى مطار لكناى ، وهو مطار مسكين يعيش خارج حدود العصر ٠٠ ولم اجد حاجة للبحث عن أحد ينتظرنى ، فقلة الحضور وانصراف كل منهم الى شأنه ، أكد لى أن برقية الجامعة لم تصل فعلى أن أتدبر أمرى بنفسى ، وبقليل من العسر تم التفاهم مع موظف الهاتف فاستبدلت منه ببعض الروبيات بعض القطع المعدنية ، وحاولت استعمال الجهاز ، ولكنه رفض الاستجابة وأصر على الرفض رغم تعدد المحاولات ٠٠ وتلطف الموظف فوصلنى بالندوة عن طريق جهازه ، وبتوفيق الله تم لى ما أريد ، فاذا بأحد الاخوة المسئولين هناك يرد على تحيتى بأحسن منها ، وكانت مباغتة لهم غير متوقعة ، وقال الأخ المجيب : ساعة ويكون اللقاء فى المطار ان شاء الله ٠

وقضاء ساعة دون حركة من المزعجات ، لذلك خرجت مع حقيبتى اليدوية الى الفضاء المحيط بالمطار ، أقلب النظر فى هذه الاشجار الكبيرة لأتبين نوعها ، فبدت لى أشبه بشجر الخروب العتيق الذى ألفنا منظره فى الشام ، وقد غرقت فى جو حزين من الاهمال ، وعلى مقربة منها لاحظت كذلك بعض البنى الصغيرة ، وكل منها أشبه بصندوق مغلق من الاسمنت ، بعضها محمول على اربع ركائز وبعضها الآخر منثور على وجه الارض دون انتظام ، ولما لم أجد سبيلا لاستيضاح أمرها قدرت انها قد تكون مستودعات لرماد بعض الموتى من مجوسى هذه المحلة ٠٠ ولم أطق متابعة التجوال فى مثل هذا الجو الكئيب ، فعدت الى البهو الصغير لأسطر فى مفكرتى بعض ما أخشى نسيانه من المشاهدات ٠

المأمن الذى أحب :

كان لقاء الأخوين الشيخ محمد الرابع والشيخ محمود أزهار نفحة طيبة من حديقة الندوة ، التى طالما تشوقت الى الاجتماع فى ظلها بالنخبة الفاضلة من الرجال القائمين عليها ٠٠ وقد شاء الله أن أحرم تحقيق هذه الأمنية أثناء احتفالها قبل خمسة أعوام بذكرى خمس وثمانين سنة على تأسيسها ، اذ بلغتنى دعوتها وأنا على أهبة السفر الى الشام لرؤية الوالدة ، فأبلغتها عذرى عن طريق فضيلة الأخ الشيخ حماد الأنصارى ٠٠ وظللت على شوقى ذاك الى أن قدر الله لى هذه الفرصة الحبيبة ٠

وتحقق ما توقعته من تخلف البرقية ، اذ لم يعلموا بقدومى الا لحظة الاتصال الهاتفى ، وان كانوا على توقب لخبر سفرى بين الحين والآخر ٠ ولقد كان لاطلال الأخوين على ، حيث انتظرهم فى بهو المطار ، اثره الحاسم فى ازالة الوحشة وتبديد الارهاق ، وللتو شعرت بأنى انتهيت الى المأمن الذى أحبه ، فكأن أبا الطيب لم يرد سوى تصوير مثل هذه اللحظات بقوله الذى طالما هـز مشاعر ابن العميد

اذا ظفرت منك العيون بنظرة   اثاب بها معيى المطى ورازمه

ولم نلبث أن أخذنا سبيلنا الى النـدوة فى غمرة من الشعور الاخوى السعيد ، وكان الطريق الذى سلكته بنا السيارة ناطقا بمثل الايحاء الذى واجهته حول المطار ، ذلك أن كل ما فى هذه الأرض من تراب ونبات ومناخ صالح لابراز الرائع من الحدائق والجنان ٠٠ لو وجـــد الارادة الحازمة واليد العازمة العاملة ٠ واراني الآن أتذكر مشاهـــد الأرض الاندونيسية التى برز فيها نشاط الانسان نظافة وأناقة وبراعة ، فهنـاك رأيت الأرض والانسان ، أما هنا فأرى الأرض ٠٠ ولكن ٠٠ أين نشاط الانسان ٠٠ ؟!

جولة فى رحـاب النـدوة :

وبعد ما يقارب الساعة من المسير فى ذلك الطريق المتعرج الشـــاق بدأنا نواجه شوامخ العمائر ذات الطابع العلمى ، فأسأل رفيقى عن ذلك الحى فاذا أنا على مشارف نـدوة العلماء ٠٠

أبنية لا اذكر عددها الآن ، وكلها يمتاز بالجو الذى تفرضه الأوساط الجامعية ، ومن خلالها تلوح منارة المسجد المضاعف الذى يضم فى كل من الأوقات الخمسة مئات المصلين ٠٠

وفى جناح الضيافة من النـدوة أفردت لى حجرة صالحة تطل شرفتها الفسيحة على المسجد وما يليه من جنائن النـدوة وعمائرها ٠٠

وهنا أحب أن أبادر للتذكير بأن دور الضيافة من الأقسام الرئيسية فى مؤسسات التعليم الاسلامية فى الهند ، ولعلى لا أنسى أن أعرض لما شاهدته منها فى مختلف تلك المؤسسات التى زرتها فى العديد من حواضر الهند ، فهى والحق من المظاهر التى تسترعى الانتباه ، لما تحمله من آثار الحضارة الاسلامية العريقة فى هذه الديار ٠٠

ولما حانت صلاة العصر كنت قد أستردت الكثير من الراحة التى أنا بحاجة اليها ومضينا مع الأخوة فى جولة على أقسام الندوة ووحداتها ٠



المبنى الرئيسي لندوة العلماء



مبنى الفصـول الدراسية لدار العلوم بندوة العلماء



مبنى بيت الطلاب التابع لدار العلوم بندوة العلماء

وباحاتها الرحيبة ، وهى التى تحتـــل مساحة خمسة وثلاثين فدانا من الأرض ، اى ما يقارب مئة واربعين الف متر مربع ٠٠

والمشاهد للأبنية الخاصة بسكن الطلاب ، المأهول منها ، والذى لا يزال فى طور البناء ، يستطيع ان يتصور كثرتهم المؤلفة ـ فضلا عن ابناء مسلمى الهند ـ من الوافدين اليها من مختلف انحاء العالم ، وكلهم يجد منزله المناسب دارسا وطاعما ومقيما ٠٠

ولقد طالما قرأت وسمعت عن مميزات هذه المؤسسة العملاقة فى فن التربية الاسلامية حتى بت كبير التوق الى العيش فى وسطها ولو لأيـــام قليلة ، تمكننى من التزود بما يهمنى من المعلومات العملية فى هذا الميدان٠ وقد سبق أن أودعت بحثى المقدم الى المؤتمر العالمى للتعليم الاسلامى بمكة سنة ٩٧ بعض الاشارات الى تجارب هذه المؤسسة فى حقل التربية الاسلامية ووجهت أنظار المعاهد الاسلامية الى الانتفاع بها ، عن طريق ارسال بعثات طلابية للاقامة فيها لمدة محدودة ٠٠ ومن ذلك ايضا اننى حثثت ادارة معهد منداناو الاسلامى ، فى مدينة ماراوى سيتى بالفلبين ، على ان تتخير عددا من طلابها تبعث بهم الى النـدوة للاقامة فيها بعض الأشـهر ، ليشاركوا فى دورات تربوية ، ويمارسوا بعض النشاط الذى تقوم به لترسيخ العربية فى ألسنة الطلبة ، وقد تعهدت للمعهد يومئذ أن أقوم بتسديد نصف تكاليف هذه البعثة ٠٠ ولكن المعهد مع اقتناعه بهذه الفكرة لم يبد استعدادا لتنفيذها حتى الآن ٠٠

وانما كان اعجابى بنـدوة العلماء حتى الأمس عن طريق السماع ، ثم عن طريق طلابها الوافدين الى المدينة ، أمـا الآن فقد تهيأت لى كل الأسباب التى تجمع بين الخبر والخبر ٠٠ فلا غرابة اذا رأيتنى شـــديد الحرص على تتبع كل ما أمكننى تتبعه من واقع الحياة وألوان العمـل فى هذا الصرح العلمى العالمى ٠٠

انيسى الملازم :

وشد ما كان سرورى بالغا عندما رأيت بين مستقبلى ذلك الابن العزيز الذى كان أحد النماذج الكريمة ، التى قدمتها النـــدوة الى الجـــامعة الاسلامية ، وبعد السنوات الأربع اعادته الجامعة الى النـدوة مدرسـا ناجحا يجمع بين الحسنيين من اعداد الندوة وروحانية المدينة ، ولقد طالما اعجبت به طالب علم لا يكتفى بما يتلقاه من محاضراتى وزملائى فى الجامعة فهو يلاحق اساتذته بالسؤال عن كل ما غمض عليه ، ولا انسى تلك الزيارات اللطيفة التى كان يخصنى بها فى منزلى من قبـاء للغاية نفسها بين الحين

والحين .. وانه والله لضرب من الوفـــاء ســـعيد أن اجد من أمثـــال أبى سحيان روح القدس هذا ، فى كل بلد زرته من العالم الاسلامى ، شبابا يؤدون رسالة جامعتهم الاثيرة على خير وجه ، ويحملون لى فى الوقت نفسه أكـــرم مشاعر الود وأطيب الذكريات .. وهم بعض الأحبـــة الذين قلت عنهم فى رائيتى الهندية

وهانذا أنى اتجهت فواجـد صفيا يساقينى المودة والـبرا

ولكم يسرنى أن يكون هذا الفتى الصالح أنيسى الملازم مدة وجودى فى لكناو ، بل وفى معظم الامكنة التى قدرت لى زيارتها من الهند ، لا يكاد يفارقنى فى حل ولا ترحال . ورأى الاخوة المسئولون أن يعفونى من مسئولية العمل ريثما ينظمون لى البرنامج المناسب ، وهكـذا أتيح لى أن اقضى ساعات الأصيل فى جولة نستطلع خلالها معالم المدينة العريقة .. وآثرت أن تكون مطيتنا أبطأ الوسائل فى هذه الجولة ، ليكون استمتاعنا أكثر ، فوقع اختيارى على (الرتشاك) الذى جربته من قبل فى أندونيسية ، والذى هـو ـ مع الدراجة العادية ـ أكثر شيوعا هنا بسبب الغلاء الفـاحش فى أســـعار الوقـــود

اقـرأ باسم ربـك :

. وعبرنا الطريق الترابى باتجاه قلب المدينة ، ومررنا للمـــرة الثانية بمبانى جامعة لكناو الحكومية ، التى شاهدنا على مقربة منها بعض جنود الشرطة من حملة العصى لدى قدومنا من المطار ، وقد سألت مرافقى عن مهمتهم هناك فعلمت أنهم مكلفون حراسة الامن الذى لا ينفك مهددا بمشاغبات الكثير من طلابها ، الذين يمثلون أشرس اصناف الطلاب الجامعيين فى العالم .. ولا أدرى كيف قضى على الندوة أن تجاور هذه المؤسسة ، فتتعرض بين الحين والآخر لتحرشات هؤلاء الأشرار المشحونة صدورهم بالحقـد على كل ما يمت الى الاسلام بصلة ، فلا يكادون يكفون شرهم عن شـــباب الندوة ، يهاجمونهم بأصناف الاساآت من وراء الجدر مهددين متوعدين؟ ويقودنى ذكر هذا الضرب من الطلاب الجامعيين الى استعادة ما أعرفه عن هاتيك التيارات الشيطانية التى جعلت تهاجم معاقل العلم فى أوربة وأميركة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، التى حملت الى العالم الصليبى بذور الفتن الحمراء ، فما برحت تزلزل امته ، وتروع وجوده ، بما تفرز له من اجيال ثورية يجتاحها الرفض الصاخب لكل القيم الانسانية ، وتنشر سمومه فى كل مكان من عالم الانسان ..

ومن حق هذا أن يذكرني بالوجه المقابل من مواريثنا الاسلامية فى مضمار العلم ، حيث يكون من أولياته فى نفوس طلبته ومشبختة التساون القلبى على نشدان الحقيقة والتنقير عنها ، ثم التحلى بأخلاقها المثالية التى أجملها التوجيه النبوى بقوله (ص) (تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار) (١) وطالب العلم فى مفهوم الاسلام ليس ذلك التلميذ الذى يلتحق بأحد فصول الدراسة أولية أو جامعية أو مسجدية ، بل يشمل ذلك الوصف كل ذى صلة بهذه المنظومة ، يستوى فى ذلك أصغر التلاميذ وأكبر العلماء، لأن كل مسلم هو فى الحقيقة طالب للعلم . الذى به يعرف ربه ، وبه يتعرف سبيله القويمة فى مسالك الحياة ، ومن أجل ذلك لا يـــزال من خصائص الوسط التعليمى الاسلامى اسباغ صفة طالب العلم على أهل العلم مطلقا ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم يبدؤه من المهد ولا يفارقه حتى اللحد٠ ولا يستغرب ذلك من أمة أول ما نزل من وحى ربها على قلب نبيها (اقرأ باسم ربك) وهى الميزة التى خصت بها دون غيرها ٠ فبها تنظر الى العلم على أنه نور من الله يهدى به من يشاء ، وبه يرفع الذين أوتوه مع الايمان أعلى الدرجات فى الدنيا والآخرة ٠٠ وبذلك يكون لأهله عصمة من الفساد، ونجاة من الضياع ، وقائدا الى كل صلاح ورشاد لأنفسهم ولسائر أخوتهم من عبـــاد الله ٠٠

وأين هذه القداسة من أعين ضلت طريق الحق ، فما تبصر الا من زاوية البطن والفرج ، ولا تفقه للحياة من معنى الا بمقياس الحقد والكراهية ، اللذين أحالا الحياة كلها محرقة تلتهم أول ما تلتهم طمأنينة الانسان ٠٠

مساكن فى قلب الانهار :

وعبر بنا الرتشاك الجسر القائم على نهر (غوعتى) ذلك النهر العريض الذى يستمتع بتكريم الهندوس ، على طريقتهم فى تقديس المــاء أيا كان حاله ، ومع ذلك لا يستنكف عن أن يضربهم بطاماته الجارفة بين الحــين والآخر فيهدم ويقتل ويشرد حتى لا يجدوا منباة من غضبه الا باللجوء الى السدود يقيمونها بوجهه على امتداد الطريق الذى سلكنا بعضه ، وقد أعدوا لمواجهته المضخات الجبارة يكافحون بها طغيان السيل الذى كثيرا ما يفاجىء السكان على حين غــرة متدفقا اليه من الأبعــاد فتتولى السدود توزيع طاقاته ، بالحيلولة دون تلاقى السيل والنهر ، ثم تقــوم اجهزة الضخ برفع ما وليها من مجمعات المياه الى قلب النهــر الغاضب ،

---

(١) من حديث شريف رواه ابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الاوسط عن ابى هريرة ٠

حتى يرتفع منسوبه عن مستوى المحال المحيطة به ·· وهى الوسيلة الوحيدة فى مكافحة السيول التى تستقبلها الهند فى كل مكان من سهولها ، المعرضة أبدا للغرق ، ولالتهام الآلاف من سكانها فى كل عـام ··

ولفت نظرى على ضفة النهر بناء أقرب ما يكون شبها بالمسجد الصغير على حين ليس حوله أى مجموعة من المساكن فيظن أن سكانهـا يعمرونه بالصلاة ولما استوضحت عنه رفيقى أبا سحبان كان جوابه أنه منزل أحد الهندوس أقامه هناك تقربا للماء الذى هو أحد آلهتهم ··

وهكذا بدأت أفهم لماذا تقوم بعض المساكن فى قلب الأنهار أحيانا وعلى ضفافها فى هذه الاوساط الوثنية ، مع أنها تعرضهم لما يسميه علماء الصحة عمى الأنهار ، وربما كلفتهم حياتهم فى الكثير من الأحيان ··

الأخسرون أعمـالا :

ان عبادة المياه لدى الهندوس لا تقف عند حدود السكن فى أوساطها وعلى ضفافها كما أسلفت ، بل أن المساكين ليتقربون اليها بالنقود أيضا، فيلقون بها الى أحضانها وربما فعل ذلك ذو الفقر الذى هو أحوج ما يكون الى هذه القطع يدفعها راضيا الى القاع ! · وقد ذكرنى هذا بما يصنعه بعض الشيعة الايرانيين عندما يطرحون النقود على قبور أهل البيت فى المدينة ، وكما يرى الزائر لبعض مشاهد الأولياء فى مصر حيث يدفع المضللون المـال ، كل على قدر طاقته ، الى أقفاص القبور سائلين بها العطف والعون والمدد الذى لا يلتمسه الموحدون من غير الله ·· وعلى مقربة من تلك الأضرحة يتدافع المتسولون للحصول على ثمن القوت ولا يكادون يجدونه، فهم بازاء هذه الأحداث المحظوظة كما عبر عنهم حافظ ابراهيم بقوله :

من لى بحظ النائمين بحفـرة	قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها	بحر النذور وتقـرأ الآيـات
ويقال هذا القبر بـاب المصطفى	ووسـيلة تقضى بهـا الحاجات
وأنا المعذب فى الحياة وليس لى	يا أم دفر ما به اقتـات (١)

وتثب الى خاطرى فى الوقت نفسه صور الاحداث الفقراء الذين شاهدتهم فى مياه باسيلان بالفلبين ، حيث يتجمعون حول السفن الحاملة للمسافرين ، يستحثونهم لالقاء النقود المعدنية الى البحر ، فلا يلبثون أن يتلقفوها قبل بلوغها القاع ·· ويظل الفرق بين الفريقين أن هؤلاء الأحداث يقومون بمسابقاتهم لاعبين رابحين ، على حين يقدم الآخرون على عملهم ذاك جادين عابدين خاسرين ! ··

---

(١) أم دفر كناية عن الدنيا ·

وتابى الوثنية الا أن تفرض مظاهرها فى كل شـــارع ومنعطف ·· فعلى كتف نهر غومتى ينهض أكثر المعابد التى شهدناها فى ساحات لكناو الناقة ، اذ بنى على جانب من الجادة العامة فلا يدنو منـــه سوى القاصد اليه ، وقد طلى ظاهره وداخله بالالوان الجميلة ، ونصبت فى صدره وعلى جوانبه الاوثان ذوات الاختصاصات المخالفة ، وعلى مقربة من المعبد وقف باعــة الزهـــر الاصفر ــ شـبيه الآقحوان ــ بانتظـــار العباد فيشترون منه ما يعوزهم لاسترضاء الآلهة ، ثم يسلمونه الى السادن الذى يضعه بين يدى المعبود المنشود · وعلى مقدم الزهر حينئذ أن ينحنى راكعا أو يخر ساجدا لتمثاله ، ثم ينهض جامعا بين راحتيه وهو يتمتم بالطلب الذى يريد ·· ويختم المشهد بضربة من قبل السادن يقرع بها الجرس المعلق ايذانا بانتهاء النوبة فيدفع اليه العابد جعله المطلوم ويمضى لوجهته ·· وبذلك يتفرغ لغيره وغيره ممن ينتظرون دورهم ··

وأى سوق سلكت لا بد أن تجد فيها معبدا أو اكثر ، معدا لاستقبال العابدين ، وبجانب كل منها بائع الزهر الذى لا مندوحة عن تقديمه للآلهة·· وأصلح الأمكنة لاقامة هذه المعابد فى تصورهم ما جاور الأنهار والاشجار· ولم ار ثمة معبدا الا رأيت فيه السادن الذى يستقبل الزائر ويتناول منـــه الزهر ليضعه على المعبود الذى يقصده · وطبيعى أن له على ذلك جعـــلا لا بد منه ، وان كان غير محدد ، فالمعابد اذن كأى حانوت تجارى يبتغى القائم عليه أمنيته من الربح ، ولهذا ترى هؤلاء المرتزقة جادين فى عرض مغرياتهم بمختلف أنواع الزخرفة المناسبة ··

والحديث عن هذه المعابد وملحقاتها طويل ، سأعود اليه فى حلقة أو حلقـــات أخـــرى ··

القصـــور أم قبـــور :

وأثناء عبورنا بحى (قيصر بار) استوقفت نظرى تلك البنى الشامخة المترفة ، وكأنها بعض القصور الملكية القديمة ، التى كنا نقرأ عنهـــا أو نتصورها فى قصص المتخيلين ·· انها طبقات بعضها فوق بعض · وقد ازدان كل منها بالعديد من الشرفات المقوسة ·· وأحاطت بهـــا الحـــدائق الواسعة المفروشة بالناعم الانيق من العشب السندسى ، وكانت مفاجأة غير متوقعة أن اسمع الأخ أبا سبحان يحدد لى هوية هذه البنى بأنها قبور بعض ملوك الشيعة ، الذين كانوا ذات يوم حكام هذا البلد ، بل حكـــام امارة (أود) كلها حتى انتزعها من أيديهم غـــزاة الاستعمار الانجليزى بعد معارك هائلة ، لا تزال آثارها بارزة فى أطلال القصور الملكيـــة التى سنزورها فيما بعد ان شاء الله ··

الفن المدمر :

وفى الشارع القريب من ذلك الحى ادركنا وقت المغـرب فاتجه بى صاحبى نحو أحد المساجد الشعبية ، وكان علينا أن نعبر اليه من خـلال زقاق لا يتسع لاكثر من اثنين ، ومع ذلك فقد صفت على جانبيه العشرات من الرسوم التى تعرض أجسام النسـوة العاريات تماما الا من غطـاء العـورة الغليظة ٠٠ ومثل هذه المعروضات الجنسية أمـر معروف فى ظل المجتمعات الوثنية القائمة على عبادة الشهوات ٠ وقد رويت فى كتـابى (تأملات فى المرأة والمجتمع) ما حدثنى به زميلى فضيلة الشيخ عبد الغفار حسن المدرس بالجامعة الاسلامية ، عن مرئياته فى أحد المعابد الهندوسية ، وبينها صورة امرأة ورجل فى الوضع الجنسى ، وبجانبهما رجـل آخر ينتظر دوره ! ٠٠ وطبيعى أن أول مؤثرات هذه المشاهد ، وبخاصـة فى المعابد ، اسقاط منزلة المرأة من المستوى الانسانى الى أدنى الدركـات البهيمية ، فى اطار من مصطلحات الفنون ٠٠ وهو نفسه الوضع الذى صارت اليه مدنية اليونان والرومان من قبل ، ثم ورثته مدنية الغرب من بعد ، حتى أصبح الجنس هو الطابع المميز لحياة الناس فى كل مكان وصلت اليه سموم هـذه المفاسـد ٠

النظـافة المفقـودة :

وعلى مقربة من مدخل ذلك المسجد الشعبى المتواضع أقيم اثنان من المطاهر يفصل بينهما حاجز من الصفيح ، ولا يكادان يخلوان من قاصدين صباح مساء ، دون أن يحجبهما عن أعين الناس ساتر ٠٠ ومثـل هـذا المنظر المؤذى شهدت فى شوارع أخرى من ذلك البلد ٠٠ ومـا أدرى أكان وضعا قصد به الاساءة ، أم هو من الامور العادية التى لا يراد بها سوى التيسير على الناس ! ٠٠ وأرجح هذا التفسير للأخير قياسا بما رأيته من قلة الاهتمام بالنظافة العامة فى العديد من شوارع لكناو وأزقتها ٠٠ وأذكر من ذلك اننا دخلنا ذات مساء احدى الأسواق الشعبية العامرة ، فما كدت اتجاوزها الا بشق النفس ، لكثافة الروائح الكريهة التى شحن بها فضاؤه، متصاعدة من مجارى المياه الملوثة المتدفقة أبدا بفضلات البيوت ٠٠ ومـع ذلك فالعشرات من الناس العاملين هناك والمارين لا يرون فى ذلك أى بأس، لأنهم الفوا لأمثاله فى مختلف الامكنة وبخاصة القديمة منها ٠٠

الغـلاء والضرائب والدراجات :

ونبهتنى برودة المساء الى ما كدت انساه من حاجتى الى الثياب فى حقيبتى التى لا أدرى موعد عودتها ٠٠ نعرجنا على بعض المتاجر العامرة

جدا فى شـارع (حضرة كنج) حيث اشتريت قطعة من القماش ومنامة وبعض الجوارب بأضعاف ثمنها المعهود لمثلها فى المدينة العزيزة ، على الرغم من أنها كلها من مصانع الهند ، وهو غــلاء يسترعى الانتباه ٠٠ وقد استوضحت السبب فكان الجواب أن ضرائب الدولة تستولى على الجزء الأكبر ، حتى أن الدخل الذى يبلغ مئة ألف مثلا تستحوذ منه على الثمانين٠ ومع ذلك ، ومع أن السلع مسعرة من قبـل الدولة أيضا ، فهى متفاوتة الثمن بين مكان وآخر ٠٠ ومن أمثلة ذلك أن شالا كشميريا ، سألت عن ثمنه فكان مئتين وتسع روبيات ، وسألت عنه فى متجر آخر فاذا هو مئتـــان وتســـعون ٠٠

وبهذه المناسبة أذكر القارىء بأن أروع ما حققته الهند لنفسها حتى الآن هو الكفاية الذاتية ٠٠ ولكى تدرك ذلك تصور ان كل شىء يقع عليه بصرك فى المنازل والفنادق والحوانيت ، وكل ما تراه يتحرك فى شـوارع الهند من الآليات ، ولعلى لا أغالى اذا قلت أيضا : كل ما يئز فوقـك من محركات الطائرات هو كله من صناعة الهند ٠٠ فهى لا تسمح باستيراد أى شىء من الخارج ، الا أن يكون هبـــة دون مقابل من المال ٠٠ اللهم الا النفط الذى لم توفق حتى الان الى حاجتها منه فى أراضيها ، فهى تستدرك أمره برفع أثمانه الاستهلاكية لتكـــره الناس على الاقـــلال من استعمال السيارات ، ومن أجل ذلك يكثر الزحام على القطارات للسفر الداخلى لانها أوفر وأقل استهلاكا للنفط ، وبعض هذه القطارات تسير بالتيار الكهربائى، ولذلك أيضا يكثر استعمال الدراجات الثنائية للافراد ، والثلاثية ــ الرتشاك ــ للنقل الجماعى ، وأكاد أجزم بأنى لم أر فى لكناو بخاصة سيارة أجرة صغيرة واحدة ، الا تلك التى يسمونها التاكسى وهى ليست أكثر من عجلة بدائية تنفر العين من منظرها ٠٠ والناظر الى شوارع لكناو الرئيسية مثل أمين اباد وأمثاله ، وبخاصة ساعة الأصيل ، يكاد لايرى فى أوساطها الا الدراجات على أنواعها تتحرك ، ويكاد لا يجد موطئا لقدمه خلالهـــا الا بصعوبة ، وهذا ما شاهدناه بعد ذلك فى سائر الحواضر الهنـــدية التى قدرت لنا زيارتها ، الا فى دهلى ، ولا سيما بومباى حيث يبلـــغ عـــدد السيارات كما قيل لنا خمسة وسبعين الفا ، ومعظمها من الاصناف الصغيرة ــ التاكسى ــ وكلها مصنوعة فى الهند وبأيد هندية ٠٠ ولا غرابة فى كثرة هذه الآليات ، وشدة ازدحام الشوارع بالمارة فى بـــلد كالهند زاد عدد سكانه على ستمئة مليون ــ كما اتضح فى آخر احصاء ــ ٠٠

قصــة الاكتفــاء الــذاتى :

وقد يتساءل القارىء كيف استطاعت الهند ان تحقق لنفسها كل هذا

التقدم الصناعى الذى أمن كل حاجاتها ، بل أمن لها حتى دخول نادى الذرة الذى لم يتح حتى الان الا للندرة من دول العالم ! ..

وللاجابة على ذلك لا مندوحة من تذكير القارىء بحركة العصيان المدنى التى سبقت عهد الاستقلال ، حيث قام زعماء الهند ، وفى مقدمتهم رجال الاسلام ، باعلان المقاطعة العامة لمنتوجات بريطانية ، التى اتخذت من الهند سوقا لاستهلاك مصنوعاتها .. وحيث كانت استجابة الشعب على أتمها لتلك الدعوة ، فامتلات ساحات الهند بالبضائع الانجليزية التى استحالت رمادا ، واتجه الناس عندئذ الى انتاج ما يحتاجون اليه بايديهم وبمعاملهم البدائية التى اخذت سبيلها الى الترقى المستمر . حتى اضطرت بريطانية العظمى الى الركوع أمام ذلك التصميم الجبار ، وما لبثت أن دعت زعماء الهند الى لندن للتفاوض على الاستقلال . ولا ننسى هناك موقف غاندى ، وقد دعى لمشاهدة المصانع الانجليزية التى عطلتها المقاطعة وجعل رئيس وزراء انجلترة يثير رحمته بالملايين من عمالها العاطلين ، فكان جواب غاندى له يومئذ « لو رأيت مئات الملايين من الهنود الذين جنى عليهم استعماركم لانستك مأساتهم مصيبتكم » ..

أضف الى حركة المقاطعة هذه ما سبقها أيضا من عملية التصنيع التى بدأها المستعمر ، الذى لم يكن ليفكر قط بمغادرة الهند ، اذ رأى أن الاستمرار على استيراد السلع المصنعة من انجلترة من شأنه أن يرفع تكاليفها الى حد لا تستطيع معه منافسة الصناعات العالمية الاخرى ، وبخاصة اليابانية ، فخير تدبير اذن هو الاستفادة من رخص الايدى العاملة الهندية بتشغيلها فى مصانع تقام فى الهند نفسها . وسرعان ما نفذت الفكرة وبوشر بابتعاث الهنود الى انجلترة للتدريب على مختلف الصناعات .. فكان ذلك فى نهاياته البعيدة ، تقديرا الهيا وضع الهند فى المسار الصحيح الى الاكتفاء الذاتى الذى نلمسه الان ..

وانى لأتساءل وأنا أسطر هذه الملاحظات وفى القلب غصة لاذعة : لقد أعلن العالم الاسلامى مقاطعة المستعمرين العديد من المرات ، وكثيرا ما أقدم على اتلاف مصنوعاتهم كما فعلت الهند ، ومع ذلك لم يستطع بلد اسلامى واحد ان ينتقل من المقاطعة الى العمل ، ومن الاستيراد الى الاكتفاء الذاتى الذى انتهت اليه الهند .. فما سبب ذلك ؟ .. ولماذا لم نحقق بعض ما حققته الهند الصابرة حتى الان ؟!

النفط يجر الى التمرد :

وأعود الى موضوع النفط وما تقوم به حكومات الهند من محاولات جادة لحل أزمته عن طريق التقليل من استهلاكه ٠٠ فأنقل للقارىء ما علمته عن هذا الامر ، وخلاصته أن طلائع النفط قد برزت فى منطقة أسام فى أقصى الشرق الشمالى من الهند ٠ وكان المأمول أن تساعد هذه المكتشفات هنالك فى تخفيف الضغط الذى تعانيه هذه البلاد بسبب فقدانه بين مصادرها الاقتصادية ٠٠ الا ان الواقع جاء معاكسا للمتوقع ، ذلك ان سكان تلك المنطقة قد وجدوا فى ظهور الذهب الاسود فرصة لتوكيد مطالبهم الانفصالية فهم اليوم فى شبه تمرد على السلطة المركزية ، يعلنون ارادتهم بالحكم الذاتى . كبعض المناطق الاخرى التى تميزت عن جسم الدولة بكيانها الخاص ٠٠ ومن هنا كان الجمود الذى طرأ على أعمال النفط فى ذلك الجانب من البلاد ، لان أهلها مصممون على الاحتفاظ بتلك الثروة الجديدة لمنطقتهم وحدها ٠

وهذه النزعة الذاتية هى التى جعلت صدور القوم ضيقة بهجرة المسلمين من بنغلادش الى أسام المجاورة ، فلم يجدوا سبيلا لترجمة تعصبهم الا بالمجازر الدامية يوقدون نارها فى أوساط أولئك المساكين الذين ضاقت بهم الارض والحياة ، فلم يروا مفرا من شقائهم الا بالنزوح الى جيرانهم فكان نصيبهم القتل الجماعى بسكاكين هؤلاء الجيران !٠٠

اللقـــاء الأول :

الخميس ١٤٠١/٣/٤

ضحى اليوم ، وكنت فى شرفة المضافة العليا أطالـع بعض الصحف الاسلامية ، أقبل الاخ الشيخ واضح رشيد ليطلعنى على برنامج العمل الذى أعده لى ، وقد اتفقنا على اقراره بعد قليل من التعديل ، وبهـذا البرنامج بت مسئولا عن محاضرة واحدة فى كل يوم ، أربع منها فى مادة الادب ، واثنتان فى التربية والدعوة ، والسابعة خطبة الجمعة ٠٠ وقد رأى الاخوان أن يبدأ ذلك منذ اليوم ، حيث يجمع لنا طلبة الدراسات العليا فى لقـاء للتعارف بقاعة المحاضرات ٠

وفى الساعة العاشرة ق ظ تم ما ارادوا ، اذ ملئت القاعة بالطلاب ، وأخذنا مكاننا مع الاساتذة على مدرج الخطابة ، وبدأ الحفل بآى من الذكر الحكيم تلاها أحد الطلاب من سورة الشورى ٠٠ وما أروع أن يكون بينها قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ٠٠) وأعقب التلاوة الأخ الشيخ واضح فقد منى الى الحضور بكلمة كريمة لا أشعر أنى أهل لمثلها ، بيد أنها فيض من الحب الذى يكنه كل منا نحو الآخر ٠٠ ولمـا جـاء دورى أبلغت الحضور من الاخوة تحية الجامعة الاسلامية ممثلة بفضيلة نائب رئيسها الدكتور عبد الله الراشد ٠ وأسرتها الكبيرة من الشيوخ والطلاب ، الذين يعرفون الكثير عن هـــذه الندوة العزيزة ،ممثلة فى رئيسها الرائد الاسلامىفضيلة الشيخ أبىالحسن الندوى ، وفى خريجيها الوافدين الى الجامعة الاسلامية ، وهم فى أخلاقهم العالية ، واجتهادهم المميز ، واقبالهم الفائق على لغة القـــرآن العظيم ، صورة طيبة لمعطيات هذه المؤسسة المجاهدة ٠٠

ووقفت جانبا من كلمتى على تذكير هؤلاء الطلبة بالمهمـة الضخمة التى هم مرشحون للنهوض بها فى طريق الدعـــوة الى الله ، من ترسيخ لقواعد الاسلام الصحيح ، والاسهام فى عملية الانقاذ العام لهذا العـالم المتخبط فى كثيف الظلمات ٠٠ تحقيقا للغاية العليا التى من أجلها أنشئت هذه الندوة قبل تسعين سنة ، فكانت بفضل الله ، ثم بجهود أساطينها ، احدى المنارات التى تنشر أنوار الاسلام لا فى الهند وحدها ، بل على مستوى العالم الانسانى بعامة ، والعالم الاسلامى بخاصة ٠٠

وقد استغرقت الكلمة قرابة الساعة ، وكانت ولله الحمد محفوفة بنفحات من توفيقه سبحانه ··

الاتفاق والصدق سبيل النجاح :

ومرة ثانية نستمتع بفترة الاصيل الخارج عن برنامج العمل ، فحملتنا سيارة الجامعة الى شارع أمين أباد فى صحبة الأخوين الشيخ سعيد الأعظمى وأبى سحبان ، وعرج بنا الشيخ سعيد نحو أحد الخياطين ، من أصدقاء الندوة ·· وسرنى من هذا الخياط سمته الاسلامى ولحيته الجميلة ، ولكنى أشفقت عليه حين رأيته مكبا على شيشة نحاسية يمتص حلمتها فى نهم المدمنين ·· وقد وفقنا الى بعض الخير حين وجدنا لديه الالمام بخياطة الثياب العربية ، ووعد بانجاز المطلوب فى مساء اليوم التالى· ومن ثم مضى بنا الشيخ سعيد الى صانع الاسنان الصينى الذى وصفه بالبراعة والاستقامة ، فاتفقنا معه على صنع جهاز كامل بدل القديم المنهوك ·· وجزى الله الدال عليهما كل خير ، اذ أنجز كل منهما عمله فى موعده على أفضل وجه ·· أما أجرة الثوب فمثلها لدى خياطى المدينة لم تزد على سبعين روبية ، أى ثلاثين ريالا ، ولكن تكاليف الجهاز الاسنانى لم تزد على سبع المطلوب هنا ، مع أنه من أفضل المواد وأرفعها ثمنا بالنسبة الى غيرها ··

ومن ذلك الشارع حصلنا على بعض الحاجات الضرورية من مجاسد (ثياب تحتانية) ومعلبات ، ولما سألت دليلى عن مواضع المعجنات الصالحة توجها بى الى حانوت احتشد على بابه الناس فى زحام يعز اختراقه ·· وبعد جهد حصلا لى على ما يعوزنى من معروضاته الشهية حقا ·· ولما سألت عن بواعث هذا الزحام على هذا المكان بخاصة ، فى حين تكثر معارض المعجنات من حوله ولا زحام عليها ، فكان الجواب : ان هذا مصنع احد المسلمين وقد اشتهر بالصدق والاتقان ، فالناس من اجل ذلك يؤثرونه على غيره ··

فى مجلس العلامة النعمانى :

كان بين الكتب التى أهديت الى من مطبوعات الندوة واحد لفت انتباهى بعنوان (دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب) وهو من آثار العلامة محمد منظور النعمانى · وقد سبق ان لقيت هذا الفاضل اثناء وجوده مع الشيخ أبى الحسن فى المدينة الحبيبة ، ولكن الفرصة لم تتسع اثناء اذ للاحتكاك به كثيرا ، فلم أعرف منه الشىء الكثير ·· أما بعد اطلاعى على هذا الكتاب فقد وجدتنى على معرفة عميقة بميزات هـذا

الرجل . انه ذو علم واسع بما يتحدث عنه ، وعرض بارع لما يقرره ، هذا الى موهبة عقلية تستولى على احترام القارىء وتقديره ، يتوج ذلك كله نزعة فاضلة من حب الحق وانصاف أهله . فبهذا الكتاب الذى لا تجاوز صفحاته المئة والخمسين يكشف الستور الكثيفة التى طالما حجبت حقيقة الدعوة السلفية التى نهض بها الامام محمد بن عبد الوهاب ، ولا سيمافى الاوساط العلمية من الهند ، حتى بلغ التعصب على هذه الدعوة أن كتب فى العدوان عليها وعلى صاحبها عشرات المجلدات المشحونة بأكبر المفتريات . وبعضها بأقلام جلة من أهل الفضل الذين لا يرد كلامهم عند جماهير العامة وكبار المتعلمين ، فجاء العلامة النعمانى هذا يتتبع بدقة عجيبة مجارى الخطأ الذى تسرب الى أحكام هؤلاء الفضلاء فشوهها وشوه بها وجه تلك الدعوة البريئة النقية ..

ومن هنا جاء تقديرى الكبير لهذا الجهد النحرير . وللمترجم الذى نقل ذلك السفر النفيس الى لغة القرآن بأسلوبه الحاذق البصير بخصائص كلا اللسانين العربى والاردى . وانى لاتوقع أن يجعل الله لهذا الجهد المبرور فى خدمة الحق أثره الصالح فى قلوب محبى الحق من قارئى الأصل والترجمة بفضله ومنه ، حتى ياتى على الكثير من بقايا ذلك التعصب الهدام الذى لا نزال نواجهه لدى الكثيرين من المضللين والمضللين أينما حللنا من ربوع الاسلام .. ولا سيما عندما نتذكر ان غير قليل من أصحاب ذلك التعصب انما يتابعون رجالا أحسنوا بهم الظن فراحوا يرددون أقاويلهم دون مناقشة ولا تطلع الى دليل .. ولو أتيح لهم من يحسن الحوار معهم بالحكمة والموعظة والجدال بالتى هى أحسن ، لعادوا الى ما أدركوا من الحق وهم فرحون . وفى ترجمتى للداعية المرحوم الشيخ عبد الله القرعاوى من كتابى (علماء ومفكرون عرفتهم) عرضت مثلا واقعيا لهذا الضرب من الرجال فى أحد شيوخه من علماء الهند الذين قرأ عليهم الحديث ، وكان لا يفتأ يدعو على الشيخ محمد بن عبد الوهاب كلما عرض له ذكر أو فرغ من درس ، حتى كان ذلك اليوم اذ وضع المرحوم القرعاوى على منضدة شيخه كتاب التوحيد من عمل الامام المظلوم ، بعد أن خلع غلافه الدال على مؤلفه ، فما أن أطلع على مضمونه حتى راح يطريه ويدعو لمصنفه الذى يتمنى ان يعرفه .. وهناك أعلن الطالب الحكيم لأستاذه ان الكتاب الذى سره هو من قلم الرجل الذى يتقرب الى الله ببغضه .. ومن ذلك اليوم تحول الشيخ من الصف المخاصم للحركة الوهابية الى جانب أنصارها العاملين على نشرها ..

ولا جرم أن ذلك مصير كل منصف يريد وجه الله اذا وجد اليد الهادية الى الطريق القويم .. لا أستثنى من ذلك فردا ولا جماعة ، الا أن

يكون هذا الفرد أو الجماعة من الاتباع العميان لـ (أمام المبتدعين فى الهند احمد رضا خان البريلوى) (١) الذى يصفه العلامة النعمانى بأنه كان - على تقدمه فى مختلف الفنون - (مسارعا فى التفكير متطرفا فى التكفير ، دائم التعقب لكل حركة اصلاحية تستند الى صميم السنة النبوية · حارب نـدوة العلماء وعلماء ديوبند ، وكفر كل من قال فى الوهابية كلمة الحق ، ولم يمت حتى ترك وراءه أمة مبتدعة ·· دائمة الصراع مع أهل الحق فى شبه القارة الهندية) (١) ··

وما أحسنها مناسبة أن أجدنى على مقربة من منزل الشيخ فى ذلك الشارع ، فطلبت الى الأخوين أن يصحبانى اليه ·· وعند مدخـل المنزل المنشود شاهدت بعض مظاهر النشاط العلمى الذى يقوم به ، فهناك مكتبة الفرقان وفيها الكثير من كتب التراث الاسلامى قديمها وحديثها ، وكثـير منها من مطبوعات المكتبة نفسها التى تعد من أكبر دور النشر فى الهند · ولا ينفك العاملون فيها مشغولين بتجميعها واعدادها للشحن الى مختلف الانحاء ، هذا الى مجلة شهرية باسم (الفرقان) أيضا · مستمرة الصدور منذ خمسين عاما ، ويسهم فى تحريرها عدة من كبار علماء الهند ومفكريها ويتولى الشيخ كتابة الأبواب الثابتة من « معارف الحـديث » و « تفسير القـرآن » ··

واستقبلنا على المدخل صهر للعلامة هو الشيخ محمد زكريا المدرس فى دار العلوم بالنـدوة ، وما ان صرنا الى صـحن الدار حتى فوجئنا بالشيخ مقبلا نحونا يتوكأ على عصاه ، وقد بدا عليه الكبر والتعب فهـو يتحرك نحونا بجهد منظور ، فتأثرت لذلك وأقبلنا نسلم عليـه وأنا أقول : ما ينبغي أن نكلفك السير الينا ، فأنت أحق بأن نسعى اليك ··

وجلسنا الى الشيخ فى حجرة متواضعة كل شىء فيها يحمل طابع العلم والزهد والوقار ·· وترجمت له مشاعرى نحو كتابه الذى قـرأت، واستوضحناه عن بعض المسائل ذات الصلة بالحديث الشريـف · واستمعنا اليه يذكر بعض مؤلفاته فى خدمة هذا العلم ، الذى يوشك أن يكون وقفا على أمثاله من علماء الهند ، واذا بين هذه المؤلفات تصانيف لا ينبغى أن تحبس فى لغة واحدة ، بل لا مندوحة من ترجمتها الى مختلف ألسـنة المسلمين ، ليعم نفعها كل مكان من العالم الاسلامى ·· وانى لأكتب هذه الكلمات وبعض ما يخالجنى من أمل ان يطلع عليها أولو الغيرة من رجال

---

(١) انظر كتاب (دعايات مكثفة ··) ص ٩١ و ٩٢

الدعوة فى رابطة العالم الاسلامى بمكة ، ودار الافتاء والدعوة والارشاد بالرياض ، والجامعة الاسلامية بالمدينة ، فتتألف لجنة من أهل العلم والتحقيق للاطلاع على بعض تلك المؤلفات ، وتقرير ما ينبغى ترجمته منها الى العربية وغيرها ..

عمالقة الفكر الاسلامى بالهند :

لقد أتى على المسلمين حين من الدهر تمكن خلاله أعداؤهم من التفريق بينهم حتى لا يشعر فريق من المسلمين بما يعانيه الفريق الآخر .. ومن ذلك التعتيم الذى فرضوه على أخبار علماء المسلمين فى شبه القارة الهندية ، حتى باتت علومهم من الامور المجهولة فى معظم البلاد العربية، وحتى لتسمع بعض المثقفين منهم يتساءلون عما اذا كان لمسلمى الهند أى مجهود فى نطاق العلوم الاسلامية ! .. وقد كان من نعم الله ان زالت هذه الحجب ، وعاد التواصل بين اجزاء العالم الاسلامى ، على الرغم من طواغيت الحكام ، وبذلك أتيح للكثيرين من العرب أن يطلعوا على الثمرات اليانعات من العقول الاسلامية فى هذا الجانب من الارض ، فيدركوا أن هناك قمما من العبقريات التى ثبت بها الله دينه بوجه الزلازل المتبرة ، وأسهمت ولا تزال تسهم فى نشر نوره الذى عجزت وستظل تعجز عن اطفائه العواصف المدمرة .. وها هى ذى صدور المسلمين على امتداد عالمهم الكبير تتفاعل اليوم بالافكار المضيئة من علوم شبلى النعمانى وسليمان الندوى وأبى الأعلى المودودى وأبى الحسن الندوى وشاعر الاسلام محمد اقبال ، والعشرات من عمالقة الفكر الاسلامى فى الهند وباكستان .. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. والله ذو الفضل العظيم ..

ولقد أبى الشيخ متع الله بحياته أن نفارقه الا بعد أن وعدناه بقبول دعوته الى غداء الغد ، وذلك مما يسرنى دون ريب لأنها فرصة جديدة للاستزادة من الخير والبركات ..

الخطبـة الأولى :

الجمعة ١٤٠١/٢/٥

« الحمـد لله الذى كسانى جديدا من غير حول منى ولا قوة » كررت هذا الحديث الشريف أكثر من مرة وأنا أرتدى الثوب الذى خاطه لى ذلك الصناع الهندى ، وقد وجدت لهذا التحميد النقى طعما خاصا زائدا على ما كنت استشعره له كلما ارتديت جديدا من نعم الله . وذلك بالطبع عائد الى كونه أحد اثنين لا أملك هذا سواهما بعد فقدان الحقيبة وفيهـــا كل ما يعوزنى من عدة السفر ، وهاهى ذى ثلاثة أيام تمر على وصولى دون أن أتلقى عنها خبرا ٠٠ ومن يدرى فقد تكر الايام تلو الايام ونحن بالانتظار واذن فلا مناص من تلافى الامر بشراء ما يكفى من الملابس على الاقل ٠٠

وغادرت الحجرة مع الأخ الشيخ سعيد رأبى سحبان الى المسـجد المجاور ، وقد امتلأ فضاؤه المزدوج بحشود المصلين ، أكثرهم من طـلاب دار العلوم وأساتيذها ، وآخرون من مختلف الانحاء ، وبخاصة جـيران النـدوة من المسلمين ٠٠

وبعد أداء السنة التى لا بد منها عند الأحناف نصب المكبر ورقيت المنبر ، وكان موضوع الخطبة الاولى قول الله تعالى من خواتيم سورة الأحزاب : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ووقفت عند كل من أجزاء الآية الكريمة ، أوجـه العقـــول والقلوب الى معانيه بشىء من التفصيل والتبسيط ، الملائم لجمع فيه الفاقهون لألفـاظ الآية ، من طلبة العلم ، وفيهم المتعمقون لأبعادها من الشيوخ ، وبينهم الذى ليس من كلا الفريقين ، فهو يأنس بمجرد سماع الكلام الآلهى ، ويكاد يفطن لمدلولاته من خلال لهجة الخطيب ، وانفعال مشاعره بما يرى ويسمع ٠٠

وهكذا أدرت الحديث على النـــداء الأعلى للمؤمنين . ثم الأمـــر الحكيم بالتقوى ، وقد قرنت بسداد القول ، كارتباط السبب بمسببه ، لان تفاعل القلب بالتقوى هو الذي يبعث المؤمن على محاســبة النفس حتى يلجمها عن كل قول لا ينسجم مع حقيقتها ٠٠ ومن ثم ياتى الجواب المحدد لعواقب الأمرين صلاحا للأعمال ، ومغفرة للذنوب ٠٠ وهما من خصوصيات

المؤمن الذى يأخذ نفسه أبدا بهذا الضرب من المحاسبة الذاتية ٠٠ وأخيرا يشرق ذلك التذييل المبشر بأسمى ما يتطلع اليه الانسان مطلقا ، وهو الفوز العظيم الشامل لكل ضروب الخير والتوفيق والسعادة ، ولا سبيل الى ذلك الا بطاعـــة الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وبالكتاب الذى يهدى أبدا للتى هى أقوم ، مقرونة بطاعة ذلك الرسول الرءوف الرحيم ، الذى بمسلكه الأعلى جسم للناظرين والسامعين والقارئين كمال رســالته الخاتمة ، فلم يدع خيرا الا دل عليه ، ولا شرا الا حذر منه ونهى عنه ، حتى تركنا على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ٠٠ ومن هنـــا أطلت بالسامعين على حياة الصدر الاول من السابقين ومن تبعهم باحسان، وذكرت بتطبيقهم العملى لهذه التوجيهات الربانية ، وما انتهوا اليه بسبب ذلك من حيازة تامة لعـز الدنيا والآخرة ٠٠ ثم لفت البصائر الى واقـع المسلمين فى أوضاعهم الراهنة ، وكيف انصرفوا عن رسالتهم الى تقليد أعدائهم ، وتأييد كل ناعق ممن لا يريد بدين الله خيرا ، فكانت عاقبة أمرهم الخسار الذى يتخبطون اليوم فى ظلماته ، وسيظلون فى ضياعهم وتخبطهم حتى يعرفوا طريق العودة الى طاعة ربهم ونبيهم ، فيتقوا ويسددوا فيعودوا كما كان سلفهم خير أمـــة أخرجت للناس ٠٠

ومن ثم أدرت الخطبة الثانية على قوله تعالى من خواتيم ســـــورة الكهف (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمـــالا الذين ضل سعيهم فى الحيـــاة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صــــنعا) وعرضت لمـــا بين الآيتين كلتيهما من تقرير حاسم لوسائل الفلاح التى لا تخطىء أبدا ، وبالتزامها يسلك المسلم سبيله الاقوم على نور من ربه فلا يضل ولا يشقى ، وتحذير حازم من فراق ذلك النـــــور الى مفاوز الضياع ، حتى يصبح كل عمـــله خسرا وضلالا ، وذلك هو الواقع الرهيب الذى انتهى اليه الخلف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فجرفهم الغى الى مـــــزالق الفرقـــة والاقتتال والانسياق لكل ما يأمرهم به شياطين الانس والجن ، اذ أعرضوا عن طاعة الله ورسوله ، فضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، فدمروا أنفسهم ، وخربوا ديارهم ، وهم مع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعا ! ٠٠

وكنت أشعر وأنا ألقى بهذه المعانى فى أسماع المئات من المصلين أن مددا من وراء القدرة الشخصية هو الذى يسدد لسانى الى الخـــير الذى وفقنى الله اليه ٠٠

وأثناء طعام الغداء أطلعنى الأخ الشيخ واضح رشيد على برقيـــة الجامعة الاسلامية فى شأن قدومى ، ومعنى ذلك أن أربعة أيام بلياليها قد مرت على سفرها بـــ (التلكس) ما بين المدينة ولكناو ٠٠ اذ كانت قـــد

سلمت الى صاحب التلكس بالجامعة منـــذ ظهر الاثنين ، على ان تاريخ صدور البرقية يؤكد انها لم تغادر المدينة قبل يوم الاربعاء ، وبذلك يتقاسم الشطران تبعة تأخيرها فيكون لتلكس الجامعة يومان ولمصلحة العاكس الفضائى فى الهند اليومان الآخران ، وهنا وجـــدتنى اتساءل : أفى كل الايام يحدث مثل هذا (الاهتمام) ! ٠٠ أم هو واقع خاص بأهـل الشرق وحدهم ! ٠٠ واذا كان هذا نصيب البرقية العجلى ، فماذا على ان اتوقع بشأن الحقيبة الضائعة ليت شعرى ؟ ٠٠ أغلب الظن انها لن تصل ـ اذا وصلت ـ قبل عودتى الى المدينة ، حيث أكون فى غنية عن كل محتوياتها، ولا غرابة فقد مضت لنا تجربة أشد قسوة وأدعى الى التساؤل عن هذه وتلك ، وذلك بفقدان سبعة عشر صندوقا من مؤلفاتى شـحنت من بيروت الى الرياض قبل أربع سنوات ٠٠ يضاف اليها صندوقان من مؤلفاتى الاخرى شحنت من دمشق الى الرياض فى السنة نفسها ، وكان لها المصير نفسه، وحتى الان لم نعثر لهؤلاء المشحونات بأى اثر ، على الرغم من عشـرات المراجعات وتقديم أوثق البينات ٠٠ ولا حول ولا قوة الا بالله ! ٠٠

هــؤلاء جنـــود القـــرآن :

ما أروع منظرا شهدته صباح هذا اليوم ـ السبت ١٤٠١/٢/٦

لقد دخلت المسجد لصلاة الفجر فاذا الدوى يملأ أرجـاءه ٠٠ انهم طلاب تحفيظ القرآن يتحلقون فى المستطيل السماوى من داخل المسجد ، وكل منهم يتلو حزبه من كتاب الله بمسمع ومشهد من شيخ مجموعته ، وقد شغل بواجبه عن الآخرين ٠ ولعل أروع ما هنالك أن ينقطع التيـــــار الكهربائى وهم على شأنهم هذا ، كدأبه كل فجر ، فيستعيضوا عنه ببعض الشموع ، دون أن تسكت أصواتهم عن التلاوة ٠٠

ان هذا المشهد ليذكرنى بكلمة ذلك السائح الرومى الذى جاب بعض اقطار المسلمين فى الصدر الاول ، فكان مما رآه من خصائصهم ذلك الدوى المماثل لما اسمعه الان ، يتعالى بآيات الذكر الحكيم من اعماق بيوتهم ، فى وقت هو أحب ساعات النـــوم عند الشعوب التى عرفها اثناء تجواله فى الأقاليم الأخرى ٠٠

اجـل ٠٠ ما اروعـه مشهدا ٠٠ وما سـعده صباحا افتتح به هذا اليوم من حياتى ، الذى سيكون مباركا كله ان شاء الله ٠٠

لقد لبثت مليا اتامل فى خلفيات هذا المنظور فاطل من خلالهـا على المستقبل ، وقد انتشر هؤلاء الفتية فى مختلف الارجاء من أوطانهم المتباعدة

يتلون هذا الكتاب الخالد ، وينشرون نــوره فى ظلمات الناس ، فيسهمون فى الحفاظ على ميراثه السماوى بين أهل الارض ، تحقيقا لقوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وليت شعرى كيف سيتم حفظ هذا القرآن لو خلت البلاد من هؤلاء واخوانهم ومشيختهم فى عالم الاسلام !٠٠

الا بارك الله عملك يا ندوة العلماء ، واخواتك الناشطات لاذاعة كلمة الله فى شبه القارة الهندية ٠٠

وبارك الله عملك يا جامعة كونتور واخواتها الدائبات على حمل هذا المشعل المنقذ فى الجزر الاندونيسية ٠٠

وبارك الله جهود وزارة التعليم فى الحرمين المباركين ، وسائر انحاء المملكة العربية السعودية ، التى اكرمت جهود القائمين بخدمة هذا الكتاب الكريم ، ورعت بعطفها نصب الحفاظ له من الطلبـــة ، فكافأتهم بالمشجعات السخية ، وقدرت لهم جهـــدهم المبرور فالحقتهم بالمستويات المناسبة من فصول الدراسة ٠٠

وليبارك الله اخيرا عمل كل عامل فى خدمـــة هذا الكتاب الذى به وحده حياة العالم بأسره ٠٠

وليت الأزهر ، وهو المعقل الاسلامى العريق ، يعود كـرة أخرى الى خطته المثلى ، التى صرف عنها فى العهد الاخير ، فلا يقبل بين طلابه الا الحافظ للقرآن العظيم ٠٠ كى يستعيد المكانة التى كانت له ايام القمم من مشايخه ، والصفوة العليا من طلابه وخريجيه الذين بأجيالهم الفاضـلة ادى امانته للعالم الاسلامى جميعا ٠٠

لا سـوق سـوداء هنــا :

ولم يكن لدى من عمل سائر هذا اليوم اذ أبلغنى الأخ واضح أن جدولنا سيبدأ من ظهر الاثنين ــ بعد غد ــ لأن كثرة الأساتذة مدعوون غدا للسفر الى قرية (تكيه كلاه) لحضور الحفل الذى سيعقد هناك بمناسبة قــران ابن المرحوم الاستاذ محمد الحسنى ، فقيد الاسلام ، والداعية الموفق الذى أسال فقده دموع الآلاف من قرائه المنتشرين فى انحاء العــالم الاسلامى ، تغمده الله بجزيل الأجر والغفران ٠ وكان على أن استبدل ببعض الدولارات التى احملها ما انا بحاجة اليه من الروبيات ، فقصدت مع أبى سحبان أحد الأسواق ، فلم نجد راغبا في هذه الدولارات الا فى حدود السعر الرسمى ، اى لكل مئة دولار اميركي سبعمئة وسبعون روبية ٠٠ وذلك امر طبيعى فى

بلد تقوم سياسته الاقتصادية على الكفاية الذاتية فليس لتجاره حاجة الى الاستيراد ، والمنفذ الوحيد لتصريف العملة الاجنبية هو عند الراغبين فى السفر الى الخارج ، وحتى هؤلاء اذا وجدوا لا يزيـــدون عن التعـــرفة الرسمية الا قليلا ..

وانتهينا الى احد المصارف ، الذى قيل أن له صلة تبادلية مع احـد صرافى المدينة ، وتولى أبو سحبان أمر التبديل المراد ، ولبثت أنتظره على الرصيف ، وهناك شاهدت عجلة عليها مقادير من اليوسفى ذى المنظـــر الجميل ، فطلبت من بائعه كأسا من عصيره ، ولكنى لم أستطع اساغته لانه جعل فيه ملحا على عادتهم فى مزج الاشربة ، حتى الاناناس الذى نستلذ طعمه ، يأبون الا أن يغيروه باضافة الملح الى فصوله .. على عكس المألوف فى أندرنيسية ، حيث يدخل السكر فى كل طعامهم تقريبا ، ولا أدرى اذا كان لاختلاف المناخ بين البلدين أثره فى نشدان السكر والملح ، أو أنهما مجرد عادة تكررت فألفت ..

منظـــر مؤســـف :

وكان أبو سحبان قد عاد الى فناولته الكأس ليشربها عنى .. وأثناء ذلك لمحت منظرا آسفنى ، ولم أعرف له تفسيرا . ذلك أن فتى متين البنية كأنه من هــواة الرياضــة ، قد ارتفع الى الرصيف ، وعليه ثــوب ليس بالبالى ، ولكنه غارق فى طلاء من الأوساخ الكثيفة ، وعلى مقربة من بائع العصير انحنى ليلتقط فصولا من برتقالة نبذها أحد الآكلين ، وبعـــد أن مسح عنها التراب جعل يقذفها فى فمه واحدا بعد الآخر ! ..

وما أرانى أستغرب منظرا كهذا فى بلد يتراوح دخل العامــــل فيه ما بين ثلاث وثمانى روبيات فى اليوم ، أما الوسخ فيكاد يكون من مستلزمات الكثيرين من ناســـه ، حتى ان الحانوت الذى نشرب فيه القهوة بالحليب يقوم بخدمة رواده ــ الكثيرين ــ فتى يتعذر على المحدق أن يستبين لون ثيابه الأصلى من وراء الأوســـاخ ..

وغير بعيد من هذا المشهد المؤسف وفرة المتسولين الذين يلاحقونك بمثل الحاح المستجدين فى دمشق ، قبل قيام الجمعيات الخيرية التى قضت على هذه الظاهرة فى مختلف أنحاء الشـــام ..

الى مقــر الشيخ :

الأحـد ٧ ـ ٢ ـ ١٤٠١

بالأمس ودعنا الأخ الشيخ واضح رشيد وهو فى طريقه الى مقــر الشيخ أبى الحسن فى (تكيه كلاه) ولكنه لم يلبث أن عاد ضحى اليـوم الى النـــدوة ، حيث كنا نتهيأ للسفر الى هناك ، وعلمت أثـــر ذلك أن أبا الحسن ـ حفظه الله ـ قد أعاده لكى يرافقنى اليه ، فجزاهما الله عنى كل خـــير ٠٠

وفى تمام الساعة ٩ ½ تحركت بنـا السيارتان ومعنـا الأخـوان المصريان المبعوثان من قبل الأزهر للتدريس فى دار العلوم : الشيخ ابراهيم مطاوع والشيخ ربيع عبد الدائم ، وبقية الاخوة من الاساتذة ٠٠

الطريق كغيره فى هذه البلاد ، وفى البلاد التى زرتها من جنوب شرق آسية ، محفوف بالخضرة زروعا وأشجارا ضخاما ٠٠ ومررنا بالكثير من حقول الخردل والعدس ٠٠ وقد استوقف نظرى من هذا الاخير ارتفاعه على غير الهيئة التى عهدناها فى مزارع الشـام ، حيث لا تعدو شـجرة العدس هناك نصف المتر ،على حين أراها هنا تتجاوز المتر الى المتر والنصف ٠٠ وثمة مالا يحصى من شجر المانجو وقصب السكر والنيم ونحو مما يقتصر عطاؤه على الظل والخشب ، ومعظمها منثور على غير انتظـام ، وهى الظاهرة البارزة فى كل شيء ثاك حتى الابنية ، وقلما نعبر دسكرة لا نرى فيها المعابد الوثنية ذات الشكل شبه المخروطى ، وقـد نصبت على جوانبها تماثيل الآلهة ، وهى على الغالب ضيقة القاعدة تنبىء بأن العبادة فيها فردية ، بمعنى أن المـار بالمعبد يكتفى بالسجود السريع لهـا ، أو بالاشارة اليها براحتيه المطابقتين تحية واجلالا ٠٠ ومن هذه الظواهر الماثلة فى كل مكان مررنا به من الهند يتراءى لى أن النفس الهندية مجبولة على التدين ، وان كان الكثير من جيلها الجديد قد تجرد من هذا التصور ، الى حد ألا يتورع عن أكل لحوم البقر المقدس فى ديانته اذا وجد غفلة من الاعين ومع ذلك فهو لا يزال يمارس هذا النوع من عبادة الحجارة جريا مع التقاليد والتزاما للهوية القومية ، بل انه ليتجاوز بعبادته تماثيل الأحياء الراقيـة الى كل ذى نفس من الحيوانات والهوام والطير ، حتى الجرذ والحية والقرد والبعوضة ، لا يمس منها شيئا بسوء ، ايمانا من الهندوسى بأن كلا منها

لا بد أن يكون روحا لواحد من أسلافه ، وهى نفسها أصل عقيدة التناسخ التى تسربت من هنا الى الدروز والنصيرية وغيرها من النحل الباطنية ٠

تقـــدير شـــــعبى :

وبعد اجتياز الستين ميلا انتهينا الى قرية (رأى بريلى) فاخترقنا أسواقها وأزقتها الضيقة المتعرجة ، باتجاه دسكرة الشيخ القـائمة فى عزلة من أطرافها ٠٠ وفى أفضل تلك الاسواق شاهدنا بلاطـة كتب عليها بالحرف العربى (شارع أبى الحسن الندوى) ٠ وما أحسبها الا عاطفـة شعبية وضعتها هناك اعترافا بجميل الشيخ ، وتقديرا لفضله ٠٠ وما أبعد البون بين تسمية يطلقها ضمير الشعب على شارع أو مؤسســـة تخليدا لذكرى أحد المحسنين وأخرى تفرضها السلطة الباغية على مدرسـة أو ثكنة ، لتكره الشعب على ألفة ذلك الاسم ، لا لمأثرة قدمها صاحبها لبلده أو أمته ، بل لمجرد كونه كان واحدا من المؤسسين لتلك السلطة ، أو واحدا من أذنابها الذين أسهموا فى اذلال بلدهم المسكين ٠٠

وكان على السيارة أن تعبر الى مقر الشيخ طريقا خاصا مصنوعـا لهذه الغاية ، وهو مرتفع عن بسيط الارض المحيطة به ، ولكنه من الضـيق بحيث استشعرت الخوف على السيارة أن تنزلق بنا هنا أو هناك ، وبخاصة عندما وازينا المنحنى الحـاد المائل نحو الحى المنشود ، بيد أن السائق كان على غاية من الاطمئنان لانه سبق أن قتل هذا الجسر خبرة من قبل ٠

ولقد استرعى انتباهى زورق مستلق على مقربة من الممر ٠ وسألت عن الباعث على وجوده هناك ، فانبئت أنه وسيلة المواصلات لسكان هذه البقعة ، كلما دهمهم النهـر المجاور بطغيانه ٠٠ وقد شهدنا آثار مده عندما أدينا صـلاة الظهر فى مسجد المحلة ، القائم على كتفـــه ، حيث لا يزال الخط الذى تركه على الوسط من جدرانه بارزا يذكـــر المصلين بضرورة الاحتياط لمواجهته كيلا يأخذهم على حين غـرة ٠٠

وفى ساحة (تكية كاله) وهو اسم الجانب الذى يسكنه الشيخ ، وله اسم آخر هو (تكية الشاه علم ألله) كان فضيلته ينتظر الوافدين مع ثلة من أصحابه ، وما ان علم بوصولنا حتى نهض لاستقبالنا ، وكان عنـــاق بينى وبينه حميم ٠٠ اذ كانت المرة الاولى التى نتلاقى فيهـا على أرض الهند ، ومن ثم جلسنا الى جانبه مع الاخوة الآخرين ٠ وتداولنـــا بعض الأحاديث المفيدة ، وكل حديث مع الشيخ مبارك ومفيد ٠٠

ومعتكف شعرى وروحى :

وقد راقنى جو هذا الحى بما يجلله من الهدوء المساعد على التامل · أنه معتكف شعرى توافرت فيه كل أسباب الانطلاق الروحى ··

فها هنا منزل آل الشيخ تجمع بين البساطة والمهابة ، وعلى مقربة منها المسجد الذى اليه يثوب سكان الحى لتجديد الطاقات المؤمنة خلال الصلوات الخمس ، وبجوار المسجد يتدفق نهر (سى) فى خشوع العابد الذى لا يغفل عن ذكر ربه ، وهنا وهناك حدائق (الجوافية) الفيحاء تحمل الجمال والثمار للقوم الذين يقدرون نعمة الله ·

وفى هذا الجو المهيب أتحفنا الشيخ بضمة نفيسة من تاريخ هذه البقعة التى احتضنها التاريخ فيما احتضن من مآثر المسلمين فى أرض الهند ··

فها هنا عقد المجاهد الاسلامى العظيم السيد أحمد عرفان الشهيد المؤتمر الأول الذى نهض بعبء التعبئة لتحرير الهند من براثن الاستعمار الانجليزى الغشوم ·· وكان ذلك عام ١٢٤٢ هـ ··

لقد شهد ذلك الاجتماع التاريخى أساطين الرجال من المعنيين بقضية الاسلام علماء وتجارا ورجال أعمال ، وكلهم ممتلىء الجوانح أسى ونقمة من ظلم أولئك الطغاة ، الذين خربوا حياة المسلمين فسلبوهم عزهم وكرامتهم وأمنهم ، وكانت حصيلة المؤتمر ذلك القرار العظيم القاضى بوجوب العمل القتالى لتطهير البلاد من أرجاس الغاصبين ·

ولا حاجة لنكا الجراح بعرض ما رافق ذلك الجهاد الكبير من انتصارات باهرة ، ثم ما أعقبها من مآس مدمرة كادت تأتى على وجود الاسلام والمسلمين فى هذه البلاد ، بسبب التعصب الوثنى الذى جر الكثيرين من غير المسلمين الى جانب الأعداء ، فأنزلوا بدعاة الحق والخير والحرية أقسى واشرس ضروب الابادة والتنكيل ، حتى كانت المذابح الهائلة تفرغ بعض الحواضر الهندية الكبيرة من سكانها المسلمين جميعا ··

والحق أن ما كتبته من ترجمة للشيخ أبى الحسن فى كتابى (علماء ومفكرين عرفتهم) كان ينقصه بعض نفحات هذه البيئة ، وتتبع آثارها الطبيعية والتاريخية فى تكوين الشيخ العقلى والروحى ·· ولعلى ـ لو قيض لى أن أعيد طبع الكتاب ، أن أستدرك ما فاتنى من هذه الروافد المثيرة والمؤثرة ··

على مائدة أبى الحسن :

وتابعت وفود المدعوين للعرس ، ومدت الموائد ، ودعينا للطعام مع الشيخ ، وكان شهيا بسيطا ، يتألف من (القاورمة) وهو لحم مسلوق ثم مقلى . ومعروض فى غمرة من المرق اللذيذ ، ومعه أطباق الأرز المطبوخ على طريقة (البريان) مصبوغا بالزعفران ومخلوطا باللحم ·· واقرب ما يكون الى الطبخ العربى ، وبخاصة الشامى منه ، ولا يفوتنى هنا أن اشير الى نفاسة الطعام الذى تمتاز به مائدة المسلمين فى الهند ، فقد حضرت العديد من هذه الموائد فى مدراس ولكنار وبنارس واعظم كره ودهلى وبومباى وكجرات ، فلم أذق قط أطيب طعما ولا احسن طبخا ولا أزين عرضا منها ··

وقصارى القول أن الطعام كان سائغا لاذا ، وقد ضاعف متعته تناولنا اياه مع الشيخ والاخوة المرافقين والمدعوين ··

وفى أعقاب الطعام لاحظت أن بعض المدعوين يقبلون على الشيخ لتوديعه ، وفى ايمانهم ظروف يحاولون أن يضعوها فى يده ، الا أنه يعتذر عن قبولها بأدبه المعهود ، ففهمت من ذلك أنها هدايا مالية يقدمونها بهذه المناسبة · وكان فى نيتى أن اهدى الى العروسين تقدمة صغيرة ، فترددت خشية أن يكون حظها كغيرها ·· وقبل دخولنا سيارة العودة اخذت بيد الأخ الشيخ سعيد الأعظمى الى خلوة قريبة ، وهناك فاتحته برغبتى ، وبخاصة أن العروس — الزوج — هو ابن المرحوم الاستاذ محمد الحسينى الذى عز فقده على كل قارىء للرائد والبعث ، وكذلك العروس — الزوجة — هى ابنة أخينا الشيخ واضح رشيد ·· وكلهم من أنسباء الشيخ أبى الحسن ومن احب الناس الى فى هذه الديار ، التى يقومون فيها بأفضل الخدمات للدعوة على المستوى العالمى ·· ورجوت من الاخ سعيد أن يؤازرنى لاقناع الشيخ بقبول هديتى ، ولكنه تهيب أن يذهب معى اليه ، واشار على بعرض الفكرة عليه بنفسى ·· ولم اتريث فقدمت الى الشيخ ، وفى خلوة صغيرة كاشفته بامنيتى فاعتذر واصر ·· واخيرا قال لى : يمكن أن نقبل منك هدية رمزية ، قلت : انها كذلك لا تزيد عن مئة دولار ·· فاجاب : لا · بل دولار واحد فقط ·· وطبيعي انى لم أرض بذلك ، ولم يتح لى أن احقق من امنيتى شيئا ··

ذلك هو الملك والله :

وقبل ان افرغ من الحديث عن ذلك الحفل الكريم ، احب أن اضع بين بين يدى القارىء صورة مصغرة عما شهدته هناك من تقدير الناس لهذا الرجل الذى احبه المسلمون فى كل مكان من أرض الاسلام ··

فى الحديث الصحيح (اذا احب الله تعالى العبد نادى جبريل ان الله يحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل ، فينادى فى اهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض) (١) ..

ولعمر الحق ان فى حياة هذا الرجل وما يحيط به من حب أولى الايمان لدليلا على انه واحد من هؤلاء الذين اكرمهم الله بحبه ، فبهذا التوفيق الربانى يستولى على العقول والمشاعر ، فما يرسل الكلمة فى آذان مستمعيه حتى تصير الى قلوبهم فتهز وجدانهم ، وتحرك ضمائرهم ، وتبعث فى صدورهم الاشواق المتوهجة الى اكرم المثل .. ورحم الله امام التابعين الحسن البصرى ، الذى ساله احد كبار الخطباء عن رأيه فى خطبته فأجاب . (يا هذا ، أقلبك المريض أم قلبى ، فانى لم أجد لكلامك طعما ..)

ولا عجب ان يكون لأبى الحسن مثل ذلك التأثير فى قلوب محبيه من المؤمنين . وهو الذى ادب نفسه بأدب الوحى ، وروى قلبه من معين النبوة ، فهو ينظر بنور من ربه ، ويتكلم بروح من قلبه ، وشتان ما بين جنان جف من رواء الكتاب والسنة ، فلا يتجاوز بيانه الآذان ، وجنان اشرق بضيائهما فهو يتجاوز السمع الى اعماق الجنان ..

وانى لأنظر الى هذا الحب والتكريم الذى شهدته موجها الى هذا الرجل فى (تكية شاه علم الله) وفى لكناو ، وفى بومباى ، وفى المدينة المنورة ، وفى مكة المكرمة ، وفى الدوحة وبيروت ودمشق و .. فلا أتمالك أن أتساءل : أين الملوك والرؤساء والكبراء .. عن بعض هذا التقدير المنبثق من اعماق القلوب ! ..

ان لبعضهم مواكبهم ومهارجهم وحشودهم الهائلة .. ولكنها تدوم ما دامت لهم الدولة ، فاذا زالت نسيهم الناس وأداروا لهم الظهور بعد ذلك الظهور .. وأين هذا من ذاك ! ..

هنا العلم والفضل والزهد الذى يحوطه الحب ، ويغمره الود الخالص .. وهناك الجبروت الذى لا يجرؤ على مواجهة الناس الا فى سياج من الحرس المدجج بالحديد والنار والرادار . .

يحدثنا التاريخ ان والدة المتوكل - الخليفة العباسى - أطلت ذات يوم من شرفة قصرها تستطلع انباء الضجة المتصاعدة من الساحة المواجهة

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة (رض) .

وسألت : من هذا الذى الذى يتقدم الجماهير ؟ فجاءها الجواب قائلا : انه عبد الله بن المبارك أحد امراء المؤمنين فى علوم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقالت : ذلك هو الملك والله ، لا ملك المتوكل .

وما أشبه الليلة بالبارحة ..

وبعـــد .. فما شهدنا الا بما علمنا .. فغفرانك اللهم ولا نزكى عليك أحدا من عبادك ..

المحرومون فى كل مكان :

الثنين ٨ ـ ٢ ـ ١٤٠١

حبست نفسى على القراءة الى منتصف النهار ، اذ لم يكن فى جدولى أى عمل لهذا اليوم الا محاضرة ما بين العشاءين ، حتى اذا صلينا الظهر وتناولنا الغداء ، واخذت بعض الراحة فى غفوة قصيرة ، حملتنا سيارة الندوة الى شارع أمين أباد حيث أصلحنا وضع الاسنان عند صانعها الصينى ..

أثناء الطريق الى الشارع وعند نهاية الجسر باتجاه الحديقة العامة لاحظت مجموعة من المساكن المصنوعة من الاعشاب ، ومن ورق المقوى ، تقوم فى أسفل الجسر على امتداد طويل ، وقد تألفت من حجرات ـ بل جحور ـ متصلة فى حيز ضيق ، وقد تراكم عليها الغبار المتناثر من حركات السيارات والمشاة .. وعلمت من مرافقى انها مأوى بعض الأسر الفقيرة . فتذكرت أمثالها من الجحور البائسة التى شاهدتها فى بعض حواضر أندونيسية ، وتذكرت كذلك اولئك التعساء من الأسر التى تعيش على الأرصفة فى مدراس ـ بالهند ـ ومانيلا ـ بالفلبين ـ وطفت على ذاكرتى كلمة ذلك الأخ الفلبينى الذى كان رفيقنا فى مانيلا ، اذ سألته عن معيشة هؤلاء وعملهم فى طلب الرزق ، فقال لى :انهم يعيشون على ما يستخرجونه من صناديق القمامة ..

منظفات شعبية :

وامام جامعة لكناو الحكومية فى الطريق الى الندوة شاهدت الغسالين ينظفون الثياب فى النهر ، ثم يضربون بها الحجارة ، على الصورة التى طالما رأيناها أثناء الطفولة فى الساحل السورى وجباله . حيث كان النسوة يخرجن بالثياب الى ضفاف الانهار او الينابيع أو السواقى ، فيجمعنها بعد نقعها على صفائح الحجارة ، ثم يشرعن فى ضربها فى قوة بالمخباط .. وقد أراح الله نساء اليوم وثياب الناس من ذلك الضرب الموجع ، الذى يذهب بجدة الثوب وقدرته على (الصمود والتصدى) ..

على أن شيئا جديدا لم اسمع بمثله قط ، وهو ما حدثنى به الأخ الشيخ مطاوع ، من أن هؤلاء الغسالين يعرضون الثياب الملطخة بالدهون

ونحوها الى عملية اخرى ، هى نقعها فى محلول من خثى البقر لا تلبث أن تزيل ما عجز عنه الماء والمنظفات المختلفة ·· ويسأل الاخوة عن هـــذه العملية من حيث النجاسة والطهارة ، والذى أراه ان لا نجاسة فيها ، لأن فضلات البقر لا تدخل فى النجاسات ، ثم لأن آثار هذا المحلول سيزول بعد ذلك بالماء الطهور ··

يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

وكان شارع ظهير أباد نصف مغلق ، والناس يتقاطرون منصرفين ، فسألت الأخ أبا سحبان عن السبب فقال : انهم خائفون من امتداد حادثة أول أمس بين أهل السنة والشيعة الى هذه الامكنة · ولعلى نسيت الاشارة اليها فيما تقدم ، وهأنذا أجملها فيما يلى

من العـــادات المألوفة لدى طائفة الشيعة بلكناو أن يتخـــذوا من مناسباتهم الدينية فرصا للخروج فى مسيرات شعبية ، يظهرون فيها أحزانهم على شهداء آل البيت المطهر ، وأثناء ذلك يرفعون عقائرهم بذم الصـحابة الذين رضى الله عنهم فى محكم كتابه المجيد بمثل قوله سبحانه : (لقــد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ـ الفتح ١٨) وقوله جل اســـمه فى آخر السورة نفسها : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفــار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ··)

والغريب فى أمر هؤلاء أنهم يطلقون مذماتهم على أولئك الأطهــار وهم يتلون مدح الله اياهم فى هذه الآيات البينات من كتابه العزيز ، الذى يجمع المسلمين كلهم تحت رايته ! ·· وتزداد هذه الغرابة قوة اذا تذكرنا أن القوم لا يخلون من ذوى مواهب لا تعجز عن ادراك معانى هذا الثناء الآلهى لو أخلصوا النية فى طلب الحق ··

ان الله تبارك اسمه يعلن فى هذه الآية رضاه عن صحابة نبيه الذين بايعوه يوم الحديبية وهم ألف وأربعمئة ، ويشهد بصحة اليقين التى تنطوى عليه قلوبهم ، والذى به استحقوا السكينة والاثابة والفتح ، ثم يســـبغ عليهم اكرم النعوت اذ ضمهم الى معية نبيه ، ووصفهم بافضل ما يمـــيز الصفوة من عباده ، شدة على الكافرين ، ورحمة بالمؤمنين ، واخلاصا فى الجهاد والعبادة لرب العالمين ··

ويستحيل على عاقل نزيه بعد هذا أن يتصور امكان تسرب الزيغ الى رجال من هذا الطراز ، بعد أن أيد الله خيريتهم بشهادته من فوق سبع

سموات ، الا اذا كان من الذين يجرؤون على رد شهادة ربهم لمحض الهوى الذى هو من عمل الشيطان ٠٠

الطريق الى التفاهم :

وبهذه المناسبة اذكر ان ممثلا لكبير كبراء الشيعة فى البلاد العربية قد علم بوجودى فى بومباى اثناء هذه الرحلة ، فابدى رغبته فى الاجتماع بى فلم أر مانعا ، ولما ضمنا المقام ، وشرع فى الكلام عن الاســـلام ، والحاجة الماسة الى تعاون المسلمين وتناصرهم ، أمام النوازل التى تهاجمهم من كل حدب وصوب ، لم اتمالك أن افضى اليه بذات نفسى ٠ وكان مما قلته له : من المحال أن يتم تعاون سليم بين الشيعة وأهل السنة والجماعة اذا لم يسبقه اطمئنان كل من الفريقين الى الآخــر ولا سبيل الى هــذا ما دام أحد الفريقين يتحدى مشاعر الآخرين باهانة مقدساتهم ٠٠ وذكرت الشيخ الفاضل بحماقات شيعته فى لكناو ، التى تعتبر من أخطر وسائل الهدم فى صفوف المسلمين ، ولفت نظره الى موقفهم الجامد من المجازر التى ينزلها الهندوس بأهل السنة فى مختلف المناسبات ، دون أن تتحرك ألسنتهم بكلمة احتجاج ، وايديهم باية معونة للمنكوبين ٠٠ والسبيل القويم الى تبديد هذه الغيوم ، بين فريقى المسلمين فى الهند وغيرها ، هــو فى كف السفهاء السنتهم عن ذلك البذاء ، واحترام هؤلاء الباغين مشاعــر اخوانهم السنيين ، الذين لا يستطيعون مجاراتهم فى ميدان السباب ، لان حبهم الصادق لآل البيت المطهر يلجم السنتهم الا عن الثناء عليهم ، والدعاء الخالص لمحسنهم ، والاستغفار القلبى لمسيئهم ، رضى الله عنهم أجمعين٠ وأنهيت ملاحظاتى تلك بتذكيره أيضا المآسى الكثيرة التى طالمـــا رافقت استفزازات السفهاء ، حيث سقط العديد من الضحايا ، على أعين السلطة التى لم تكن بعيدة عن اثارتها والتشجيع عليها فى اكثر من مناسبة ، وان بدت هذه المرة أقرب الى الحياد بازاء الفتنة الاخيرة فى لكناو ، اذ كــان لها موقف مشكور فى الحيلولة دون امتداد النار ، بمنع مواكب التحــدى من تجاوز أحيائها ٠٠

واكدت على سيادته أن من حق هذه الوقائع عليه أن يجعلهـــا فى ذاكرته اثناء اتصاله بمقدمى شيعته فى مختلف الارجاء التى سيزورها من الهند ، وفى رأسها لكناو ٠٠

وكان تجاوب الشيخ مرضيا اذ اكد لي أن فى رأس مهماته العمــل لتحقيق هذا التفاهم بين الجماعتين ، وأبدى لى عميق رغبته فى التلاقى مع الأخ الشيخ أبى الحسن للهدف نفسه ، فوعدته بعرض الأمـــر على فضيلته ، وتم العرض وتقبل الشيخ الزيارة ، فأبلغته ذلك هاتفيا ، وكنت على أهبة السفر ، فلم اتمكن من حضــور الاجتمـــاع ، ولكن توقعى أن

اجتماعا كهذا قد يعود بالخير على قضية المسلمين ان شاء الله ، ولا سيما بعد أن لمسنا أثر التجربة السابقة يوم اجتمع مسلمو الهند على اختلاف فرقهم فى مؤتمر لبحث موضوع الأحوال الشخصية ، التى أرادت السلطة العلمانية ان تمد يدها اليها بالتغيير المخرب لحياة المسلمين ، فكان من ثمرات ذلك المؤتمر وقف الهجمة المدبرة على أحكام الشريعة المطهرة ، بما واجه مخططيها من وحدة الكلمة لدى فرق المسلمين كافة ٠٠

وهنا يثب على لسانى هذا التساؤل الجريح : أليس لليل الفراق والشقاق بين السنة والشيعة فى الهند من آخر ٠٠

ألم يأن للمسلمين هناك أن يعلموا أن الوثنية المتربصة بهم هى وحدها الرابحة فى هذه المعارك التى لا تكاد تنتهى ؟ ٠٠

ليت شعرى : ألا من سبيل الى حوار يسير بهؤلاء المسلمين الى هدنة صالحة ترد خاطئهم الى الحق ، وتفتح الاعين المغلقة على الواقع ؟! ٠٠

تجربة نجحت فلنعدها :

لقد كنا فى الحرمين نعانى الأمرين من حجاج ايران بما يقومون به من أعمال منافية لوحدة المسلمين ٠٠ فقلما نرى واحدا منهم ينتظم فى صفوف الجماعة لصلاة ، بل على الضد من ذلك لا يكادون ينقطعون عن المرور بين صفوف المصلين طوال وقت الصلاة ٠٠ وطالما تأذى المسلمون من تصرفاتهم فى مسجد قباء ، اذ كانوا يحتشدون للزيارة والصلاة قائمة ، فيطلقون أصواتهم بصورة مزعجة ، ويعلو أزيز بوقهم ، الذى يتولى توجيههم ، على نحو يكاد ينسى المصلين ما هم فيه بين يدى الله ٠٠

ولكن ذلك كله قد انتهى ـ ولله الحمد ـ بعد أن أصدر الامام الخمينى أمره الى هذا الحجيج بالصلاة وراء أئمة السنة وبالتخلى عن القرص الذى يضعون عليه جباههم فى سجودهم ، وبالتزام الهدوء اللائق فى المساجد ، وتجنب كل ما يؤدى الى التشويش ٠ وبذلك أرحنا من تلك المشاهد المؤسفة ، اذ وجدنا القوم ينتظمون معنا فى الصفوف بمنتهى الهدوء والخشوع ، وقد غابت الاقراص المفرقة ، بل المؤرثة للاحقاد ٠٠

فلم لا نجرب مثل هذه المحاولة مع شيوخ القوم ٠٠ حتى يأتى اليوم الذى تأخر طويلا ٠٠ اليوم الذى فيه نردد ، وفى شعور حى جديد ، قول ربنا تبارك وتعالى : (وكفى الله المؤمنين القتال ٠٠) ٠٠ فلقد والله طال ليل الشقاق بين شيعة الهند وسنتها ، وآن له أن يذهب الى غير رجعة ، رحمة بأجيال المسلمين ، وقطعا لدابر الفتن التى يؤرثها السفهاء والمضللون ولا ينتفع بها الا الظالمون الكافرون ٠٠

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠٠

مكانة العربية في دار العلوم :

كان موعد المحاضرة الاولى الساعة ½ ١١ من هذا اليوم – الثلاثاء ٩–٢ وقـــد حضرها طلبة الصفوف العليـا من قسم الدعوة والمعلمين فى قاعة المحاضرات من (دار العلوم) وهى احدى الاربع التى خصصت للأدب فى جدول العمل · واستغرقت أكثر من ستين دقيقة ، واستمعت الى صورتها التسجيلية ، فحمدت الله على ما قدره لها من التوفيق ··

لقد سرنى ما لمسته فى اولئك الشباب من انتباه دقيق ، وفطنـــة تستدعى الاعجاب ، وضاعف سرورى تلك الاسئلة التى تلقيتها منهم عقيب المحاضرة ، وكلها مما يتصل بصميم الموضوع ، اما استيضاحا لغامض ، أو توسعة لموجز ، أو استزادة لبعض التفصيلات ··

ومن خلال هذه الأمثلة تبين لى مدى العناية التى تبذلها دار العلوم لخدمة لغـــة القرآن ، على يـد الاخوة العـاملين من مدرسيها وأخص بالذكر منهم المشايخ محمد الرابع وأبا العرفان وسعيد الأعظمى ومحمـد واضح وشفيق الرحمن وشمس الحق ·· واخـــوانهم من المسئولين عن الدراسات العربية ، والانشطة الادبية ، التى تقوم فيما تراءى لى على أحسن تنظيم · وحسبك أن تطالع بعض ما يكتبه هؤلاء الاساتيذ من بحوث فى مجلة (البعث الاسلامى) الشهرية ، و (الرائد) نصـف الشهرية ، وما تمتاز به هذه البحوث من عمق فى الفكر ، وطرافة فى المادة ، وبلاغةفى الاسلوب ، حتى تتصور الاثر البعيد الذى يتركه هـــؤلاء المجاهدون فى ألسنة طلابهم ، وفى تقويم أفكارهم ، وفى التوجيـــــه المحكم لمواهبهم ، وما أسعد طلاب العالم الاسلامى حين يتوافر لهم مثل هؤلاء المربين ، فـلا يسمعون منهم عبارة سوقية ، ولا كلمة ملحونة ، ولا يلمحون فى سلوكهم الا ما ينبغى أن يراه طالب العلم فى معلمه الصالح من مؤهلات الاســوة الحســـــنة ·

وأنا حين أشير الى رعـاة العربية فى دار العلوم لا أنسى جهــاد زملائهم القائمين على خدمة الجوانب الاخرى من مناهج الدراسة فى هذه المؤسسة العريقة · فلقد لمست آثار فضلهم فى تكوين شخصية الطلاب ، الذين أتيح لى الاحتكاك بهم فى الندوات العلمية ، وفى الاجتماعات الخاصة وفى الزيارات التى كانوا يخصوننى بها كل ليلة ·· والحق أن لكل فئـة هنا من المدرسين البالغين ، قرابة الخمسين ، نشاطها الجاد فى خدمـــة هذه الالاف من شباب الاسلام ، الوافدين من مختلف اقطار العالم الاسلامى والذين عهد الى هذه المؤسسة أمر اعدادهم لتمثيل الاسلام وتمثيـــله



المنظر العام للعمارة الشـــامخة ذات طوابق ثلاثة وهى مسكن الطلبة
ويحتوى على مســـتودعات المواد الغذائية اللازمة والمطبخ وقاعة الطعام



منظر آخر لعمارة حجرات الدراسة من جانب

وحراسته فى كل مكان يصيرون اليه ٠٠ فالجميع هنا طلابا ومدرسين وعمالا كقرية النمل لكل جزء من سكانها واجبه النافذ فى خدمة الكل ٠٠

العمل بعشرة آلاف :

وتحضرنى هنا بعض الطرائف التى وقعت عليها خلال أحاديث الاخوة الذين كنت أستمتع بلقائهم فى حجرتى أثناء الامسيات الخاصة ، وقد ردنى الى تذكرها مراجعتى للمذكرات اليومية التى ألفت تدوينها يوما فيوما وحينا فحينا ٠٠

فمن هذه الطرائف ما حدثنى به الطالب النجيب ظهير ، الذى لا أنسى اهتمامه بى ، والذى أرجو أن يكون بين المقبولين فى الجامعة الاسلامية العام القادم ان شاء الله ٠٠ يقول ظهير : ان له أخا مهندسا فى الكهرباء ، ويتولى تدريس هذه المادة بالمعهد الحكومى فى بومباى ، وهو يتطلع للسفر الى المملكة للعمل هناك ، ولكن السماسرة يطالبونه بعشرة آلاف روبية مقابل تامين تعاقده فى احدى المؤسسات أو الشركات ٠ وحتى الان لم يتحقق مأموله لانه عاجز عن تقديم هذا المبلغ ٠٠

نموذج ينتظر التصحيح :

ثم طرفة اخرى أرانى حريصا على تسجيلها ، وخلاصتها أن الأخ أبا سحبيان ، وهو المتخرج فى كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الاسلامية ، والمنتدب للتدريس فى دار العلوم على نفقة دار الافتاء بالرياض ، والرفيق الذى لا يكاد يفارقنى جزاه الله خيرا ، قد فاتحنى برغبته فى استكمال شطر دينه ، وقد وقع اختياره على فتاة تحمل الليسانس فى مادة الانجليزية ـ ومدة هذه الشهادة فى الهند سنتان ـ ومما دعاه الى هذا الاختيار كون والدها من زملائه فى الندوة ، ومتخرجا فى مكة المكرمة ، ثم فى جامعة الازهر ٠٠ ووفق التوجيه النبوى تحدث مع والد الفتاة يستطلع رأيه فى الامر ليقف على جوابه سلبا أو ايجابا ٠٠ وذات يوم دعاه الرجل لزيارته فى منزله ، وهناك رآه أهله من وراء الحجب ٠٠ فرضوا عنه : وجاء والد الفتاة ينبئه بموافقتهم ، ويسأله عن مطالبه ٠٠

كل هذا من الامور المألوفة فى معظم البلاد الاسلامية ، ولكن القارىء لا بد أن يتساءل عن مراد الرجل بهذه (المطالب) وتفسير ذلك أن الخاطب المثقف هنا لا بد أن تقدم اليه الهدية المناسبة لحالة أهل الخطيبة ، سيارة او منزلا او مقدارا معينا من المال ، وللخاطب أن يحدد بنفسه نوع الهدية٠

والويل للفتاة التى لا يكرم ابوهـا خطيبها بتحقيق مطالبه ، فهى موضـع الازدراء من الجميع ٠٠ ولعلهم قد قبسوا هذه العادة الدخيلة من جيرانهم الهندوس ، أو من تقاليد المستعمرين الانجليز ٠٠

وهنا تقفز الى خاطرى ذكرى طرفة مماثلة حدثنى بها الأخ الهندى الدكتور ف عبد الرحيم ، اثناء وجودنا فى بهو المسافرين من مطار جدة وكنا فى طريقنا الى الفلبين اذ جاءه أحد موأطنيه من المستخدمين فى جدة ليساعدنا فى انجاز اجراءات السفر ٠٠ فكان من حديثه أن هـذا الفتى الهندى قد خرق تقاليد قومه فى الزواج ، تلك التقاليد التى تثقل كاهـل الزوج بمـا تحمله من اعباء لا يطيق النهوض بها الا أن يدمى الى الدين المرهق ٠٠ ترضية لاهل الاسرتين ، ومنافسة للآخرين من عبيد الشهوات ٠ فأبى أن يعدو حدود طاقته ، ورفض أن يكلف ذوى الفتاة مالا يطيقـون مكتفيا من ذلك كله بأبسط المظاهر ، وكان عمله هذا مشجعا لأمثاله على البدء بتصحيح الواقع الفاسـد ٠٠

وقريبا من هذا صنع أبو سحبان ، اذ كان جوابه لوالد الفتاة فى شأن (المطالب) أنه ملتزم بأدب الاسلام فى كل شىء ، وقد الزمه الاسلام أن يكون هو الذى يكرم خطيبته بالهدية المناسبة وفق طاقته ، وأن يهيىء المنزل الذى سيتخذه سكنا فى حدود قدرته ، ولأبيها بعد ذلك أن يخص ابنتـه بما شاء من تكرمتـه ، عن طيب خاطر ودون قيد أو شرط ، والمعهود فى أوساط أهل العلم من المسلمين الا يزيد الصداق عما يسمونه بالمهـــر (الفاطمى) الذى لا يتجاوز عشرة الآلاف من الروبيات ، أى ما يقـارب لاربعة الآلاف بالأريلة السعودية ٠٠

وسألت أبا سحبان عما اذا كان قد شاهد الفتاة التى تمت خطبتـه عليها ، فنفى ذلك ، لان تقاليد الناس هنا ترفض أن يقع بصر احدهما على الآخر دون حجاب ، الا بعد اجراء العقد الشرعى ، على الرغم من معرفة ذوى العلم بالاثر الذى يقول : (انظر اليها فانه احرى أن يؤدم بينكما) ! ٠٠

اصرار على المحافظـة :

ولقد أثرت موضوع الرؤية مع بعض اخوانى من شيوخ النـدوة ، وذكرتهم بتطبيقات الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ للتوجيه النبوى ، ومافى اغفاله من عواقب ربما لا تكون فى مصـلحة الزوجين ، اللذين لم يعرف احدهما صاحبه الا ليلة الزفاف ! ٠٠ فلم أجد منهم أى تجاوب فى هـذا الموضوع ، بل احسست انهم مصرون على الوضع المألوف دون اى تعديل٠

وقد سبق أن عالجت هذا الموضوع بتوسع فى كتابى (تأمـــلات فى المرأة والمجتمع) فلا حاجة بى لبسطه فى هذه الاحاديث القصيرة ٠٠ والشىء الذى تقرر فى ذهنى تفسيرا لتشدد اخواننا مسلمى الهند فى هذا الجانب هو انه جزء لا يتجزأ من روح المحافظة التى يمتازون بها فى شأن المرأة ، على معظم الشعوب الاسلامية ، فالحجاب هنا هو الاســاس فى نظامهم الاجتماعى ، والسفور هو الشذوذ المرفوض ، الذى لا يقدم عليه الا المفارق لجماعة المسلمين ٠٠ وما اذكر انى شاهدت قط فى كل المدن التى زرتها من الهند مسلمة واحدة دون نقاب ، او فى ثوب مصنوع على الطريقة الاجنبية ٠٠ بخلاف ما شهدته فى الجزر الاندونيسية ، حيــث يعتبر السفور المتفرنج هو الاصل فى معظم أوساط المسلمين ٠٠ والغريب أن بعض من لقيناهم فى جاكرتا من العرب الزائرين مأخوذ بهذا التقليد ، حتى ليعتبر المسلمة المتحجبة ضربا من (الفزاعات) المخيفة ــ على حــد تعبيرهم ــ ٠٠

مقــارنة بين بيئتين :

ومما يرسخ فى نفوس مسلمى الهند روح المحافظة شعورهم بالتميز الذاتى عن اصحاب النحل الاخرى ، فهم لا يزالون يتوارثون عن أسلافهم روح العزة التى هى احدى خصائص النفس المسلمة ، على الرغم من كل التقلبات التى عانوها فى ظلال العدوان الوثنى ، والاضطهاد الانجليزى ، لا بل ان هذين العاملين من أهم الاسباب فى استمرار خاصية المحافظة فى المجتمع الهندى المسلم ٠٠ ولا جرم أن لهــذه المحافظة المتميزة فضــلها الكبير فى بقاء الاسلام ، وصمود المسلمين بوجه التيارات العاصفة ، التى لا تزال تخض وجودهم فى هذه البلاد ، سواء على المستوى الشعبى الحاقد أو الرسمى الذى لا ينفك عن محاولاته التسلل بسمومه الى مقومات الحياة الاسلامية ، فى التعليم وفى القضاء وما اليهما من الوسائل الحكومية ٠

وأخيرا ان فرق ما بين المجتمع الاسلامى فى الهند واندونيســية فى نطاق القضية النسوية ، عائد الى ظروف كل من البيئتين ، فشعور المسلم الاندونيسى بالتفوق العددى لجنسه فى بلاده يقــوده الى الاســترخاء والاطمئنان ، فلا يرى أى ضرر على مقوماته الدينية اذا هو استسلم لبعض المؤثرات الدخيلة فى حياته اليومية والمنزلية ، على حين يرى المسلم الهندى وجوده الملى مهددا بالدمار بين أمواج الوثنية المتلاطمة من حوله ، ولا عاصم له من ذلك ــ بعد الله ــ الا التشبث بكل خواصهم المتميزة ، التى هى له بمثابة سفينة النجاة للركب المعرض للغرق ٠٠

ولعمر الحق لو وعى المسلمون واقعهم ، وما يحيط بهم ، وما يخطط لهم ، لاستيقنوا ان الاستمساك بمقومات الذات الاسلامية هو الوسيلة الوحيدة للبقاء ، ثم لاستعادة الميراث الذى فقدوه من حقهم فى القيادة العالمية ٠٠ وبذلك يلتقون مع اخوتهم مسلمى الهند فى ايثارهم سبيل المحافظة ، على الانسياق فى طريق الانحلال ٠٠

على الضـــفة الثانيـــة :

١٠ـ٢ـ١٤٠١

كان اليوم موعد المحاضرة الثانية في تاريخ الادب ٠ وقد فرغت منها في تمام الساعة ½ ١٢ وبعد الاجابة على استفسارات الطلاب مضـينا الى المسجد لأداء صلاة الظهر وهناك التقينا سماحة الأخ الداعيـــة الجليل الشيخ أبى الحسن ، الذى وصل قبيل قليل من قريته ، ومعه تناولنا طعـام الغـــداء ٠٠

وعقيب صلاة العصر استأنفنا جولاتنا فى المدينة مع أبى ســحبان وعبرنا لاول مرة نهر غومتى فى أحد الزوارق ذات المجاديف ٠٠ وشد ما أسفت لتاخر هذا العبور الى الضفة الثانية حيث ينهض العديد من مظاهر العمران ، التى تروع السائح بجدتها وتناسقها اللتين تفتقدهما الامكنـة الاخرى ، التى مررنا بها من لكناو حتى الان ٠٠

حدائق بارعة بين فائقة الاناقة والسعة ، ومقاعد من الرخام الابيض لمن شاء الاستراحة ، وعلى جنب منها برج مشيد بالرخام نفسه يذهب فى الفضاء قرابة الخمسين مترا ، يحيط به على الزوايا الاربع من قاعـدته تماثيل رؤوس الفيلة المنحوتة فى الرخام ايضا ٠٠٠٠ وقد أقيم فى جانب آخر من الحديقة تمثال كامل لفيل كبير أضعاف حجم الفيل الطبيعى ، على غاية من الدقة والاتقان ٠٠ ثم الشوارع الانيقة تنطلق من هنـا وهنـاك ذاهبة فى الابعاد ، بعضها يأخذ مسلكه بين القصور الملكية ، التى كانت ذات حقبة من عمر الزمان منازل حكام لكنا والمسلمين الى ما قبل الاجتياح الانكليزى ٠٠ وسيكون لها حديثها فى ما يلى من الحلقات ٠٠٠٠ وبعضها يمضى باتجاه الجامعة الكبيرة القائمة مرافقها على كلا الجانبين منه ، مارا بالحدائق الرحبة المونقة ، وقد أعد بعضها لاستقبال الاحفال الرسمية التى تضم عشرات الالوف ، ورفع فى احداها مجسـم ضـخم للكرة الارضـية معروضا بين محوررين يخيل مرآهما للناظر أنهـا على وشـك أن تتحرك عليهما ٠٠٠٠

واذا أطلقت بصرك نحو النهر المجاور واجهك المقصف المتنقل يقـدم للمتنزهين أصناف الشراب والطعام ، وعن كثب منه معبد هنـدوسى ذو دورين ٠٠ وهو من المشاهد المالوفة فى هذه البلاد ، حيث يتسابق السكان

المحافظوالن للسكن قرب الانهار او فى اوسطها ، كما ترى المعابد منتشرة على ضفاف الانهر وفى أوساطها احيانا ، وذلك لمكانة الانهـار فى عقائد القوم ، التى تقدس كل الاشياء التى يجدون فيها المنافع كالماء والبقــر والشجر والنار والشمس والقمر ٠٠ وهلم جــرا ٠٠

مشاهد غير سارة :

وامتطينا ريتشاك الى داخل البلد ، وصــــليت بالناس فى المســجد الشعبى الذى سبق الحديث عنه ، وعقيب السلام سـمعت بعض اللغو من الصفوف الخلفية ، ثم علمت من ابى ســحبان ان القوم كانوا يعجـلون السـجود قبل الامام ، حتى أن بعضـهم كررالسـجدة الواحدة ثلاثا لانهم معتادون العجلة ، فكانت تسبق تفكيرهم فى متـابعة الامام ورأيت بعض الشباب يؤدى السنة قاعدا ، كما نلاحظ البكستانيين بالمدينة ، فكلفت الاخ أبا سحبان أن يذكرهم بما يخسرون من الاجر فى تعجلهم ذلك لان رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبرنا أن القيام فى الصلاة جميعا هو الاصل، ثم تنقص درجتهم فى غير القيم ، الا لذاى عذر ، وليسوا كذلك ولا حافز لهم لايثار هذه الصورة الا نشدان الراحة فقط ٠٠ وطبيعى أنهم يفعلون ذلك فى النافلة والرواتب من السنن دون المكتوبات ٠٠

ومضينا نفتش عن الحمر ٠٠ الذى يسمونه أملى ــ فحاجتنا اليه بعد ن افتقدنا ما يغنى عنه من القثاء والخس ، واضطررنا من اجل ذلك الى اجتياز (لاتوس رود) وهو من الاسواق القديمة ٠٠ ويؤسفنى أن أقول بأنها أقذر مكان مررت به فى اقطار جنوب آسية الى الان ٠ وحتى سوق اللحم والخضار فى مدينة بنجرماسن من جزيرة كلمنتان بأندونيسية ، والروائح تبلغ حد الاختناق ، ومياه الفضلات تملأ الممار ٠٠ والظلمة توشك أن تعم ٠٠ ومع ذلك ، بل الاغرب من ذلك كله ، أن ناس هذه الســـوق لا يختنقون ولا يموتون ٠٠ ولعل خياشيمهم قد تعطلت فلا يشمون ! ٠٠

معــارض الشــقاء :

على اننى ــ وقد عدت أول امس من رحلتى الثالثة الى الهند ــ أرى من الانصاف للكانو العريقة أن اسـجل نسـوقها تلك (نظـافتها) المقبولة بازاء ما شهدته مؤخرا فى بومباى ، حين اضطررنا للدخول الى (كاماتى بور) ذى الشوارع الاربعة ، فاذا نحن كالخائض فى دردور ، كلما أوغل فى التقدم انحدر الى اسفل ، ولا سبيل له الى معــاد ٠ ومهما انس لا انس معارض الشقاء البشرى الذى واجهناه هناك فى كل شىء : الناس والاشياء والهواء على السواء ٠٠

كانت المياه ذات اللون القاتم تنثال على حافات الشوارع وهى تحمل أصناف الاوساخ وتشحن الفضاء بالروائح التى لا يجدى فى دفعها أى منديل تضعه على أنفك ··· ومع ذلك فالعشر من المخلوقات الادمية ملقاة هناوهناك وهنا لك فى استرخاء لا تحس بالحاجة الى مفارقته ، حتى للسيارات التى تشق سبيلها خلالها بصعوبة فائقة · وما أكثر أن ترى ثمة رجال وأحداثا فى صحوة النهار متجردين من ثيابهم ، وما أدرى اذا استبقوا لعورتهم سترا ، قد أخذوا بتنظيف أجسامهم بالصابون أو بدونه على مشهد عشرات المارة ·· ولعل ادعى هذه المشاهد للحزن منظر بعض العجائز من النساء يجهدن فى تسريب تلك المياه الكريهة المنتنة ، فلا تنفك الواحدة منهن تغالب ما بين يديها من تلك الاوساخ فى مشقة مبكية ··

وفجأة وجدتنى أتذكر هنالك ما سبق أن قرأته من أنباء رهيبة عن غزوات الهيضة ـ الكوليرا ـ لشبه القارة الهندية بين الحين والحين ، حيث تذهب بالمئات من ألوف الضحايا فى كل موسم ، وتشكل بذلك المصنع الاكبر لهذا الوباء الهائل يضرب أنحاء العالم عن طريق المسافرين ·· فلا يسعنى الا أن أربط بينه وبين هذا الواقع الذى شاهدته من قبل ، وأشاهده الان من هذه المناطق الوبيئة ما بين لكناو وبومباى ··

محاضرة توقظ الذكرى :

ويشاء الله أن أستمع ليل أمس فى نادى المدينة الادبى الى طبيب ذى اختصاص عال يحاضر عن (عوامل المخاطر فى أمراض القلب) فيستعرض طائفة من الأسباب المساعدة على شيوعها ، والمؤدية بالتالى الى تدمير الطاقات البشرية فى الكثير من الشعوب المتخلفة · وفى مقدمة تلك الاسباب سوء التغذية وفساد البيئة الصحية ، فتقفز الى ذهنى صور هاتيك المناطق التى اهمل بها الانسان حتى انحدر الى ما دون مستوى القردة والبقر ·· وهيهات لهؤلاء المساكين أن يحلموا ببعض حظهما من النعيم الذى يتوافر لهما حيثما وجدا من ربوع الهند : وأنى لهؤلاء المحرومين المنسيين أن يتطلعوا الى مثل الاوضاع السعيدة التى شاهدنا عليها قردة لكناو وهى تقوم بتدريباتها الصباحية فى منطقة المعابد المواجهة لفندق (كلار أود) فلا تفتأ تتواثب على أعالى الاشجار فى مرح لا يشوبه أى شعور بالحاجة والحرمان ··

ولا عجب أن تتكاثر فى هذه الاوساط البائسة أسراب المتسولين يحيطون بالغريب احاطة السوار بالمعصم ، فلا يكادون يدعون له متنفسا ، وبخاصة اذا كان الغريب من ذوى الجلابيب العربية التى تصور لاخليتهم أن وراء

كل جلباب أبيض بحيرة من الذهب الاسود · حتى ليتشبثون بنوافذ السيارة التى تحمله ، فلا يفلتونها الى أن تغلبهم سرعتهـا على أرجلهم · واذا كان هذا من الأمور المألوفة جدا فى كل شارع من بومباى فهو هنـا فى منطقـة (كاماتى بوره) هذه أشد بروزا وأتعب للمارة ولا سيما الغرباء منهـم مثلنا !·

ونعود هنا لنتسـاءل من جديد : من المسـئول عن هذه (المدمرات) المهينة للانسان سواء في بومباى أو لكناو ؟! أهى الهيئات الصحية الحكومية أم هو الشعب الذى ألفها فلا يستغربها فضلا عن أن يستنكرها ! ···

بيد أن لبومباى ، وهى احدى حواضر الدنيا سعة وعظمة وكثافة سكان ، واحتواء للتناقضات الكبرى ، حديثا آخر سنعرض له بالتفصيل فى حينه ان شاء الله ·

فى حديقة الحيوان : ـ

الخميس ١٤٠١/٢/١١ هـ ٠

موعد محاضرتى مساء اليوم بين العشاءين ، فلدى ٠٠ اذن فراغ استغله بالتجول فى بعض المعالم ، التى لم ارها بعد وعرضت الامر على الاخوة فوضعوا السيارة تحت تصرفى ، ومضينا اولا الى مكتب خطوط لكناو فلم نجد المسئول ، فواصلنا المسير الى حديقة الحيوان ، ومن حسن حظنا أن يكون مديرها مسلما من ابناء العلماء ، فما عرف هويتنا حتى احاطنا بالرعاية الكريمة ، ومضى معنا مرافقا ومفسرا حتى مررنا على سائر اقسام الحديقة ٠٠

ومع أن المعروضات محدودات الانواع الا انها جميلة ومفيدة ، وأكثرها من الطيور واصناف الغزلان ٠ وقد شاهدنا من ضروب الحيوان الاسود والنمور والدببة السود ، والخرتيت الهائل الحجم ، وفرس البحر ، والأنواع العديدة من افاعى الهند صغيرها وكبيرها ،وبخاصة الكوبرا ذات الرأس الرقيق المفرطح ، وهى التى يضرب المثل بخطرها على الرغم من ضآلة هيكلها ، وما اكثر القردة واصنافها واشكالها بين مكشوف السوأة ومستورها ٠ ولو كان معنا من يسمى لنا هذه المرئيات بالعربية لتمت المتعة ٠

مسجد الزجاج :

ومن هناك عدنا باتجاه الخطوط ، وفى الطريق عرجت بنا السيارة الى زقاق فى شارع (حسين كنج) لنشهد ذلك المسجد المسمى بمسجد الزجاج والحق انه على صغره تحفة من العمل الفنى الرفيع ، فجدرانه وسقفه ومنبره وأعمدته كلها مخطاة بفيفساء من المثلثات الزجاجية رصفت باتقان ودقة بالغة ٠ وحدثنا امام المسجد بأن منشئه قد استورد له هذه البلورات من ايران ، وجاء معها بثلاثة من خبراء هذا الفن هم الذين تولوا انزالها منازلها ٠٠

ولقد شرع بعض هذه الفصوص يتساقط ، وسياتيها يوم قد يكون قريبا لا يبقى منها شيئا ٠ وتلك هى سنة الله الذى انفرد وحده بالديمومة سبحانه ٠٠ على ان المؤسف ان المحسنين المنفقين على امثال هذه الزخارف لا يذكرون أن احداث مدرسة بتكاليفها يعلم فيها ابناء المسلمين دينهم ، ويعدون لاعلاء كلمة الله فى مختلف الميادين ، احب الى الله وانفع لعباده واوفر للاجر عنده من ملايين النقوش تزين بها حيطان المساجد وأعمدتها وقبابها ٠٠

وقد رأينا ضريح بانى المسجد بجوار مدخله ، ولا بد انه أوصى بدفنه هناك طلبا للبركة ، كشأن الكثيرين من الفاعلين لذلك فى الشام ومصر وسواهما ، وهو عندهم من (القربات) التى لا نعهدها أيام السلف الصالح فضلا عن مخالفتها لصريح النهى النبوى ٠٠

مظاهرة ضد أنديرا :

واستأنفنا التحرك نحو مكتب الخطوط حيث وجدنا مسئوليه ، وقد الفينا لدى أحدهم واسمه (تى أن سيلى) منتهى اللطف والاهتمام ٠ واتصل بدلهى هاتفيا يسأل مكتب الخطوط البريطانية عن مصير الحقيبة الضائعة ، فلم يجد لديه خبرا ٠٠ وأخيرا اضطررنا لتكليف مدير مطبعة الندوة المسافر الى دلهى أمر البحث عنها هناك بالتعاون مع موظف السفارة السعودية ، وهو قريب الشيخ محمد الرابع والله المسئول أن يعقبنا خيرا ٠

لدى مغادرتنا مكتب الخطوط فوجئنا بالشارع المقابل مكتظا بحشود الناس ٠ وسرعان ما علمنا انها مسيرة احتجاج على موجة الغلاء ٠ وكانت دقيقة التنظيم اذ التزم جمهورها من الرجال والنساء صورة متناسقة من العدد والحركة والهتاف ، فهم ممتدون على مسافة طويلة رفى صف متشابه كالجدول المتدفق فى قناة الى مصبه ، وبين المجموعة والاخرى يقوم أفراد يشرفون على المسيرة ويطلقون الهتافات التى يرددها الجمهور ٠٠

ولدى الاستفسار عن مضمون هذه الهتافات علمنا أنها تصرخ بسقوط حكومة أنديرا غاندى ، وبالدعوة الى مكافحة الغلاء ٠ وكان الغلاء قد تفاقم سريعا فى بعض الضروريات ، كالارز الذى ارتفع ثمن الكيلو منه الى ثمان روبيات ، والسكر الذى بلغ العشر من الروبيات ، بل لقد أخبرنى بعض الاخوة فى كجرات عقيب ذلك أن كيلو السكر قد بيع بخمس عشرة روبية ٠٠ أى بما يعادل ستة أريلة ، مع أن الهند من البلاد المنتجة للسكر والارز ٠٠ وقد سمعنا من يعزو هذا الغلاء الى سبب سياسى هو تصدير الحكومة هذه المواد الغذائية الى روسية بأرخص الاثمان بل دون ثمن الا ما تستورده من مواد حربية تمدها بها مصانع الشيوعية ٠

لعبة شيوعية جديدة :

وبهذه المناسبة اذكر أن ثمة لعبة روسية ترمى الى اثارة فتنة جديدة بين الهند وباكستان ، بحجة أن هذه تستعد لحرب الهند ، فعلى الهند أن تسبق الى الضربة الأولى ٠٠ وقد جربنا مثل هذه اللعبة الشيطانية عام ١٩٦٧ عندما ملأ الاعلام الروسى فضاء الشرق الاوسط بأخبار استعداد اسرائيل لغزو سورية ، فكان ذلك هو الحافز الرئيسى لدخول دول المواجهة

معركة لم يستعدوا لها ، بل اقحموا فيها على عجل ، ليسقطوا فى الفخ الذى أطار من أيديهم المزيد من الارضين ، وفيها القدس الغالية التى نرفع اليوم عقائرنا بالاحتجاج المهين على ضعها نهائيا الى المكاسب اليهودية ٠

وطبيعى أن الروس انما يريدون بلعبة اليوم حصر باكستان المسلمة بين النارين ، لتدمير الوجود الاسلامى كليا فى أفغانستان – لا سمح الله – ومن ثم القضاء على كل أمل بنجاح التجربة الباكستانية فى تثبيت دعائم النظام الاسلامى المنشود ٠٠

ولقد أكد هذه الحقيقة رئيس وزراء الهند السابق (مرارجى ديسائى) حين أعلن لوكالات الانباء تعقيبا على مدعيات بريجنيف وعمليته أنديرا فى هذا الصدد ، فكان من هذا التعقيب الحر كشفه الستار عن محاولة موسكو معه نفسه ، اذ بذلت المستحيل لجره أيامئذ الى مواجهة باكستان على اعتبار أنها تستعد لغزو الهند ، فلا مندوحة من مبادرتها بالتأديب الرادع فكان جوابه أنه على أتم الثقة من حسن نوايا باكستان ، وكل ادعاء مخالف لذلك فهو أوهام ٠ ومعنى هذا أن بريجنيف يعاود اليوم المحاولة نفسها عن طريق حكومة أنديرا ولا هدف من وراء ذلك سوى اضعاف الدولتين الجارتين ، والتمكين للغزو الروسى من مخانق أفغانستان ٠٠

مادبة تعارف :

وكان فضيلة الشيخ أبى الحسن قد أبلغنا منذ الصباح أنه سيقيم لنا مأدبة تعارف يجمعنا خلالها بأساتذة دار العلوم جديعا ، فكان علينا أن نسرع بالاوبة الى الندوة ، وبصعوبة كبيرة تمكن سائقنا الحاج نصر من التسلل أواخر المتظاهرين ، حتى انتهى بنا الى الندوة فى الوقت الملائم وعقيب صلاة الظهر فى مسجدها انتقلنا الى قاعة سليمان الندوى حيث تناولنا طعام الغداء مع مجموع الاخوة الزملاء الذين يقاربون العشرين ٠

وتفضل الاخ الشيخ محمد الرابع بكلمة كريمة أجبنا عليها بما يناسب المقام فذكرنا فضل الندوة وعلاقاتها بقلوب العاملين فى نطاق التعليم الاسلامى بكل مكان ٠ واعتبرت وجودى زائرا لها فرصة سعيدة حققت لى الكثير مما كنت أتطلع اليه من لقاء هؤلاء الفضلاء ، والانتفاع بخبراتهم فى ميدان الدعوة والتربية ٠

وفى المساء القينا محاضرتنا الثالثة فى القاعة القائمة تحت مهجع الطلبة ، وقد تكرم فقدم لها فضيلة الشيخ حفظه الله بواحدة من نفحاته القلبية طوقتنى منها بما لا أستحقه ٠٠ وقد ساعد الجو العلمى على نجاح المحاضرة ولله الحمد ، اذ كانت تتمة للحلقة السابقة من سلسلة التعليم والتربية والدعوة ٠٠٠

فرص صالحة للدعـــوة :

الجمعة ١٢ـ٢ـ١٤٠١

كانت الساعة السابعة والنصف عندما قـدم الأخ ظهير احمد يبلغنى ان الشيخ على وشك سفر الى جنوب الهند فهو يريد ان يزورنى للوداع ٠ فقلت : أنا الذى أزوره ولا اكلفه صعود الدرج ٠

ومضيت الى مقر الشيخ فوجدته يتصدر المجلس وحوله جمهور من اهـل الفضل فى نصف حلقة ، وتحدثنا مليا ، وتمنيت له سفرا موفقـــا وذكرته بمالا يفوته من ضرورة التركيز فى توجيهاته على ابراز معـــانى الاســلام من خلال حياة المسلمين ، حتى يتبين المشاهد والمتعامل الفـرق الحسى بين الاسلام وغيره فى ضوء الحياة العملية ، فيكون ذلك اهم وانجح وسائل الدعوة اليه ، وبخاصة فى هذا البحران من الوثنية التى تحـدق بجماهير المسلمين ٠٠

وشد ما اسعدنى وطمأننى قول ابى الحسن حفظه الله أن الغالب على مسملى الهند تميزهم بسلوكهم ومعاملتهم على سائر المواطنين حتى انهم فى بعض مناطق الهند ليحتلون المكانة العليـــا بنظر السلطات الحاكمة بسبب تفوقهم فى الامانة والاستقامة والكفاية ٠

وطبيعى ان يستقبل فضيلته ملاحظاتى هذه بالرضى لانه يدرك أكثر منى ارتجاج الكيان الهندوسى الذى يسرع نحو الانهيار ، بسبب اتجاه القوم بحكم ديانتهم المادية الى عبادة المـــال والجنس حتى لا يكادون يســالون سواهما ، ولا يستنكفون عن نشدانهما من اى مكان وعلى اية حال ، وقد بات واضحا أن فى مناسباتهم الدينية أياما لا بد لهم من المغامرة فيها على طريقة نصارى الغرب ، بل يزيدون عليهم التوهم الذى يشبه اليقين بأن الذى لا يشارك فى هاتيك الايام لا بد ان يكون معرضا للاخفاق طوال عامه، ولا شك أن فى هذه الاوضاع القلقة مجالا رحبا لانتشار الاسلام اذا أحسن دعاته عرض حقائقه وعرفوا الطريق القويم الى الاستفادة من الظـــروف الراهنـــة ٠٠

ربما أرانى بحاجة الى تنبيه العاملين فى حقـل الدعـوة هنـا الى الفرص الواسعة التى يواجهونها بين ظهرانى هؤلاء الضائعين من عبـــدة الطبيعة الذين يملكون الفطرة الدينية ولا يعرفون الطريق الى تحقيقها خارج المواويث الطفوليـة ٠٠

ان الطبقة المتعلمة على اتم الاستعداد لقبول الحوار النير فى موضوع الاسلام ، وغير قليل منهم الذين اعلنوا اسلامهم فعرضوا انفسهم بذلك لأفدح المخاطر ، ولم ينجهم من نقمة متعصبيهم سوى الهجرة من مواطنهم الاصلية الى الارجاء البعيدة ، وعندنا من هؤلاء اخ تخرج فى الجامعة الاسلامية ويقوم اليوم بالتدريس فى (كلية الحديث الشريف) منها ، بعد أن نال درجة الدكوراة من جامعة الملك عبد العزيز فى مكة المكرمة ، فلقد تحول هذا الاخ من الهندوسية الى الاسلام فى قرية (بلريا كنج) القريبة من أعظم كره ، ولما أحس به متعصبة أهله اجمعوا قتله ، ولكن الله نجاه من مؤامرتهم بتيسير سفره قبل ساعة من موعد التنفيذ ..

غاندى والاسلام :

وقد بلغنى من مصادر موثوقة ان ثمة حوارا جادا قد ينتهى قريبا الى تحول مليون من الطبقة المنبوذة الى الاسلام . وقبل ثلث قرن ظهرت بادرة تاريخية من هؤلاء المنبوذين أوشكت أن تصير بهم الى المجموعة الاسلامية فى تحول جماعى ، الا أن المسلمين لم يحسنوا متابعة الحدث الى نهايته فافلتت الفرصة من أيديهم ، وكان لغاندى أثره الكبير فى تجميد تلك الحركة ايامئذ اذ فتح للمنبوذين أبواب المعابد التى كانت مغلقة فى وجوههم ، وتعهد لهم برد الكثير من الاعتبار الانسانى اليهم بعد الاستقلال اذا هم حافظوا على انتمائهم للنحلة الهندوسية ، وانما فعل ذلك خشية ان تزداد بهم قوة المسلمين ..

وقد دفع غاندى حياته ثمنا لهذه المحاولة ، حيث لقى مصرعه على يد بعض السيخ الذين هالهم اقدامه على تلويث المعابد بدخول (الانجاس) اليها ..

ومن حق القارىء أن يشفق اذا نقلت اليه ما حدثنى به الزميل الهندى الاخ الدكتور ف عبد الرحيم من أمر هؤلاء المنبوذين يوم كنا فى مدراس ونحن فى طريقنا الى الفلبين .. لقد سألته اثناءئذ عن مدى نشاط المسلمين فى دعوة القوم فكان جوابه : ان المسلمين هنا لا يرون من مصلحتهم اقبال المنبوذين على الاسلام ، لان ذلك سيصرفهم عن العمل فى مصلحتهم فتتعطل هذه الخدمات ولا يجدون من يقوم بها الا بكثير من الصعوبة والمايد من التكاليف ! ..

وياله من تعليل فاجع يسوغون به وقف المد الاسلامى الذى هو غاية وجود المسلم فى هذه الارض ، ورضى الله عن خامس الراشدين الذى رد

على عامله فى مصر ، يوم فسر له تكاثر الدخل الرسمي بأن مرده الى رفض الحكام الامويين اسلام النصارى ، استبقاء لموارد الجزية ، فكتب اليه قائلا: ويك ٠٠ أن الله لم يبعث محمدا صلى الله عليه وسلم جابيا ولكن بعثه هاديا ٠٠ »

الفــردية الوثنيــة :

والمتأمل فى شأن وثنيى الهند اجمالا لا يفوته النظر الى اثر دياناتهم في تمزيق وشائجهم الاجتماعية ، وحسبه من العلم بذلك أن يلاحظ الطابع الفردي الذى تقوم حياتهم عليه ، فهم فى عباداتهم فرديون ، لا يكـادون يعرفون التلاقى عليها الا فى مواسم محدودة هى اقرب الى اللهو منها الى الجد ٠٠ وحتى فى النحلة الواحدة تواجهك هذه الفردية بشكل لا تعرفه فى غير الهند ، ولعل اول الامثلة على ذلك الواقع الغريب هــو ان ترى المسافرين منهم اذا ادركهم الجوع ، واضطروا الى تناول الطعام عمد كل منهم الى زاده يزدرده فى عزلة عن الاخر ، وربما أدار كل منهم ظهـره لرفيقه أثنائذ ، اللهم الا ان يجمع الاكلين رباط الاسرة ٠٠ على حين تـرى المسلم ، غنيا كان او فقيرا فى مثل هذا الموقف لا يمس طعامه حتى يدعـو من حوله الى مشاركته ولو بكلمة (تفضــل) على الاقل ٠٠

مــذابح المســلمين :

ومما يتصل بهذه الاوضاع الشاذة لدى معظمهم حرمانهم أنفسـهم من طيبات الطعام، والغذاء بأصناف النبات مع تقديسهم الموروث للحيوانات التي لا تنفك تغير على مدخراتهم من الاغذية دون ان يسـمحوا لانفسهم بمنعها من ذلك الا فى اضيق الحدود ٠ وقد اخبرني بعض العـارفين ان القرود تهاجم مهاجع الطلبة فى الجامعات فتحرمهم ما هم فى أمس الحاجة اليه من الاطعمة ، فلا يكادون يحركون ساكنا لابعادها ، مع انهم من اشد المخلوقات ضراوة في العدوان على المسلمين ٠٠

ومعلوم ان هذا العدوان قد بلغ اشده بعد انفصال باكستان . اذ كان بمثابة التمزيق لجسم الهيم الاعظم الذى هو أرض الهند ، وقد كان مجـرد اقدام المسلم على ذبح بقرة كافيا لاحداث مذبحة تذهب بالمئات من المسلمين٠ أما بعد التقسيم فقد بات اعتداء الهندوسي على المسلمين ولو بغير سبب من المآثر القومية التي تعد لها المنظمات ويدرب للقيام بها الالاف من الشباب في كل مكان ٠٠ وقد أصبح هذا الهيجان القومى الهندوسي من أهم العقبات فى طريق المد الاسلامي ، لان هؤلاء المتعصبة من جماعة (جن سن (R.S.S.) بالمرصاد لكل من تظن به المسالمة للمسلمين فضلا عن التحول الى دينهم ٠

وليست مذبحة المسلمين فى مصلاهم يوم عيد الفطر الاخير ، بمدينة مراد اباد وبرشاشات رجال الشرطة انفسهم ، الا واحدة من عشرات المجازر التى نفذها ذلك التعصب الوحشى ، الذى ملأت لأخباره الصحف العالمية منذ قيـــام باكستان حتى الان ..

تطـــور هـــام :

على أن مما لا ينبغى تجاهله هو ذلك التطور الذى اطلت بوادره فى اوساط الطبقات المثقفة من اولئك الوثنيين ، وكان سببا فى تعديل الكثير من عاداتهم الصارمة ، فغير قليل منهم اولئك الذين يقدمون اليوم على التهام اللحوم فى مطاعم المسلمين ولو بطريقة سرية ، وقد بدأ بعض مفكريهم فى دراسة الاسلام ، ولم يحجم عدد منهم عن اعتناقه فى حذر ، وفى اعتقادى أن الفرص مفتوحة الابواب امام دعـــاة الاسلام هذه الايام ، فبقليل من الحكمة والدأب يستطيعون تحقيق الكثير من الخير فى أوساط اولئك المواطنين ولا سيما المنبوذين منهم والبوذيين .. ولا ريب أن ثمة قلوبا كبيرة تدرك هذه الحقيقة اتم الادراك ، وتملك من الاخلاص لدين الله ، والرحمة بالانسانية التائهة ، ما يؤهلها للقيام بالدور المنشود فى هذا الصدد ..

تجـــربة اســــلامية :

فى احدى القرى من ولاية مدراس اندلعت النار فى بعض احيـــاء الوثنيين فالتهمت عشرات المنازل وشردت اصحابها ، فكان للجماعـــــة الاسلامية هناك اكبر الاثر فى معالجة هذه المحنة ، ذلك أن لجنـــة منهـا قدمت الى مواطن النكبة فمسحت اوضاعها ، ثم لم تلبث أن نهضت بواجب المواساة ، فجمعت التبرعات الكافية ، وقامت باعادة الابنية المتهدمة الى خير مما كنت عليه ..

وكان عاقبة ذلك تغييرا جذريا فى نفوس القوم ، الذين كانوا الى عهد قريب اشد سكان الهند على المسلمين ، فأصبحوا بعد هذه الخدمة الانسانية من اكثرهم تقديرا لهم وشفقة بهم ..

وانها لتجربة تستدعى من المسلمين أن يفيدوا منها فى نشر الخير ، الذى لا يجد من يكرهه اذا احسن دعاته عرضه والدعوة اليه ..

ســـؤال ينتظـر جـــوابا :

واحب ان اعرض هنا للقراء فكرة خطرت لى اثناء وجودى بجامعة (فلاح الدارين) فى تركيسر من ولاية كجرات ، لقد لاحظت أن فى جوار

المسلمين هناك سكانا من المنبوذين يعملون فى الزراعة ، وقد وصفوا لى بانهم فقراء كالكثر شيعتهم فى ولايات الهند ، فسالت الاخوان هناك عن مدى علاقتهم بهم ، وعن مدى استعدادهم لقبول الاسلام ٠٠ ثم طرحت على الاساتذة موضوعا لم يمر ببالى من قبل ، وهو تخصيص المسلمين جـزءا من زكـــاة اموالهم لاهل الحاجة منهم ، على اعتبارهم من المؤلفة قلوبهم الذين خصهم الله باحد المصارف الثمانية من أموال الصدقات ٠٠ ومع أن بين اولئك الاخـوة فقهاء يشار اليهم بالبنان لم يروا ان يقطعوا بالموضوع يومئـــذ ٠٠

وهـا أنذا أعيد طرح الفكرة على أصحاب الفضيلة من فقهاء المملكة واتمنى لـو نسمع تقريرهم بشأنها ٠٠ ولعل الله أن يجعل فى ذلك خيرا لدعوته ليس فى الهند فقط بل فى كل مكان من أرض الله ٠

القصـــور والحسينيات :

عقيب صلاة العصر توجهنا بسيارة النـــدوة مع الأخوين سعيد وأبى سحبان الى الجانب الشيعى من المدينة ، وهناك رأينا العجائب المبكيـــة المضحكة معا فى الشارع المسمى (امام بـار) ٠٠

عمائر لا ينالها الوصف ولا يستوعبها الكشف ، وما ادرى أى اسـلوب ينبغى ان أتخذ لنقل صورها الى القارىء لانها فوق قـــدرة الكاتبين والواصفين ، ولعل رسومها التى تنشر مع هذه الحلقات أوفى رسيـــلة لتعريفها ٠٠

القصــور الملكية فى لكناو :

أول ما يواجهك من هذه المعالم العمرانية مداخلها التى هى ضرب من القصور الشاهقة ، فاذا تجاوزتها الى ساحـات القصــور الملكية ، او الحسينيات الشيعية ، فوجئت برحابها الفسيحة وقد فرشت أوساطها بعشب الزينة كبسط السندس ، ويستقبلك على مقدم بعضها التماثيـل البرونزية بأزيائها التاريخية تكاد تتكلم ، وفى جوانب الساح نهضت الابنية المشيدة على صورة المساجد ، وما هى الا مكاتب موظفين ووزراء ٠٠ وحجاب ٠٠

ووقفنا تلقاء المبنى الكبير المطل على الحديقة ، والذى يحجب الفضاء بضخامته ويبهر البصر بنقوشه وزينته ٠٠ ولكننا لم ندخله لما رصف لنا من هــول دهاليزه التى لا يحسن التجوال خلالها ومغادرتها سوى الدليل الخريت المدرب ، وفى أعلى كل جدار اشباه المنائر التى لا تزال تمتاز بها مؤسسات المسلمين التعليمية فى الهند كنـــدوة العلماء ٠٠

وقد زرنا من هذه القصور اثنين على هندسة واحدة ، احدهمـــا اضعاف الثانى ، واجتزنا اليهما طريقا معبدا فوق جسور مقامة من عهـد بنائهما كاقوى وأفخم ما تكون الجسور ، وبازاء هذه المعالم يشمخ برج عـال لساعة كبيرة يقال انها من العهد نفسه ، وغير بعيد منه برج آخـر هائل أسوانى الشكل ذو أربعة أدوار ، لعله كان مركزا لحراسـة هــذه القصـــور ٠٠

ان الناس يصفون هذه المعالم واشباهها من بقايا العهود الاسلامية ، سواء فى مصر أو الهند أو الاندلس أو دمشق أو بغـــداد ٠٠ وعشرات الحواضر التاريخية الاخرى ، بكونها آثارا اسلامية ، ويعتبرونها عصورا شاهدة بحضارة الاسلام ٠٠ أما أنا فلا اراها اكثر من شواهد عادلة على ان منشئيها قد سجلوا بانصرافهم الى انشائها انصرافهم عن رسالة الاسلام، الذى ينتسبون اليه ، وعن حضارته الربانية ، فهم لم يصنعوا شيئا بهذه

المعابث سوى انهم دفنوا ثروات الوطن الاسلامى ، وأحالوا طاقات المسلمين الى حجارة جامدة تلهب الاحقاد فى صدور الفقراء والضعفاء والمخالفين فى الدين ، وشتان بين هذا العبث المترف وبين الروح الاسلامى ، الذى يفرض توجيه مثل هذه الجهود الى نشر العدالة بين الخلق ، وبث العلم الموصل الى الحق ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولقد وقفت طويلا افكر فى واقع الهند ، وهذا الصراع الذى لا يكاد يعرف الخمود ، الا ريثما يجمع مقوماته لاستئناف الملاحم بين مسلميها ومئات الملايين من وثنييها ، فأتساءل مرة اخرى : أين كانت عقول هؤلاء المغرورين ببهارج الدنيا ؟ .. ألم يمدوا أبصارهم الى ما وراء آنافهم ؟ .. ألم يفكروا بمصير الاسلام فى المستقبل البعيد أو القريب ! ..

أغلب الظن ان هذه الثروات الهائلة التى انفقت على هاتيك المترفات لو وضعت فى خدمة الدعوة الاسلامية ، ولو بذلت فى تأليف قلوب أولئك الضائعين من عباد الحجارة والحيوان ، لتغيرت مسيرة التاريخ فى شبه القارة كلها ، ولعادت هذه القطعان التائهة الى نور ربها راضية مرضية ..

ولا غضاضة عند ذلك أن نبيت فى الخيام أو فى العراء ، لاننا قوم سفر نعبر ممر الدنيا الى الدار الآخرة ، فعلينا أن نترك للمساكين خلفنا الصوى التى ترشدهم الى الهدف الاعلى . ويرحم الله ربعى بن عامر الذى دخل سرادق الجبار الفارسى رستم ، وهو يتوكأ برمحه على طنافس الاستبرق والديباج فيخرقها ، ليعلم أولئك المخدوعين بمتاع الدنيا أننا أمة من طراز جديد ، لا تبهرها زينة زائلة ، ولا تصرفها العاجلة عن الآجلة ..

فاعتبروا يا أولى الالباب :

وقد بقى ما يجب أن يعلمه القارىء عن مصير الذرية التى خلفها أولئك السفهاء ، الذين شغلوا عن الحق الخالد بالمتاع الزائل ، واستكمل العبرة التى لا يحسن بعاقل أن يغفلها . لقد حطم المستعمرون الانجليز عروش أولئك العابثين ، فسلبوهم نعيم الدنيا ، ودمروا عليهم ما كانوا يصنعون وما يعرشون ، ثم تصدقوا عليهم بفتات من تلك النفائس لا تسمن ولا تغنى ، حتى اذا هلكوا قطعوا عن ذرياتهم ما أجروه عليهم ، فهم اليوم فى الحضيض ، يبيعون أعز ما يملك الانسان لتأمين ضرورياتهم الاولية !..

فأين المعتبرون .. وأين أولو الالباب ! ..

وشاء الله ان يتمم لى ما فاتنى من هذه المشاهد أثناء تلك الرحلة ، وكان ذلك أيام رحلتى الثانية الى لكناو لحضور الندوة العالمية للادب

الاسلامى مع الاخوة الزملاء فى وفد الجامعة الاسلامية فانتهزنا فرصة الفراغ الذى سبق موعدها وقصدنا بعض هذه المنشآت التى أصبحت مـــوردا سياحيا لحكومة الهند ٠٠ وهناك قضينا بعض الوقت فى زيارة الحسينية الكبيرة ومسجدها الفسيح الذى استحال خلاء تصفر فيه الريح ، ولا يحمل من آثار المصلين سوى ذلك الصندوق المشحون بالمثلثات الخشبية ، التى كان مصلو الشيعة يسجدون عليها وفق مذهبهم ، الذى لا يجزىء غيـــه السجود الا على شىء من نتاج الارض المباشر ٠٠

وكانت العواصف تزأر بقوة والغبار يحجب مجال الرؤية ، ولـولا لطف الله بنا لسحقتنا الحجارة التى سقطت بجوارنا من أعلى المدخل ٠٠

ذكـريات وذكـريات :

وأثناء العودة الى الفندق وجه أحد الاخوة المرافقين نظرنا الى مسجد غير بعيد من تلك الحسينية وهو يقول : من هذا المسجد انطلقت زحـــوف الثورة الاسلامية التى قادها الامام احمد عرفان الشهيد ٠٠ ولا يزال بعض فضلاء الشيوخ يقصدونه للصلاة والدعاء فى الظروف الهامة ، تبركـــا بما شهده من ذلك الحدث الذى أريد به وجه الله واعلاء كلمته ٠٠

وما ابعد الفرق فى الدلالة بين ذكريات الجهاد الذى انطلق من ذلك المسجد فخلد معانيه فى قلوب المؤمنين وبين ذكريات الترف الملكى الذى تمثله تلك القصور البائسة ، وتمثل معه غفلة بناتها عن مسئولياتهم نحـــو دينهم وأمتهم وانفسهم ٠٠ حتى اصبحوا اليوم عبرة لكل من كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ! ٠٠

التعقيم والســـــدود :

ومن حى القصور الملكية انتهينا الى شارع امين اباد ، وقد سبقت الاشارة الى كثافة المارة خلاله ، حتى لا تكاد تجد موطئا لقدميك الا بمشقة وفى هذا الشارع من قلب لكناو ، وفى شوارع بومباى الاخرى ، وهى كقرية النمل لا تجد فيها ساكنا ، تقع على التفسير الواضح لعل حكومـــة انديرا غاندى فى فرض التعقيم على السكان ابتغاء وقف السيل الدافق من النســـــل الهندى ٠

والمتجول فى ارجاء الهند وهو يرى سعتها ، ويلمس خصب تربتها ووفرة مياهها ، لا يتمالك من العجب لاقدام المسئولين فيها على معالجـــة توافر السكان بفرض التعقيم٠٠ ذلك ان هذا الضرب من العلاج الساذج لا يخرج عن طريقة القوم فى علاج السيول التى كثيرا ما تجـرف المـدن

والقرى ، فتذهب بعشرات الالاف من الناس وبالعديد الذى يفوت الاحصاء من المساكن والدساكر · ولعلى ذكرت ذلك الحاجز العالى من التراب الماثل بين ندوة العلماء ونهر غومتى ، وقد أقيم لحماية المنطقة من طغيـــانه ، وانفقت الاموال الطائلة لدعمه وتصفيحه بالحجارة ·· ومثل ذلك شاهدنا فى قرية الشيخ أبى الحسن ــ تكيا علم الله ــ حيث ارتفع فيضان النهــر المجاور ذات يوم الى انصاف المنازل ، وسجل اثاره على وسط المسجــد المبنى أعلى الربوة القائمة على كتفه ·· كما رأينا كذلك بعض الزوارق خلال البيوت . وقيل لنا انها تستعمل وسائل للمواصلات ايام الطوفان ··

وطبيعى ان الحواجز والزوارق لست سوى وسائل مؤقتة لمواجهـة الطوارىء فى مواسم الفيضان ، أما العلاج الحقيقى فهو الذى يقوم على مسح شامل ودقيق لارض الهند ، ثم اقامة السدود على أساس ذلك حيث تستدعى اوضاع الارض ، وبذلك يتم تحويل السيل القاتل الى ترياق شاف يمد الهند بكل ما يجعل الحياة سهلة وجميلة وميسرة ·· ويا ليت الهنـد وليتنا معها نتعلم من هولاندة الصغيرة كيف تعمل لتحمى بلادها الواطئة من سدود الاطلسى ، فتكسب كل عم جديدا من قاعه توسع به مساحتهـــا الاقليمية ··

الرؤية الايمانيـــة :

وكما عالج المسئولون فى الهند أخطار السيل بتلك الحواجز المرتجلة أقدموا على مواجهة ما يسمونه (الانفجار السكانى) عن طـريق محاربة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ·· فكان اختيارهم لهذه الوسيلة كعمل طبيب يعالج الصداع بقطع الرأس ! ·· ولو أن دعاة التعقيم ، سواء فى مصر أو الهند وغيرهما ، يملكون الرؤية الايمانية الى واقع الناس والارض لأيقنوا ان الله لم يخلق نفسا الا وقد تكفل برزقها ، وانما تضيق الحيــاة وتتسع وفقا لتصرف المخلوقات بخيرات الارض ، وقد حدثنا أبو داوود ــ صاحب السنن رحمه الله ــ أنه رأى فى مصر قثاءة بلغت ثلاثة عشر شبرا وشاهد اترجة فلقت شطرين لتكون حمل جمل ··

ولقد ادركنا نحن طرفا من أيام الخير ، اذ كان الارز المصرى يغطى حاجة الشرق الاوسط ·· ولا تزال شعوب المنطقة على امتدادها تطلق اسم (المصارى) على كل نقد تتداوله ·· وهى شهادة جماعية على أن مصر هى مركز الثقل فى اقتصاد هذه الاقطار ·· وها هى ذى مصر اليوم تشكو الضنك والعسر وشح الارض ، حتى لا يرى المسئولون فيها مناصا من تعقيم سكانها ، بدلا من ان يبحثوا فى العمق عن اسباب ذلك التغير الذى بلـــغ

أشده على يد السرطان الاشتراكي الذى اتى على كل شيء فدمره باسم (الكفاية والعدل) ٠

الخمر وتحديد النسل :

وليس الامر فى الهند ببعيد عن واقع مصر فكلاهما حسب وصف الشاعر :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول

انهما مضرب المثل فى التربة الطيبة المعطاء التى لا تعرف البخل ٠٠ ولكن سوء التصرف هو الذى يضعهما فى قفص الاتهام ، ثم يزعم ان كل ضرب من الحرمان يعانيه البؤساء فمرده الى عجزهما عن العطاء ٠٠٠ وما أحكم قول بشار فى الرد على مثل هذا الزعم

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومع ان حملة التعقيم الرسمية فى الهند قد خفت حدتها كثيرا بعد سقوط أنديرا غاندى ، وترك أمر التعقيم الى قناعة الناس دون تدخل من قبل الدولة ، فالملاحظ ان موقفها بعد عودتها الى الحكم لم يتغير بالنسبة الى أصل القضية ، فهى على اتم القناعة بضرورة الحد من النسل الهندى ولكن الوسيلة الى ذلك ليست وقفا على التعقيم المباشر وحده ٠٠ ويقال ان الغاءها قانون تحريم المسكرات مؤخرا عائد الى النظرة نفسها ، اذ ان فى العودة الى الخمر موردا جديدا للدولة ، فضلا عما تستتبعه من توسيع لابواب الشهوات ، التى من شأنها ان تضعف من الاقبال على تكوين الاسر بالانصراف الى الثمرات المحرمة ! ٠٠

فكرة عابرة للاصلاح :

والمفكر الذى يسمع بقصة التعقيم لا مندوحة له عن التساؤل : أليس ثمة من وسيلة لاصلاح الوضع العام عن طريق آخر غير التعقيم والخمر وتفجير الشهوات ؟! ٠٠ ولعل كثيرين قد فكروا بذلك واستعرضوا أنواعا من الوسائل لحل الازمة ٠ وعلى طريقتهم الفضولية أرانى أفكر فى الموضوع ثم اجدنى بازاء الفكرة التالية

ان ادارة شبه القارة الهندية من عاصمة مركزية ولجنة أمر مخالف لمصلحتها ، ولا يمكن استمراره الى الابد ٠ وفى أحداث أسام ، وما سبقها

من التطورات فى المناطق الاخرى ، مؤشر صحيح الى التحولات المستقبلية وخير للهند من مواجهة المفاجآت ان تقوم هى بتكوين مؤسسات حكومية ، على مستوى القارة ، تتولى كل منها ادارتها الذاتية فى اطار الدولة الأم، وبذلك يتاح لكل واحدة أن تقبل على بناء اقتصادها وفق مصلحتها وامكانات أرضها فى تعاون متكافل لصالح الجميع · وهكذا تتحول هذه المئات من ملايين البشر شعوبا منظمة تعمل لتكوين نفسها ، وتسهم فى بنيان العالم، بدلا من ذلك الضياع الذى تتخبط فيه ، والذى يحجب الرؤية السليمة عن قادتها ، حتى يكادوا لا يرون متنفسا لضغط الواقع الا بالاستعداد للحرب، انسياقا مع اهواء الملاحدة من طواغيت موسكو ، وخضوعا لاغـراءات اميركة ، وكلاهما عدو للعدالة والانسانية ··

لقد امكن للهند ان تصون ثرواتها الاقتصادية من التسرب الى الخارج فهى تنتج اليوم كل ما يعوزها من المصنوعات سواء بأيدى ابنائها ، او عن طريق الخبرات الاجنبية التى تقيم مؤسساتها على أرض الهند ·· ولكن وقوعها تحت كابوس السياسة العسكرية يمتص معظم هذه الفوائد ، ويحجب خيراتها عن السواد الاعظم من سكانها ، حتى ليضطر الهنـدى لشراء الماش والسكر ـ المنتج فى بلاده ـ بأضعاف ثمنه فى الخارج ، فتقـوم التظاهرات احتجاجا على الغلاء الذى لا تعرف السلطات السبيل الى علاجه لانها سائرة فى الطريق الخاطىء · وصدق الله العظيم القائل فى كتـابه الحكيم : (قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ·· الذين ضـل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ـ سورة الكهف) ·

في المعبد الأكبر :

السبت ١٣ـ٢ـ١٤٠١

خصصنا أصيل هذا اليوم لمشاهدة ما وصف لنا بأنه أكبر معابد الهندوس فى لكناو وأحفلها بأنواع التماثيل التى تصور معتقداتهم ٠ ولم يكن بعيدا عن ندوة العلماء فسلكنا اليه بعض الجواد ، ثم عبرنا بعض الأزقة البائسة ، التى تنتشر على جانبيهم المساكن ذوات الدور الواحد ، وقد جثمت فوق مدخل كل منها صور المعبودات ٠ وما أذكر أنى رأيت منزلا هناك لا يعلو مدخله أنواع منها ، حتى انتهينا الى المعبد ، وهو عبارة عن مسكن عادى كأحد هذه المنازل المجاورة ، قسم ثلاثة أجزاء أحدها للمعبودات والثانى للبقر ، والثالث لسكن الاسرة ، التى تقوم بخدمة المعبد مقابل الاجور ـ الهبات ـ التى يتلقونها من قاصديه ٠٠

واستقبلنا على الباب أحد السدنة وعليه سيما الفقر والجهل ، واذن لنا بالدخول بعد أن نخلع أحذيتنا فى الخارج ٠

ووقفت أجيل البصر فى ما هناك فلم أر ما يسترعى الانتباه ، سوى تلك الصومعة الذاهبة فى الفضاء وقد نهضت فى وسط الفناء على اربعة أضلاع يقارب كل منها الاربعة الامتار ، وطوق ظاهر القسم الاعلى من جدرانها بعشرات الصور المنحوتة أو المصنوعة من الجبس ، وكل منها يحتل جزءا من الاساطير التى يتداولونها عن آلهتهم ، كالتى تعرض فى كتبهم المدرسية ويراد بها ترسيخ الصلة بين الجيل الحديث والاجيال الوثنية الضاربة فى القدم ٠ وسأحاول أن أعرض للقارىء نماذج من هذه الاخيلة التى لا يرى رجال التربية والتعليم من الهندوس بأسا فى عرضها، على أساس من كونها تراثا قوميا شاملا لسائر سكان الهند ٠٠ فكأن القاعدة بنظرهم : (ما دمت هنديا فلا مناص من أن تكون وثنيا ٠٠)

وتبرز من خلال هذه المصورات الكثيرة أدق خصائص العقلية الوثنية فى هذه البلاد ، اذ لا تقتصر على رسوم الآلهة على هيئة البشر ، بل تشمل كل ذى نفس حية من البشر والبقر والقردة والخنازير والعقارب والفئران وما اليهن ٠٠ ولكل منها قصتها منفردة أو مكملة لغيرها ، وهذا ما تشهده مجتمعا على المحيط الاعلى من الصومعة ، اما داخلها فهناك عدد من التماثيل موزعة فى الوسط والزوايا ، وبعضها جاثم فى الخارج على انفراد

وفى مفكرتى كتبت عن هذه المصورات :

(ان هنا مجموعة من المنحوتات تمثل رجالا يحملون الابواق كأنهم على وشك نفخها ٠٠ وآخرين يحملون دلاء صفراء ٠٠ وعلى زاوية كل من الجدران تمثال تنين طويل ، وفى الصدر المواجه للمدخل صورة رجل يرفع بيمينه مشعلا وهو خارج لتوه من فم حيوان هائل له عينا انسان ٠ وتطفو على ذاكرتى وأنا ألاحظ هذه الصورة الاخيرة قصة نبى الله يونس (ع) التى قصها الله تبارك اسمه علينا فى مواضع من كتابه الحكيم ، ومن ذلك قوله فى سورة الصافات (وان يونس لمن المرسلين ٠ اذ ابق الى الفلك المشحون ٠ فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أن كان من المسبحين ، للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) فأتساءل فى نفسى: هل لهذا الذى أراه من علاقة بأخبار ذلك النبى الكريم ؟ ٠٠

وعندما نعود الى الاصول البعيدة لهذه الوثنية نتبين ان وراءها رسالات النبيين التى حرفها المضللون ، وما زالوا بها حتى حجبوها نهائيا بهذه المنحوتات وبالقصص والاساطير التى نسجوها حولها ٠٠ ومن هنا كان لمروياتهم هذه مظهران أحدهما يعرض أخبار الصراع بين عناصر الخير والشر ، ممثلة فى رجال مخترعين أو تاريخيين ، وفى الغالب ينتهى ذلك الصراع بانتصار الفريق الصالح ، فيكون فى ذلك تشجيع على الخير ودعوة الى العمل الطيب ٠٠ ومن هذا القبيل قصة (رام وسيتا) التى تدرس فى أحد كتب المطالعة الهندية ٠

والمتوقع ان يكون الحافز الى تجسيم هذه المعانى فى مثل هاتيك الصور هو السبب نفسه الذى أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فى التماثيل التى بدأت منذ عهد نوح (ع) بتصوير الصالحين للتذكير بفضائلهم ، ثم ما لبثت ان استحالت معبودات تدعى مع الله ويتقرب بها اليه ٠٠

ومن النوع الثانى تلك الاخبار الخرافية ، التى تترجم التصورات البدائية للشعوب الوثنية كافة ، ونخص بالذكر منها لدى وثنيى الهند أسطورة القرد (هانومان) التى تروى لاهلها قصته التى تقول : ان سيده (رام) قد أصيب ذات يوم بعلة لا شفاء لها ، الا بضرب من النبات لا وجود له الا فى جبال الهملايا ، وكان على القرد أن يأتيه به ، ولكنه لم يستطع تمييز المطلوب ، فما كان منه الا أن حمل تلك الجبال وأتى بها صاحبه ، ليختار مراده من نباتها ٠٠ ومنذ ذلك اليوم استحق القرد هانومان أن يضم الى قائمة المعبودات تقديرا لاخلاصه وقوته الخارقة ٠٠ وقد رأينا تمثاله



المعبد الأكبر بأكرا

فى (هانكج) حديقة بومباى الرائعة مصنوعا من بعض النباتات القصدية وهو يحمل مثال هملايا كما ترويه الاسطورة ..

ومــن اضـــل .. ؟

بقى أن أعرض لما شاهدته من عباد هذه المنحوتات ، فقد دخلنا الحجرة وفيها امرأة نصف تسجد على قاعدة الصنم الاوسط وحولها .. ورجل يناجى صنما آخر فى زاوية من الحجرة .. وقد نثرت الازاهير بين يدى هذه المنحوتات السفلية ، وسال عنها بعض الماء الذى يرشونها به ، ولاحظت ثمة صورا عدة لافاع تمتد من الصنم المتوسط حتى تنتهى الى الخـــارج ..

ولقد استرعى انتباهى منظر المرأة وهى تمرغ جبهتها عند قـــدمى الصورة التى قصدت اليها ، فى خشوع يبلغ حد البكاء ، وتكرر ذلك السجود عند كل جزء منها ، وقد طبع الاسى وجودها كله ، حتى ان الناظر اليها ليحس ان ثمة ماساة تأكل قلبها ولا تعرف سبيلا للتخفف من لذعها الا باللجوء الى هذه الحجارة ! ..

وتمتمت فى أعماقى : لو ان هذه المسكينة عرفت الطريق الصحيح الى ربها الحق ووقفت بين يديه تدعوه بهذا الانكسار ، اذن لشملتها الرحمة التى وعد بها فى بلاغه الحكيم : (وقال ربكم ادعونى استجب لكم ..) أما وقد رضيت لنفسها هذه الضلالة ، فراحت توجه دعاءها وضراعاتها الى جماد لا يفرق بين ماء يرش به ، وبول ينضح عليه ، فقد حق عليهـــا أن توكل الى ما آثرت ، ولا مردود لذلك سوى الخسران المبين (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ــ ٤٦ ــ ٥) .

اختصــاصات الآلهـــة :

ورجوت من أبى سحبان أن يستوضح السادن الكبير ، وهو شاب تلوح عليه آثار المهنة ، عن اختصاص كل من هذه المعبودات ، فاخذ يفصل ذلك فى اهتمام المرتزق الذى يروج لبضاعته ، ومما أطنب فيه بخاصة تعريفه صورة المرأة المنصوبة فى كوخها الصغير خارج الصومعة ، على انهـــا بزعمه الهة التناسل والقوة الجنسية ..

وللوثنية الهندية عناية كبيرة بموضوع الجنس كشأن زميلتها اليونانية وقد ذكر لنا بعض الاخوة فى مدراس أن فى كبرى المعابد الهندوسية هناك معرضا تفصيليا للعملية الجنسية من مبدئها الى منتهاها ، لا على طريقة الدراسات التشريحية ، بل على طريقة التسجيد للجنس ذاته ·· وفى قلعة (فتح بور) بأكرا رأينا بين مجموعات الرسوم المعروضة للبيع عن آثارها واحدة تمثل معبدا خاصا بالجنس تعرض الكثير من مشاهده المكشوفة ، ويقصده من شاء للاطلاع المباشر عليها ··

ولله الفضل والحمد على أن نزهنا عن النظر الى هذه المقابح بعد أن من علينا بنعمة الايمان ، التى هى أكبر منح الله للانسان ··

ومرة اخرى اوجه نظر القارىء الى ظاهرة الفردية فى نفسية الوثنى الهندى من خلال عبادته نفسها داخل هذه الهياكل ، حيث يقوم كل واحد بأداءه طقوسه ومناجاة وثنه فى معزل عن الآخرين ··

واكرر ما أسلفته كذلك من التوكيد على ان هذه المعابد الوثنية انما هى من عمل اشخاص يقيمونها ويفتنون بتزيينها ، استخلاصا للمال من أولئك الذين الغوا عقولهم واستجابوا لاشواقهم الفطرية التى لم يعرفوا الطريق الصحيح لا روائها ··

مخطط شـــــاق :

الاحد ١٤ـ٢ـ١٤٠١

ابلغنى الاخ الشيخ محمد رابع بجدول الرحلة التى ستبدأ يوم الاثنين الثانى والعشرين من الشهر الجارى ، وقد عينوا لها اكثر من عشر مدن ٠٠ ولا شك أنه برنامج عسر التطبيق لا يدع مجالا للتنفس وبخاصة لمن هو على شاكلتى فى الرابعة والسبعين ٠٠

أجـل اننى لا أزال ولله الحمد محتفظا بكثير من نشاط الشباب ، أيام كانت الرحلات الرياضية أحب الاشياء الى بالغة ما بلغت من الشدة ، ولكن مجرد الشعور بالنشاط شيء وواقع الجسم شيء آخر ٠٠ وشانى مع هذين الجانبين كشأن الفارس القوى يمتطى دابة هزيلة ، فلا هو قانع بالاقل من الامانى ، ولا هى بقادرة على تحمل المشاق التى يريدها عليها٠ ثم لا ننسى أن لسمة العودة حدا هو أول ربيع الاول فلا سبيل لتجاوزه ، لذلك اقترحت على الاخ تعديلا يفسح المجال لبعض الراحة والاستطلاع فوعـــد خـــيرا ٠٠

حاميهــــا حراميهــــا :

وقبل ان امضى فى مفكرة اليوم أحب أن أورد ملحوظة أخشى أن يفوتنى ذكرها

لقد سافر الشيخ الرابع الى (تكيا علم الله) لبعض الامور على أن يعود فى اليوم التالى ــ السبت ــ الا انه وصل متأخرا ، ففاته حضور المحاضرة الادبية ، وابدى أسفه لذلك معتذرا للاخوة بتوقـــف القطـــار عددا من المرات أثناء الطريق الى لكناو ، لان الطلبة ــ من جامعـــــات الحكومة ــ كانوا يكرهون القطار على التوقف بين الحين والاخر ، ليهبطوا الى بعض الحقول فينهبوا من ثمارها ما يستطيعون ! ٠٠ والعجيب أن يقع ذلك فى قطار حكومى ومن قبل جامعيين يفترض انهم يفقهون الحدود والانظمة ٠٠ بيد ان تلك من الامور العادية فى بلاد تقوم فيهـــا المجازر البشرية على مرأى ومسمع من حماة الامن فيها بل بمشاركتهم احيانا ٠٠ وما دام ذهن الانسان خاليا من حقيقة التوحيد ، ومن الوازع الـــدينى الحق ، فلا استقرار له ولا انتظام لعمله الا بمقدار خشيته من مراقبـــة الســـــلطة ٠٠

نـــدوات مفتوحـــة :

وجـاء رسول النـدوة يستعجلنا للمحاضرة ، وفى تمام السـاعة الثانية عشرة افتتحناها ، وكانت هذه المرة نـدوة مفتوحة دارت أسئلتها وأجوبتها حول بعض أساليب البلاغة وعن نشوء اللغـات وتطورها ٠٠

وقـد وفق الله سبحانه فكانت على غـاية من النجـاح والتأثير ، تخللها بعض الطرائف التى حركت العواطف وأطلقت الضحكات ، وتركت وقعها الفكرى عميقا ولله الحمد ٠٠

ومن حق هؤلاء الطلبة ، وبخاصة اولئك الذين يقبلون منهم على زيارتي بعد كل عشاء ، أن أسـجل اعجابى بهم وتقـديرى لاهتماماتهم العقليـة والروحيـة ، تلك التى تجعل السهرة معهم ندوة أخرى تطرح فيها مختلف المشكلات ٠ وقد شرع بعضهم منذ أيام يقرأ على فصولا من كتابى (كلمات مضيئة) ويعقبها ببعض الشروح المصـــورة لانطباعاته حولهـــا ٠٠

هنــا انتصر الاســتعمار :

وكان الوقت أصيلا عندما جاءت السيارة لتحملنا الى أطلال (ريجى دنسي) التي شهدت أعنف المعارك بين المسلمين والانجلـــيز ، وانتهت بسقوط ولاية (أود) فى مخالب المستعمر ٠ وحضر مع السيارة الرجل الذي سيأخذ لنا الصــور الموضحة لساحة القتال ٠٠ وكان مترجمـــانا اليوم الطالبين الطيبين ظهير أحمد الهندى وأحمد الحبشى الاندونيسى ٠

وبعـــد أداء الرسوم المعتادة دلفنا الى داخل الرحاب الفسيحـة حيث تتوزع الحديقة الواحدة الى حدائق ، وحيث تقوم بقايا القصـــر المركزي شاهدا على أمجاد كبيرة لم تدعم بالمقومات التى تساعدها على البقـــاء ٠٠

كل شيء مجلل بغلالة من الكآبة القاتمة ٠٠ الا ان الاشجار الباسقة لا تنفك تتخلل اقسام الحديقة ، وبينها صفوف (البـــام) الشامخ كشجر النارجيل ، وقد عريت جذوعه وتوجت رؤوسه بمما يشبه المظال الواسعة فهي زاهية بزينتها كأنها غير دارية بمـا حل حولها من كوارث اهلها ذات يوم ٠٠ حتى لتذكر الناظر اليها بالصفصاف الذى لم ياس لمقتـــل ابن طريف الخارجي ، فاستحق عتاب أخته على ذلك بقولها :

أيا شجر الصفصاف ·· مالك مورقا　　كأنك لم تحزن على ابن طريف!

ان ها هنا مخلفات ماض مترف لم يتوقع أهله أى تغير فى مسـيرة التاريخ ، حتى دهمتهم النوائب على حين غـرة ، فدمرت عليهم ، وأتت على نعمائهم فأحالتها شقاء ، والى أبينتهم فجعلتها أطلالا :

ناموا على سرر الديباج وانتبهوا　على صباح بكى الطرف غائرة

أطـــلال ومدافـــع :

أول ما يواجهك بعد ولوجك هذه الرحاب تلك المغانى المتنـــاثرة هنا وهناك ، وقـد استحالت خرابا تنوح به الغربان ، غير أنها لا تبرح قائمة على أعمدتها ، وقد غرقت ببقايا دخان القذائف الناطقة بأن أهلها لم يسلموها الى العدو المغير الا بعد أن سجلوا أكـــرم مآثر الكفاح ··

أما القصر المركزى فهو دون القصور الملكية الاخرى ، ويبدو أنـه كان مقر الاسرة الحاكمة أو بعضها ، بخلاف تلك التى كـانت مراكـز الحكم ومحتوى مكاتب الاعوان والكتاب ··

وعلى أضـلاع الساحة ، بل الشرفة الكبيرة الملاصقة للقصر صفت المدافع القديمة فى أحجام متقاربة ، لا يزيد طول الواحد منها على المتر، وهو عبارة عن اسطوانة مجوفة توضع الكـــرة فى فوهتهـــا ويحشى ما خلفها بالمواد المتفجرة ، فاذا اشعلت تمدد البارود وقذف بالكـرة فى الاتجاه المقصود ··

وعلى مدى غير بعيد من وسط الحديقة نصب مدفـــع ضخم من الطراز نفسه ، وكأنه معد للاطلاق ، وهو من النـــوع الذى شهدناه فى جـــزر الفيلبين من مخلفات الغـــزاة الاسـبان ··

ودخلنا القصر فاذا هو متحف بدائى ، تعرض على جدرانه رسوم تمثل تاريخ الغـــزو ، وقد رفعت فوق بعضها صـور القادة الانجليز ، وعرض فى وسط القاعة الكبرى مجسم لمدينة لكناو كما كانت أيامئذ ·· ومنه عرفنا ان ابنيتها لم تكن تزيد عن الدورين ، ما عدا القصور الملكية كشأن منازل اندونيسية وما جاورهـا ··

وفى بعض هذه القاعات بقايا أدوات حربية منها مدافـــع دون المتر ، ويقارب قطر الواحد منها عشرين سنتم ، وهـو نوع من الاسلحة

القابلة للتنقل ، ولكنها تتطلب قوة لنقلها ، فهى أقرب الى القاذفات التى يحملها واحد ويطلقها آخر على الدبابات ، والى جانبها مجموعة مرصوفة من القذائف الكروية المختلفة الاحجام ٠٠

وهبطنا أربعا واربعين درجة الى ما تحت البناء ، فاذا هناك مسكن من الطراز الاعلى نفسه ، ولعله كان مساكن للخدم ، وقد بقيت من سقوفه الخشبية بقية تشهد بدقة الصنعة ، على ان أرضه خالية من كل أثر للبلاط الانيق الذى فرشت به أرض القصر العليا

وكان عامل التصوير قد التقط لنا رسوم القصر والابراج المشرفة عليه ، ولعلها مقامة هناك لحمايته فى الاصل ، وقد أصابها من آثار الحرب ما أصاب أخواتها ٠٠

والمهم انا شهدنا ساحة احدى الملاحم التى استمات فيها المدافعون عنها ، ولم يستسلموا حتى فقدوا كل شىء ٠ وقد قيل لنا ان هؤلاء كانوا من مختلف الطوائف اذ اشترك فى المقاومة للغزاة المسلمون والهندوس والسيخ ، ولكن غلبتهم الخيانة التى أقترفها بعض الكبار مقابل بعض المنافع ، التى ذهبت معهم وخلفت لهم عار الخيانة وحده ٠٠

ومرة اخرى اقول : ان سفاهة أولئك الحكام المترفين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، هى التى مهدت للاستعمار الانجليزى ، الذى كان قمة الرزايا على مسلمى هذه القارة ٠٠

وغادرنا هاتيك الاطلال فى الطريق الى شارع أمين أباد ، لاسترداد ساعتنا التى تركناها لدى المصلح منذ أمس ، وسرنا أن وفق الى اصلاح ما عجز عنه فى المدينة ثلاثة من كبار الساعاتية ، الذين اقتضوا عليها قرابة المئة من الاريلة ٠ ولما سألناه عن الاجر الذى يطلب أبى أن يكون أجره غير الدعاء ٠٠ ومثل ذلك فعل بائع الاحذية المجاور اذ أبى ان يأخذ ثمن الخف الذى أخترناه من متجرة ، وقد تكرر هذا الموقف فى بنارس وبومباى وفى عاصمة اندونيسية أيضا، وذلك على الرغم من الحاحنا على القوم باستيفاء حقهم وقبول اعتذارنا ٠٠ فما أروع وأسعد هذه الاخوة التى تجمع بين الهندى والشامى لغير ما سبب سوى الحب فى الله ٠٠ والحمد لله ٠٠

المعبـــود الجديد العجيب :

الثلاثاء ١٩ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

استمر المطر متقطعا اكثر هذا اليوم ، بعد ان قـدم بوادره خلال اليومين الماضيين ضبابا وسحابا حجب اشعة الشمس او معظمها ٠٠

وبعد صـلاة العصر ، وكنا نستريح على مصطبة المضافة مع بعض الاخـوة ، جاءتنا مجموعة من الرسـوم انتقينـا الصقها بمشاهداتنا وأوصينا على اخريات ٠٠ وتطرق بنا الحديث الى موضـوع الوثنيـة الهندية وتطوراتها ، وبعض اساطيرها ، وكان بينها قصة الآلهة المتنافسة على الزعامة ، ولجوئهم للتحاكم الى اله الحكمة ، ثم قصة القرد هانومان الذى فرغنـا من خبره فى حلقة سابقة ، واخيرا قصة المعبود الخرافى الذى له جسم بشر ورأس فيل ٠٠

ومن الطرافة ان انقل للقارىء خبر هذا الاخير الذى لا بد للسائح فى ربوع الهند من مواجهة صوره وتماثيله انى سلك من الشوارع ذات المعارض الفنية ٠٠ وخلاصة قصته أن لأحد الآلهة قد ازمع سفرا وتـرك زوجته وخادما لها ٠ وذات يوم أرادت الاستحمام فأمـــرت الخادم بأن يحرس مدخل المنزل ولا يسمح لاحد بتجاوزه ايا كان ٠٠

واتفق ان عـاد الزوج المسافر الى بيته ، وحاول دخوله ، فمنعـه الخادم من ذلك ، فلم يكن من الزوج الا ان ضرب راس الخادم بســـيفه ففصله عن جسده ، ثم اقتحم الى داخل المنزل ٠٠ ولمـا رأته زوجـه التهبت غضبا ، وفرضت على الزوج القاتل أن يعيد للخادم رأسه ، وبازاء اصرارها لم يجد بدا من تنفيذ الامر ، ولكنه لم يجد الرأس المقطوع بـل وجـد فيلا ، فلم يلبث أن احتز رأسه وركبه على جسد القتيل ، فكـان من ذلك هذا المعبود الجديد العجيب ٠٠

تقاليـــد رهيبـــة :

وكان من طرائف هذه الجلسة كذلك أن نزداد علما بتطورات هذه الوثنية التى انتهت اخيرا الى ان تتالف من قسمين متمايزين ، احدهما ما تتضمنه المواريث المكتوبة من المواعظ الخلقية والروحية ، والثانى ذلك الركـام من العادات والتقاليد المتزايدة التى لا أصل لها فى صــــحفهم المقدســـة ٠٠

وغير خفي على القــراء أن من تقاليدهم الرهيبة التى تم القضاء عليها نهائيا تقديم الزوجة نفسها للنار تحرقها فى حفل صاخب ، بمجرد أن فارق زوجها الحياة ، وقد بات معلوما أن الباعث على هذه الجنـاية هروب تلك الضحايا من احتقار المجتمع ، الذى يعتبر المرأة التى فقـدت بعلها شؤما ينذر بأسوأ العواقب ، فلا تجد أى خير أو احسان حتى من أقرب الناس اليها ، اذ تصبح حبيسة بيتها فى هـــوان لا يحتمـل ولا خلاص منه الا بالموت ..

ولعل كثيرين من ذوى العلم لا يعلمون موقف حكام المسلمين من هذه العـادة الجهنمية أيام كان لهم السلطان فى معظم هذه الديار .. فلقـد كان المسئول من هؤلاء الحكام اذا مـات الهندى المتزوج لا يسمح للقـوم باحـراق زوجه حتى يتحقق من رغبتها الصحيحة فى ذلك ، فيبعث بطلبها الى قصره حيث يعرض عليها الاسلام ، ويبين لها محاسنه ورحمته بالخلق فاذا أبت ذلك جمعها بسيدات القصر ليقمن بمحاورتها ، لعلها تقتنـع بالعدول عن ذلك المصير الكريه . ويستمر ذلك وقتا كافيا للتفكير والتأمل، حتى اذا أصرت على عزيمتها ترك لها حرية التصرف بنفسها دون اكراه.

ويـــراد احيــاؤها :

على أن من غرائب المفارقات التى لا تكاد تخطر فى بال انسان أن يوجد اليوم فى الهند من يرغب فى استعادة ذلك التقليد الرهيب ، فيطالب الدولة بالسماح للمرأة الهندية باحراق نفسها بعد زوجها ! ..

أجل .. لقد قامت فى شوارع دهلى قبل قليل مسيرة تهتف بالعودة الى ذلك الماضى .. ثم أعقبتها مسيرة أخرى ترفض ذلك المطلب العجيب .

وهكذا يمتد الصراع الفكرى فى الهند الى مثل هذا التناقض .. ولا عجب ، فقديما وصفت الهند بأنها مصدر التناقضات ..

اثرهـــا بين المسـلمين :

ومن حق القــارىء أن يعــلم كذلك أن شيئا من هذه المفارقات قد تسلل الى حياة المسلمين فى الأفغان وفى الهند .. أو لعل بعضهم نقـله من رواسبه الهندوسية القديمة الى حياته الاسلامية الجديدة ، فظل متشبثا فى مجتمعهم ، على الرغم من تأثير الاسلام فى تهذيبه والتخفيف مـن

شدته ·· ذلك ان المسلمين من هؤلاء راولئك أو معظمهم كانوا الى عهـد قريب يرفضون تزوج الارملة أو تزويجها ، فتبقى سائر حياتها محرومة العطف والانسانية ، حتى قامت حركة المصلح الامام احمد عرفان ، الذى استطاع القضاء على هذه السوأة ، واعاد للارملة المسلمة كرامتهـــا السليبة وحقها الانسانى فى الاقتران بزوج جديد دون أى غضاضة ··

وتسـللها الى النصـــرانية :

وجـرنا الكلام فى تقاليد الوثنيين الى ظاهرة فقدان النظـــافة فى بعض أوساطهم الشعبية ·· وتساءلنا عما اذا كان للتقاليد الدينيـــة نفسها اثر فى هذه الظاهرة ·· والذى أراه أن التلاحم قائم بينهما بصورة لا يخطئها البصر ، فضلا عن الفكر ، فالوثنية نحـلة تائهة ليس لها من حدود أخلاقية موجبة · وأدل شىء على ذلك كونها لا تعرف طهـــارة ولا نجاســة ، بل ان القوم ليشربون بـول البقر ويمسحون وجوههم بخثيه ، ويقال ان احدهم يشرب حتى بـــول نفسه فى بعض المناسبات ·· ومن هنـا كانت نفـــرة المسلمين من طعامهم وشرابهم والابتعاد عن شراء أى مأكول من عندهم ··

ويذكرنى هذا ببعض الطقوس النصرانية ، التى لا يستغرب ان تكون لها صلة بهذه الظواهر التى نشير اليها من وثنية الهند ·· فمن الخصائص الاصيلة فى نصرانية بولس انغماس الفرد فى مـــاء المعمودية ، الذى هـــو الخطوة الاولى فى تثبيت النصرانية عليه ، وكان القوم الى عهـد قريب يتنافسون فى الاحتفاظ باثر ذلك المـــاء المقدس على اجسادهم ، فلا يقربونها من الماء ، الا ما ظهر منها ، واكثرهم قداسة ابعدهم عهـدا بالماء ·· ولعل من الشروط الاساسية فى قديسيهم سلامة اجسادهم من ملامسة المـــاء كليـا ! ··

بعض الأمثـــلة :

واتذكر هنـــا بعض المناسبات التى تتصل بهذه الناحية ، شـــاهدت بعضها بنفسى ، وسمعت بعضها من غيرى · فقد اخبرتنى قـــريبة لى كانت نزيلة فى أحد المستشفيات اللبنانية ، وفى الغرفة نفسها امـــرأة نصرانية · وذات يوم رأت قريبتى صاحبتها تغسل متـاع العادة فى اناء لها معد للطعام ، فانكرت عليها أن تقدم على تدنيس انائهـا دون اذن ، فردت عليها أن النجاسة مجرد وهم لا وجود له ·· واتفق ان كاهنا جاء

لزيارة تلك النصرانية ، فشكت اليه المسلمة عمل صاحبته وادعاءها نفى النجاسة ٠٠ فكان جوابه ان هذا الذى تسمونه نجاسة نحمل مثله فى بطوننا فلو كان نجسا لكنا كلنا أنجاسا ٠٠

ومما رأيته من ذلك أن رجلا من النصارى كان يحمل طفلا له وبيده قطعة بسكويت فبال على ثوب والده ، وسقطت القطعة فى بوله الذى انتهى الى الارض ، فما كان منه الا ان مسح ثوبه بكفه ، وتناول القطعة فازال ما علق بها من التراب ثم جعل يدسها فى فم ولده ٠٠

ومرة ثانية شهدت نصرانية صاحبة مطعم تحضن ولدا لها ، وقد قذر على ثوبها ، فمسحته كذلك بيدها ثم قامت تحضر لاحد الزبائن باليد نفسها طعامه من الشواء ٠٠

والمرء عندما يستعرض مثل هذه الاحداث عند كلا الفريقين لا يسعه الا ان يربط بينها بسبب من وحدة المصدر ، ولا غرابة فى ذلك ما دام للنصرانية الافلوطينية البولسية جذور تلتقى مع الوثنية الهندية فى أصولها البعيدة ٠٠ والحمد لله الذى أنقذنا بالاسلام ، وطهرنا وفضلنا على كثير ممن خلق ٠٠

ندوة مع الغرباء :

قبيل المغرب قدم أحد الاخوة يخبرنا ان اجتماعا للطلاب الغرباء سيعقد عقيب صلاة العشاء فى أحد المهاجع وانه يحمل الينا دعوتهم لحضوره ٠٠

وفى الموعد المضروب توجهت مع بعضهم الى ذلك الاجتماع ، وكان يضم قرابة الثلاثين من مختلف أنحاء آسية وافريقية ، واكثرهم من الماليزيين والاندونيسيين ٠ وبعد التعارف وجهنا اليهم كلمة مركزة حول مسئوليتهم نحو أنفسهم وشعوبهم ودينهم ، أعقبتها أسئلة فى مختلف الجوانب المتصلة بحياة شعوبهم ، فأجبنا عليها بما فتح الله من الخير ٠٠

وفى اصيل اليوم التالى جاء بعض طلبة القسم العالى يطلبون الى حضور اجتماع لهم أعدوه لهذه الغاية ، وجعلوا موعده بعد صلاة المغرب فقدرت رغبتهم ، واعربت عن سرورى بشهود ذلك الاجتماع ٠٠
وقد تم اللقاء فى موعده ، وفى جو من المودة السعيدة جرى

الحديث مناسبا لمستوى الطلاب ، الذين لمست الكثير من أوجه نشاطهم الفكرى والثقافى ، وقد أدرته حول منزلة الانسان فى موازين الاسلام وفى موازين التيارات العالمية على اختلافها ، واكدت على مسئولية المسلم فى ضوء هذه المقارنة ، وبالنسبة الى مجتمعه وأمته والانسانية جمعاء ..

الغاء مريب :

وكانت محاضرة ما بعد عشاء هذا اليوم – الاربعاء ١٧–٢ – قد أرجىء موعدها ، اذ تلقت الندوة اشعارا بأن وفدا من دولة الامارات العربية برئاسة وزير العدل سيزورها خلال ذلك اليوم ، ولكن ذلك التاخير قد ألغى فى الساعة الاخيرة ، اذ وصلت الى الندوة برقية تنبىء بالغاء الزيارة . وقد اخبرنى الاخ شمس الحق أن مصدر البرقية غير معلوم لان الاسم الذى ذيلت به غير واضح ، وان كان المرجح انها من مصدر حكومى ..

وبناء على انطباعاتى الخاصة تصورت ان لهذه البرقية علاقة وثيقة بالاوضاع القلقة ، التى لا يزال المسلمون يعيشونها فى أعقاب مجزرة مراد أباد ، التى ذهبت بآلاف المسلمين على يد البوليس ، الذى انتهز فرصة تجمعهم أثناء صلاة عيد الفطر فصب عليهم حمم أسلحته بوحشية لا تستغرب من القوم الذين قرنهم الله باليهود ، حين قال فى تعريف خصائصهم جميعا (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا) ..

وطبيعى ان ليس من مصلحة حكومة الهند – فى مثل هذه المناسبات – ان تكثر الاتصالات بين الوافدين من مسئولى العالم الاسلامى واخوانهم ، من القادة المهتمين بقضايا اخوانهم من أهل الاسلام ..

مذبحة مراد اباد :

وعلى الرغم من مضى اربعة اشهر على تلك المذبحة العالمية وجدت الجرح لا يزال نازفا فى صدور المسلمين على مصارع اخوانهم الابرياء ولا انسى تلك الكلمة الباكية التى سمعتها فى اكثر من مكان فى الهند تقول : لقد ألفنا العديد من هذه المجازر يشنها علينا متعصبة الوثنيين بين الحين والحين ، بيد ان لمجزرة اليوم صورة أخرى

اذ وقعت فى المصلى وبنيران رجال الشرطـــة ، الذين كـــان عليهم ان يقوموا بحماية الآمنين بدلا من قتلهم ٠ ويقـول هـؤلاء فى حـرقة لا يستطيعون كتمانها : ومما يضـــاعف أحزاننا أن هـــذه المذبحـــة الوحشية تجرى فى الوقت نفســـه الذى كانت سـلطات الهند تستقبل زائرا عربيـــا كبيرا . وبينما نحن ننتظر من ذلك الزائر الكبير كلمـــة مواســاة تشعرنا بعطف الاخـوة اذا نحن نفاجأ باعـــلان تبرعه لمنظمات الالعـــاب الرياضـــية الهندوسية بمليون ونصف ٠٠ وقد نسى أن فى مـــراد أبـاد وبهـار آلاف المنكوبين من اخوانه ينتظرون النظرة الرحيمة واليد المضمدة ٠٠ فكان ذلك الموقف المؤسف اوجـــع لقلوبنا من مـوقف أنديرا غاندى وهى ترد على رجال الاســلام ، المطالبين بالقصاص العادل لاخوانهم المظلومين ، بقولها (ان الذين قتلوا فى مراد أباد أقل عددا من الذين يقتلون من المسلمين فى بلاد العرب ٠٠٠) فهـــل يسمع العرب هذا التحدى المهين ؟ ٠٠ وهل يعى المسلمون ما يسمعون ! ٠٠

رســول جامعـة الفــلاح :

وفى صباح الخميس ١٨ـ٢ وفـد علينا فاضـل من أساتذة جامعة الفــلاح فى (بللرياكنج ـ أعظم كـره) ومعـــه خطاب من فضيـــلة أمينها العـــام أبى الليث النـــدوى يدعونا لزيارتها ، وهى احـــدى دعوات كثيرة وجهت الينا من مختلف الانحـــاء ٠ ومن حسن الحظ أن جامعة الفـــلاح هى واحدة من المعاهـــد المقيدة فى برنامج الزيـــارات التى نظمتها نـدوة العلمـــاء ، وقررت بدءها يـوم غـد ٠٠ ومندوبها هذا اسمه الشيخ نظام الدين الاصلاحى ، من الذين تنم وجـــوههم عن فضلهم ، وهو يحسن العربيـــة السليمة وان كان بطىء النطق بهـا ، كشأن الكثرة من علماء الهند الذين يمتازون باتقان لغـــة القـــرآن ، ومع ذلك يعوزهم التأنى الكثير للاعـــراب عن أفكارهم لان أكثر تعاملهم بغيرها ٠٠ أما الذين أسلست لهم دراية ونطقـــا كالاخ أبى الحسن الندوى حفظه الله فانما توافر لهم ذلك بكثرة مخالطتهم لعلمـــاء العـــرب وادبـــاء العربية ٠٠

توزيـــــع الجـــوائز :

واصـــيل اليوم جـاءنا الطالب ظهير احمد يبلغنا رغبـة المسئولين بالمشاركـة فى حفـل توزيع الجوائز ، فكانت مفاجأة لطيفـــة لم ندر بها من قبل ، وفى الوقت المعين مضينا مع المشـــايخ الى القاعـــة التى نلقى فيهـا محاضراتنا الليلية ، واذا الطـلاب يملئونها ، وبدأ الحفل

بآيات من كتاب الله تلاها طالب أندونيسى بارع التجويد والاداء والصوت ٠٠ ثم تلاه مقدم الحفل ، وهو الذى قدم حفل ليل أمس بالعبارات الملائمة ، التى مهد بها لكل فقرة فى بيان عربى سليم ، فعرف بالمناسبة وأكرمنا باطراء لا نستحقه ، ختمه بدعوتنا لالقاء كلمة توجيهية نقدم بها لتوزيع الجوائز المقررة ٠ فلم أر لهذه المناسبة أفضل من الحديث عن رسالة العلم فى الاسلام ، والقيمة الممتازة التى أسبغها على طالب العلم ، حتى جعل الملائكة تضع له أجنحتها رضى بما يفعل ـ كما ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وتطرقت من هنا الى لمحة عن ماضيات الايام التى ميزت المجتمعات الاسلامية ، ومنها تلك الاحتفالات البهيجة التى اعتاد المسلمون حتى الجيل قبل الاخير الاهتمام بها ، كمواكب ختم القرآن ومناسبات الزفاف والختان وما اليها ، التى كان من شأنها تثبيت الطابع الاسلامى على كيان الامة ٠٠

وجاء دور التوزيع فجعل المقدم يسمى صاحب الاستحقاق والموضوع المتعلق به ، فيتقدم هذا ليتناول جائزته بسرور ورصانة ٠٠ حتى اذا استوفى كل حقه تقدم بعضهم فألقى بعض الكلمات الجميلة ٠٠

ولقد كانت بحق مناسبة طيبة أبرزت جانبا كريما من نشاط هذه المؤسسة العريقة فى خدمة الاسلام ولغة القرآن ٠٠ وكان بين الكلمات التى قدمها الطلاب ما يقتضى أن أرد على تحيتهم بمثلها ، وأكشف لهم عن بعض ما أضمر لهم ولمؤسستهم المجاهدة من ود وتقدير لا يتسع لشرحهما المقام ٠٠

وعقيب عشاء ذلك اليوم كان موعد المحاضرة الاخيرة التى ختمنا بها أيامنا السعيدة فى تلك البيئة ، التى اعتبر المقام فيها نوعا من الاعتكاف المبارك فى طاعة الله ٠

وقد وفق الله فسكب على المحاضرة نفحة القبول ، اذ كانت مستوحاة من بعض الآيات التى قرأها أحد الطلاب من سورة الجمعة ٠ ويالها من كنوز آلهية تشحن قلوب المؤمنين باشراقات الوحى الذى لا تنفد حكمه ولا تستوفى عجائبه ٠٠

وداعـا أيهـا الأحبـة :

الجمعـة ١٩ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

لقد أحسن بى أولئك الطلاب الاحبـة عندما ملئوا حجـرتى فى الليلة الفائتة ، ولم يفارقونى الا على مقـــربة من منتصف الليل ٠ لقد طرحوا العشرات من مشكلاتهم الفكرية ، وقـــرأ بعضهم على صفحـات من كتـــابى الاخر (مشكلات الجيل فى ضوء الاسلام) ٠٠ ولا غرابة فقد أحبـــونى كما أحببتهم ، وعـز عليهم كما عـز على أن نتفــــرق بهذه السرعة ، فجعلوا من تلك السـهرة فرصـة وداع ستستحيل بعـد قليل الى نوع من الذكريات العزيزة ٠٠

وكان علينا أن نغادر نـــدوة العلماء مبكرين اثر انطـــلاق الاذان بالدعوة الى صـــلاة الفجــر ٠ وهكذا أديناها جماعة خاصة قبل تجمع المصلين فى المسجد للصلاة العامة ٠٠ وما كنت لادرى من الوجهـــــة المبتغاة الا اننا فى الطريق الى المطـــار ، ولكن الطريق طـال كثـيرا واشتط فى الطول ، دون أن أعلم لذلك من سبب ٠٠ وجعلت السـيارة تمـــر بنا على ضروب من المشاهد بينها ما يشبه البحيرات من بقـــايا الامطار ، وفيها أنهار قد ارتفعت مياهها حتى اوشكت تغمر الطـريق ، لولا تلك الموانع التى رفعت على جوانبها لتصدها عن الطغيان ٠٠

وكان الضباب كثيفـــا يكاد يحجب الرؤية ، وقـــد شـــهدنا من آثاره صـــداما بين شـــاحنتين أدى الى تعميم الاصـــابة على عـدة شـــــاحنات ٠٠

وبغتة لفت أحـــد الاخوة نظرى الى ذلك النهر العريض ، الـذى كانت السيارة تتجه بنا نحـــو جسره ، وهو يقول : انه (الكانج) أحد كبـار مقدسات الهندوس ٠٠ واستعدت بصورة عفـــوية ما أحفظه من اخبار هذا الجبار العتى ، الذى لا يعبأ بتقديس القـــوم اياه ، فيبتلـــع المئات منهم كل عـام دون شفقة ولا رحمة ، مع انه فى اساطيرهم أنموذج الرحمة ٠٠ لانه الآله الذى تحول نهرا لافادة الناس ! ٠٠

فى مطـــار كانبـــور :

وبعد ساعتين من المسير غير البطىء أطللنا على مدينة (كانبـور) وهناك فقط علمت ان مطارها هو المقصود ٠٠ وعلمت أيضا اننا نستقبل بلدا يعتبر من مراكز الثقل فى صناعة الهند ، فها هنا مليون ونصـــف

مليون من السكان ، ثلثهم من المسلمين ، وفيها العديد من المصانع الهامة للزجاج وللنسيج ولسروج الخيول العسكرية ، ولخيول السباق · وكثير من انتاجها يصدر الى اوروبة وغيرها · ومن مصانعها الهامـــة تلك المتخصصة بصنع الطائرات الصغيرة والعسكرية ، والصانعة للمـدافع الثقيلة والخفيفة ، والاخرى التى تنتج الصواريخ والمظلات ·· وممـــا يلفت الانتباه ان معظم مهندسى هذه المصانع هم من المسلمين ، وكثـــير من المصانع الانتاجية فى كانبـــور يملكها مسلمون ، وفى بهار مصنع ضخم للسكر هو ملك احد المسلمين هناك ·

وفى كانبـــور استقبلنا الاخ كريم كان قـــد اخبر بسفرنا فـــراح ينتظرنا ، وشد ما كان سرورى كبيرا عندما علمت ان مظفر الحق الندوى هذا هـــو احد طلابنـــا القدامى ، وقد شارك فى الافـــواج الاولى مـــع الاخوين مزمل ومدثر الذين يعمـــلان فى خـــــدمة الدعـــوة بالولايات المتحـــدة هذه الايام ··

وقد زاد سرورى ان هـــذا الاخ العـــزيز من ذوى النشـــــاط الاقتصادى فى بلده ، ويملك مصنعا كبيرا لانتاج الجلود المدبوغـــة من النـــوع المتقدم ، وهـــو يصدر الى اوروبة والشرق الاوسط · ويبلـــغ انتاجه الشهرى قرابة الاربعين من الاطنان ، ويحقق من المبيع ما يوازى مئـــة مليون روبية – اربعين مليون ريال – فى العـــام ··

ولم يكن لنا بالطائرة المرتقبة ســـوى علاقة الانتظار ، ولكن ذلك تحـــول الى حجـــز مثبت بهمة الاخ مظفـــر اظفره الله ·· ثم علمنـــا أن موعدها قد تأخر بسبب العواصف التى حالت دون انطلاقها من مطار دهلى ، فرأينا ان نفيد من هذه الفرصة بالاطلاع على احوال البلد ومعالمه وبسيارة المظفـــر الهندية حققنا ما امكن من ذلك ، وكان فى مقدمـــة ما شاهدناه مصنعه الذى لم نكن قد دخلناه بعـــد ··

نشـــــاط يبعث الاعتـــزاز :

اجهزة هائلة ، وعمـــال كثيرون يتحركون فى كل اتجاه ، واكداس من جلود الجاموس منقوعة فى الاحواض الكثيرة ، وكل واحد منها يتسع لخمسة · واكداس عديدة مجهزة للتصدير الى ايطاليا وايران وغيرهما · واكداس اخرى تجهز للتعبئة ، وهى على غاية من القوة والجودة والنقاء · وقد طلبنا من الاخ مظفـــر ان يزودنا ببعض رسوم المصنع ورســـوم غـــيره من مصانع المسلمين لنعرف بها فى البلاد العـــربية انعاشـــا

للآمال وشحذا لهممهم .. فوعدنا بذلك ولم يكتم أسفه لتقصير مسلمي العرب وغيرهم في هذا المضمار ، مما يبعث الالم والخجل في نفوس اخوانهم مسلمي الهند ـ على حد تعبيره ـ وما اسرع ما ردتني زفرته هذه الى قصيدة لي في هذا الموضوع أقول في مطلعها

عقمت عقولكم بني الاسلام فغدوتموا أعجوبة الايام
الناس قد وطئوا الكواكب وامتطوا متن الأثير الى المدى المترامي
وتفننوا في صنع كل عجيبة لم تجر قط بعالم الأوهام
ووقفتمو في حيرة لا تفهمون وتنكرون على ذوي الافهام
حتى سلاحكمو وجل متاعكم من صنع أفاقين دون نمام
ونظام عيشكمو وشرعة حكمكم نسجا بأيدي كافرين طغام
تتسابقون الى اقتفاء خطاهمو في كل موبقة وكل آثام
حتى لقد أصبحتمو بين الورى مثل الضياع عدو كل نظام

ودعانا للاستراحة قليلا في منزله وهو يقع داخل المصنع نفسه ، وقد أنشئت عند مدخله حديقة مستطيلة على امتداد ضلع المنزل ، وفرشت ارضها ببساط من العشب الاخضر الناعم ، صفت على حوافه أصص الزهر بشكل ماتع ، وفي قاعة الاستقبال الانيقة جدا مع البساطة شاهدنا على الجدران لوحات عدة من الرسوم الطبيعية رائعة الجمال والاتقان ، وليس في احداها صورة لحي ، فهنأته على ذلك لانه مظهر للذوق المسلم الملتزم ولا بد أن لدراسته في الجامعة الاسلامية اثرها في هذا الاتجاه ..

وتناولنا بعض القرى العجلان من موالح ومعجنات .. ومن ثم دعانا الى قسم الادارة فولجنا مكتبه الخاص ، وفيه جهاز التلكس وكل ما ينبغي توافره في مكتب تجاري تسجل مبيعاته مثل ذلك الرقم من الملايين ..

وأطلت علينا من وراء نافذة المكتب حديقة اخرى مماثلة لتلك بوشيها السندسي وازاهيرها الشائقة ، وقد قطع منها موضع للصلاة أنيق علمنا من الاخ المظفر انه مصلى العمال المسلمين ، الذين لا يتخلف واحد منهم عن واحد من الاوقات التي تدركهم في المصنع ..

وسألت عما اذا كان بين العمال هندوس ، فأكد وجود بعضهم ، وسألته عما اذا كان يجد لديهم من رغبة في التحول الى دين الفطرة ، وبخاصة عند مشاهدتهم للصلاة التي لا يعرفون مثل

جمالها وكمالها في معابدهم ، ففهمت منه انهم لم يجـــربوا ذلك فيهم ، واعترف بأن المسلمين مقصرون فى هـــذا الجانب ٠ وهنـــا تذكـــرت ما سبق أن رويته عن لســـان زميلنا الهندى الدكتور ف٠ عبد الرحيم من ان المسلمين فى ولاية مدراس لا يرون من مصلحتهم تحول المنبوذين الى الاســـلام ! ٠٠

تاخـــير آخـــر :

ومرة أخـــرى يأتينا الخبر من المطـــار بتأخير جديد للطـــائرة المنتظرة ، فنهضنا لاستئناف التجوال ، وكان أخ من مدرسة (دار التعليم والصنعة) قـد جـاء يدعونا لزيارتها ، فمضينا معه اليهـا ، وهنـاك وجدنا ما نحب من الخير ، فالمدرسة تحتل جانبا من ارض واسعة بنى بعضها ويؤمل بنـــاء ما تبقى منها ، وفقا للتخطيط الهندسى المعـــروض فى صـــدر المبنى ٠٠ واطلعنا على بعض الاقسام الصناعية فيها وبينها معمل للزجاج ونحوه واخر لصنع قطع التبديل للآلات ٠٠ فكان هذا مبعث سرور لنا ، اذ رأينا منهجا متكاملا كالذى طالما حلمنا به وخططنا لمثـله فى لاذقية الشـــام ، فحالت العقبات السياسية دون تنفيذه ٠٠ من شانه أن يزود الطالب بالعلم والحـــرفة التى تحرك مواهبـــه وتغنيه عن طلب الوظيفة ، فى ظل أنظمة لا تعطيه الدرهم الا بأن تأخذ منه الدين ٠٠

ولاحظنا هنا سرادقات منصوبة ثم علمنا انها لجماعة التبليغ الذين سيقيمون احتفالا تحتها يوم غـــد ينتظر ان يضم مالا يقل عن مئة الف من الحضور ٠ وهي ظاهرة مباركة ومحبوبة لدى مسلمى الهنـد ، وان لم ترض الكثيرين من غيرهم ، يرون فيها وسيلة ناجحة للتذكير بحقائق الاسلام الكبرى ، وبأخـــوة المسلمين التى هم اشـــد ما يكونون حاجة الى تقويتها ، لرد القطيع التـــائه الى الطريق الصحيح ٠٠

ومن دار التعليم والصنعة اتجهنا الى أحد المساجد لصلاة الجمعة، ومن هناك الى منزل الاخ المظفر لتناول طعـــام الغداء ، ولكننا لم نكد نترجل من ســـيارته حتى فوجئنا بأزيز الطائرة فهرعنا الى المطـــار ، وما لبثنا الا قليلا حتى تم ما أردنا ، وودعنـــا الاحبـــة الخمسة الذين أبوا مفارقتنا الا بعد الاطمئنان على تأمين سفرنا الى بنارس ، نحـــن الثلاثة الشيخ سعيد الاعظمى والشيخ نظام الدين الاصلاحى وكاتب هـــذه الاســـطر ٠٠

فى الجامعة السلفية :

ثلاثون دقيقة مرت على اقلاعنا من مطار كانبور وبعدها هبطنا فى مطار اله اباد ، وهى ـ كما بدت لنا من الجو ـ مدينة كبيرة متناثرة الاقسام على مسافات متباعدة ، ولم يكن الوقت متسعا فلبثنا فى الميناء الجوى الدقائق العشرين المقدرة ، ثم طرنا الى بنارس التى انتهينا الى مطارها فى الساعة الرابعة عصرا ، وهناك وجدنا بانتظارنا الاخوين عبد الرحمن الرحمانى وأنيس الرحمن ، مندوبين عن جامعة بنارس السلفية، وعلمنا منهما أن البرقية التى وجهتها اليهم ندوة العلماء لم تصلهم الا ظهر اليوم ، وما كان لنا أن نستغرب ذلك وقد جربناه من قبل فى تلكس الجامعة الاسلامية ، الذى استغرقت مسيرته اربعة ايام ، وفى الحقيبة الضائعة التى انقضى على غيابها حتى اليوم قرابة الثلاثة الاسابيع ٠٠ والقدر المشترك فى الجميع اننا كلنا فى الهم شرق ٠٠

وصرنا الى الجامعة السلفية قبيل دقائق من المغرب ، فأسرعنا لصلاة العصر ومن ثم ذهبنا نلقى نظرات عابرة على اوضاع الجامعة ، التى كانت من خير ما شاهدناه حتى الان من معاهد التعليم الاسلامى فهى بالاجمال مجموعة من الابنية المنتظمة فى دررين يزينها ذلك المسجد الكبير ٠٠

وقد لقينا بين هيئتها التدريسية اثنين من خريجينا همـا أنيس الرحمن وعبد السلام بن ابى أسلم ومما ضاعف سرورنا أنهما كلبهما مبعوثان من قبل الجامعة الاسلامية ٠٠

أما عدد الطلاب فى هذه الجامعة فيقاربون الخمس المئات وكلهم من الهند ويبلغ مدرسوها الرقم الثالث عشر ٠

مع البريلويين ايضا :

ومما لفت نظرنا فى اعقاب احدى الصلوات ذلك البراح الكبير المواجه لقبلة المسجد ، وفيه بعض القبور وبازائها بعض عمال النسيج يعدون خيوطهم هنا وهناك ٠٠ وتوقعنا أن يكون تابعا للجامعة ، ولكن علمنا من الاخوة أن هذه الارض انما هى مقبرة للبريلويين ، وعلى الرغم من عدم حاجتهم اليها فهم متشبثون بها لا يبيعونها للجامعة بأى ثمن ، بل يتخذون منها وسيلة لايذاء الطلاب والمصلين فى الجامعة ، ويدفعون ابناءهم لتلويثها نكاية بهم لانهم يعتبرونهم من اعدائهم التقليديين

الذين يسمونهم الوهابيين · وقد أسلفت الاشارة الى هــؤلاء فى حلقــة سابقة ، وسأفرد لهم حديثا خاصا فى حلقة قادمة ان شاء الله ··

بنارس المركز الاكبر للوثنية :

وفى صباح السبت ٢٠ـ٢ تناولنا طعــــام الصباح فى مضــــــافة الجامعة ، ومن ثم حملنا الاخوة بسيارة خاصة للاطلاع على أهم معالم المدينة ، التى تعتبر مركز الوثنية الاكبر فى هذه البلاد · وأول المشــــاهد التى واجهناها هناك كان على ضفة الكانج المقدس حيث رأينا المحارق التى تساق اليها جثث الوثنيين من بنارس ومختلف الانحاء المحيطة بها · وقد قيل لنا ان ثمة نارا مجوسية لا يسمحون لها بالانطفاء أبدا ، ومنهــا يقبسون ما يشعلون به الحطب الذى يحرقون عليه تلــك الجثث ، ومن تقاليدهم فى هذا الاحراق أن الذى يتولاه ابتداء هو أقــــــرب الاحياء للميت ··

على ان من لطف الله بنا ان المحرقة كانت خالية من الموتى ، فلم نر مالا تسرنا رؤيته ، وعدنا أدراجنا وفى خيالى وصف ابن بطوطة للنسوة اللائى كن يقدن الى هذه المحارق فى موكب صاخب من ضجيج الطبــول الذى يراد منه ان يحجب اصوات الالم عن اسماع المحتفلين بهذه المآسى·

وعلى مقربة من هذا الشاطىء الكئيب يقع المعبد الهام الذى تتوافد اليه أفواج القاصدين لعبادة الاصنام من مختلف الجهات ، وهو لا يختلف كثيرا عن المعبد الذى شاهدناه فى لكناو الا بكثرة التماثيل المنتشرة على جدرانه الخارجية ، والممثلة لمختلف الاساطير الوثنية · والغــــريب فى أمر هذا المعبد أن يكون بانوه والمنفقون عليه هم المنبوذين الذين سلبتهم هذه النحلة العنصرية كل أثر من حقوق الانسان ! ··

الى جامعـــــة الفـــلاح :

ومن ثم أخذنا طريقنا الى أعظم كره الباعدة تسعين من الكيلات·· والطريق الى تلك المدينة حقول متصلة تموج بالخضرة من اصناف الزروع وأبرزها قصب السكر والعدس والخردل والمسد والحبوب المتنوعــة ··

ومررنا أثناء ذلك بين القبور المبنية فى عزلة عن العمران ، وعن أشباهها من القبور ، وقد قيل انها قبور بعض المسلمين ، الذين كانت تزار

للتبرك والدعاء وربما كان سكانها من المنكوبين باذى الناس ، فاوصوا بدفنهم بعيدا عن مواطن البشر على طريقة ذلك المتشائم القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت أطير

ولم نتوقف فى أعظم كره التى لم نر منها فى طريقنا سوى الاسواق الضيقة والازقة القليلة النظافة ، اذ كانت وجهتنا قرية (بالريا كنج) التى بلغناها بعد تسعة كيلات · ومال بنا الاخ الشيخ نظــام الدين أولا الى منزل الطبيب محمد ايوب صديق جامعة الفلاح ، حيث استرحنا قليــلا وتناولنا بعض ما أعد لنا من ضيافة سريعة وخفيفة ··

ومما استرعى انتباهنا فى هاتيك العبادة كثرة الزائرين ، وقــد انتشروا فى الفناء الذى يشرف عليه المنزل ، بانتظار دورهم لمراجعــة الطبيب ، مما لا ترى بعضه لدى الاطباء الاخرين ·· ومرد ذلك ــ كمــا اخبرنا الاخرة ــ ثقة القوم به وشهرته فى نطاق التشخيص والعــلاج ، الذى قدر له الله التأثير الصحيح ··

وكان علينا ان نستعد لصلاة الظهر ، فواصلنا سبيلنا الى جامعــة الفلاح ·· التى أول ما يطالعك منها مسجدها الكبير المشرق · · وفى هذا المسجد الجميل أدينا الصلاة ، ثم فوجئنا بالمكبرات تنصب وبالاخ الشيخ أبى الليث الندوى ، أمير الجماعة الاسلامية سابقا والمسئول الاول لهذه الجامعة ، يتقدم فيتفضل بكلمة ترحيب حيــا بها الجامعة الاسلامية ومسئولها فضيلة الدكتور عبد الله الزائد ، ولم ينس أن يطوقنا بالاطراء الذى لا نستحقه ، ثم تقدم بعض الطلبة فتحدثوا بلسان عربى مبين عن جامعتهم وعن انشطتها المختلفة ، وفى النهاية وقف الاخ السعيد فقدمنى للكــــلام ··

وقد وفق الله فحدثت هؤلاء الاخوة عن المنزلة القيمة لعلماء الهندفى قلوب مسلمى العالم ، وخصصت بالذكر الامامين ابا الاعلى المودودى مؤسس الجماعة الاسلامية ، تغمده الله برحمته ، والشيخ ابا الحسن على الندوى القائم على نــدوة العلماء ، أمــد الله بحياته ، وهمــا المفكران اللذان يدين لهما الجيل الاسلامى المعاصر بالكثير من عوامل النهضة والتوعية ، فى نطاق الثقافة القرآنيــة وفى ميدان التربية والتعليم المميزين للشخصية الاسلامية على المستوى العالمى ··

ومن هنا نفذت الى تذكير الحضور بما يواجههم من مسئولية كبيرة نحو الدعوة الاسلامية فى هذه الربوع ترسيخا لمبادىء هذين الامامين ، وتحقيقا للاهداف العليا التى وقفا حياتهما عليها ، ثم انطلقنا للاطلاع على اقسام الجامعة ذات الدورين الكبيرين ، فشاهدنا مكتبتها القيمة ، ورأينا مهاجع الطلاب التى تضيق بهم حتى ليسكن منهم العدد الكبير فى الحجرة الواحدة ..

فى كليـــة البنـــات :

وبعد الغـــداء الذى تناولناه فى الجامعة مضى بنـــا الاخوة من مسئوليها الى كلية البنات التابعة لها وبلغناها بعد مسيرة يسيرة بالسيارة وعبرنا الى الكلية زقاقا ضيقا تنقصه النظافة ، وتنتشر خلاله المنـــازل القروية على غير انتظام .. واخيرا بلغنا المكان المقصود وعرفناه من شكله المخالف لسائر الابنية التى مررنا بها ، اذ كان دالا بانتظـــامه وامتداده انه احد المراكز التعليمية ، على الرغم من انه لم يستكمل وضعه النهـــائى بعـــد ..

ووقف بنـــا الاخوة عند أول قاعات الدرس ، وولجنا المدخل لنأخذ مكاننا على منضدة المدرسة حسب اشارتهم ، وكانت القاعة مقســـومة بستار كثيف من القماش بحيث لا يرى ما وراءه ، ولم أعرف ماذا ينبغى أن أعمل حتى سمعت صوتا أنثويا يلقى علينا تحية الاســـلام من وراء الحجاب ، فرددنا عليها بأحسن منها ، ولم ألبث ان استمعت لهذا الصوت نفسه يرحب بنـــا بكلمة عربية موجزة ، ولكنها بليغة الاداء والاسلوب و (المضمون) اذ كان عرضا مكثفا لتاريخ هذه المؤسسة ونزيلاتها مـــن المدرسات والطالبات والاهداف التى تعمل لها فى تنشئة الجيل الذى يصلح لتجسيم المعانى الاسلامية فى الوسط النسوى على الرغم من كل المثبطات والعقبات التى تواجه العمل الاسلامى الناشىء فى هذه البلاد ..

وعقبت على الكلمة بما يناسبها ، وذكرت المحدثة الفاضـــلة ومن وراءها من بنـــات الاســـلام بالموجبات الضخمة التى وضعها القدر على عواتقهن ، عندما قرن الله سبحانه بينهن وبين اخوتهن فى مسئوليـــة الجهاد الدائب لاقامة المجتمع الصالح ، وذلك بقوله تعالى (والمؤمنـــون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٩ـ٧١) وضربت لهن أمثلة من امهات المؤمنين والتابعات لهن باحسان من الاجيال التاليـــة ..

رحم الله المودودى :

وأرى من الحق على ان اسجل بهذه المناسبة ما لمسته هنا فى كلية البنات ، وفى جامعة الفلاح التى اليها تعـود ، من نشاط مشكور فى خدمة الاسلام على المنهج نفسه الذى خطه المصلح العظيـم أبو الاعلى المودودى تغمده الله بوافر رحمته ، ولقد اصبحت على أتم القناعة بأن كل معونة تقدم الى هؤلاء الجنود المجهولين العاملين فى مؤسسات الجماعة الاسلامية ، سواء فى الهند او باكستان ، لا تقل أثرا فى ميزان الاحسان عن المشاركة الفعلية فى معركة يخوضها المؤمنون لاعلاء كلمة الله ٠٠ ان شاء الله ٠٠

ولكم يؤسفنا ونحن نواجه تلك الجهود المبرورة من أعمال هـــذه الجماعة أن نسمع عن شيوخ من ذوى الوزن الثقيل فى نطـــاق العامـة لا ينفكون عن وضع العقبات فى طريقها ، حتى ليحرضون عليها السلطات الحاكمة ، زاعمين أنها مسئولة عن اثارة الفتن الطائفية بين المسـلمين والوثنيين ! ٠٠ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ٠٠

جامعـــة الرشـــاد :

قبيل مغـرب ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ـ٢ـ١٤٠١ هـ ـ قفلنا عائدين من (بالرياكنج) وفى جامعة الرشاد فى أعظم كره أدركنا صلاة المغرب٠ ولم يتح لنـا أن نمكث هنا الا قليلا ، لذلك كانت معلوماتنا عن هـــذه المؤسسة محدودة ، فهى مدرسة عادية أجمل أبنيتها المسجد الذى هـو أول ما يواجه الداخل اليها ، وقد دعينا الى قاعة واسعة منها مـد لنا فيها بعض الملحات الهنـــدية الطيبة ، وهى خليط من الحمص والعـــدس مقليين ممزوجين بالملح والفلفل الحـــار ٠٠ وتبادلنا مع مديرها الفاضل الشيخ مجيب الله الندوى بعض الكلمات الاخوية والتوجيهية ٠٠ وبعض الابنية هنـــا لا تزال فى حالة الانشاء وهناك مطعم فـــرغ من بنائه نصفه تحت مستوى الفناء ، ويتسع لطلبتها المقيمين وعددهم ـ كمـــا اخبرونا ـ خمسة وسبعون ، والشيخ مجيب من خريجى ندوة العلماء ، وله بعض المؤلفات العلمية ، قدم الينا اثنين منها بالاوردية ٠٠

دار المصنفين العالمية :

وقـــرر الشيخ سعيد ان يكون مبيتنا هذه الليلة فى (دار المصنفين) بأعظم كره ، وهى فرصة تتيح لنا ان نعرف عن هذه الدار مالا يحســن بمفكر اسلامى ان يجهله ٠٠

ان دار المصنفين من أهم مراكز الثقافة الاسلاميـة فى الهنـــد ، بل لعلى لا أبالغ اذا قلت انها من أهم مراكز الثقافة فى العـــالم ، وهى من أجل ذلك تستحق ان يفرد لها كتاب بأسره ، فكيف لحلقة كهـــذه أن تقوم بتعريفها ! ٠ ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله ـ على رأى ابن المقفـــع ـ ٠٠

بسيط من الارض متسع وزع على أقســام وأبنية متعددة ، فهـذا المسجد الصغير الجميل أنشىء لاستيعاب موظفى الـــدار ، وبجواره المطبعـــة ، وهى مجموعة أجهـزة قديمة تطبع فيها مؤلفات علمائها الى جانب بعض كتب التراث ، وفيها تطبع كذلك مجلة الدار (معـــارف) التى لم تقف عن الصدور منذ نشأتها عـــام ١٩٦١ م وهى تحمـــل البحوث والتحقيقات التى يكتبها هؤلاء العلماء وغيرهم ٠٠

وفى الجـانب الاخر من أبنية الدار تنهض مضافاتها ، التى تستقبل أهـــل العلم القاصدين اليها من مختلف الارجاء ، وتتوسط هذه الابنية التى لم نشر الا لبعضها ، حديقتها الغنـاء التى تسر الناظرين ٠٠

على ان اهم ما تضمه هو مكتبتها الشهيرة المقصودة من الابعاد، وتتالف من عدة اقسام كبيرة مزودة بكل ما يعوز المؤلف والباحث ، وكثير هم الذين يؤمونها لتحضير البحوث العلمية والرسائل الجامعية فيجدون لدى قيميها كل العون الذى يبتغون ..

من ذخائرها النفيســـة :

ولقد طفنا على هذه الاقسام التى تستوقفك عند كل جـــزء من ذخارئها ، التى تبلغ الخمسة والعشرين الفا من الكتب بمختلف اللغات ، وذلك غير – أو مع – المخطوطات النادرة والنفيسة ، بينها واحد قيل لى انه يساوى – وربما عرض لشرائه – مئـــة الف روبية الى مجموعة من رسائل شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبـــال ، التى بعث بهـــا الى العلامة المرحوم سليمان الندوى ، وقد عرضت حكومة باكستان مئـــة الف مقابل الحصول عليها ..

وفى صدر احدى القاعات مكتب هذا العلامة الكبير لا يزال كمـــا تركه ، وقد بعثرت عليه الاوراق الى جانب المحابر والاقلام ، على الطريقة نفسها التى نشهدها على مكاتب كبار المفكرين الذين تضيق أوقاتهم عن اصلاح اوضاع مكاتبهم بل وامتعتهم ايضا .. وفوق هذه المبعثـــرات غطاء من القماش لا يرفع الا لمن شاء رؤيتها من الزائرين ..

وفى جانب آخـــر من المكتبة متحف يحتوى آثار كبـــار مؤسسى الدار ومؤلفيها ، كالنعمانى الشبلى والندوى سليمان ، وغيرهما ، وقـــد رفعت صورهم على جدران هذا المتحف ..

والقيمون على دار المصنفين مجموعة من أهل الفضـــل هم غـــاية فى الكياســـة والوقـــار ، عرفنا منهم مدير المكتبة الشيخ عبد البارى الذى وجدناه كتلة من النشاط الحى والخبرة الواســـعة بمحتوياتها ، وقد اخبرنا فضيلته ان هذه القاعة – التى فيها مكتب العلامة الندوى – قد طالما شهدت ثلاثى زعماء الحركة الاستقلالية فى الهند ، فهـــا هنا كان ملتقى غاندى ونهـــرو وابو المكارم ازاد ، وكانت مقر نهـــرو الدائم كلما قـــدم مدينة اعظم كره ..

مـــوارد الـــدار :

وتعتبر مطبوعات الـــدار اهم مصادر التمويل للقائمين عليهـــا من اداريين وموظفين . وتتلقى بعض المساعدات من حكومتى الهند وباكستان

.. وهى فى تقديرى حـــرية بمساعدة الحكومات التى يهمها امــر الثقافة الاسلامية فى الهند والعالم ..

وقد علمت أن راتب مديرها العام ـ الشيخ صباح الدين ـ قد بلغ الفا ومئة روبية بعد سنين طويلة من الخدمة ، بدأها بستين روبيــة ، أيام كان للروبية قوتها الشرائية المحترمة ، ومع ذلك فالراتب فى مراحله الاخيرة يعتبر اقل مما يستحقه مدير لا يقل مركزه عن مدير جامعــة ، مع العلم بأن راتب الموظف الجديد فى الدار قد اصبح مبدؤه اربعمئــة روبيــة ..

وتناولنا عشــاء طيبا هناك ، وصلينا عشــاء مباركا فى مسجد الـدار ، ثم أوينـا الى الغرفة التى عينت لنا فى مضافتها . وقضيت ليلة قلقة بسبب الارهاق ، حتى اذا قاربت الساعة الخامسة نهضنا لصــلاة الفجــر، ثم تناولنا بعض الطعام الذى أعـــد لنا ، ومن ثم اخـــذنا سبيلنا باتجاه بنارس ..

مدينــة العــلم :

وبعـــد فمن حق أعظم كره على زائرها الا يغفل منزلتها المعروفة فى هذا الجانب من الهند ، فهى التى انجبت قممـــا من رجال العـــلم محدثين ومؤرخين ومؤلفين ، كالشيخ معين الدين الندوى ، والشــيخ المبار كفورى صاحب تحفة الأحوذى على سنن الترمزى ، والعــلامة شبلى النعمانى ، وغيرهم ممن اثروا المكتبة الاسلامية بمصنفاتهم العالمية، فاذا نظرنا الى واقعها التعليمى واجهنا مالا يقل عن ثـــلاثين مؤسسة للمسلمين بينها كلية المبلى للدراسات العصرية ..

ويؤسفنا ان ظروفنا لم تتسع لزيارة هذه المؤسسات اللهم الا واحدة هى جامعة الرشــاد التى سبقت الاشارة اليها ، وحسب أعظم كره افخرا من الفخر ان تكون موطن دار المصنفين التى تعتبر واحدا من منطلقــات الاشعة ، ليس على مستوى الهنـــد وحدها بل على مستوى العالم الاسلامى بأســـره ..

مركـــز البـــوذية :

وفى الطريق الى بنارس تقع (ســارنات) التى تضم اكبر الهياكل الدينية لشيعة بوذا ، وفيها البنيــة الشامخة التى يقــال انها المكــان

الذى أحرق فيه جثمانه ، وبجواره عدد من المعابد التى تحمل طابع الفن الهندى الراقى ، وتجتمع كلها فى شارع لم نشهد حتى الان أجمل منه ٠٠

ويطفو هنـــا على سطح الذاكرة شىء من أخبار كمـال جنبلاط الزعيم الدرزى الذى كان أحد ضحايا الحـرب الاهلية اللبنانيـــة ، وفيها ما سمعت من أنه كان يقصد الى الهنـــد للاعتكاف فى أحد معابد البوذيين مدة معينة من كل عـــام ، على طريقة كهنتهم فى التأمل الطويل فتساءلت : ألا يمكن أن يكون فى هذه البقعة معتكفه المفضل ! ٠٠

وتذكرت هنا أيضا ما حدثنى به أحد الاخوة من أن فى هذه المنطقة مخلوقا من كهنة بوذا يقضى أيامه كلها عاريا لا يحجب شيئا من سوأته ، ولا يضن على عين برؤيته على هذه الحال ، حتى فى الشوارع العامة ٠٠ ولا عجب فذلك من البديهيات فى وسط تعرض فى بعض معابده صـــور العملية الجنسية فى سائر أطوارها وبكل تفصيلاتها ! ٠٠

وكنت قد قرأت من أخبار (مجانين) الصوفية ، فى الكتاب المنسوب لعبد الوهاب الشعرانى ، نبـــأ ذلك الولى الذى وفد على قريتهم ذات يوم متجردا من كل أثر للستر ، حتى لقدخطب فيهم الجمعة وهـــو على شأنه ذاك (ربى كما خلقتنى) فكانت فرصة ماتعة شحنتهم بأفانـــين السعادة ! ٠٠ فتساءلت : كذلك : أمن هنا ٠٠ من لفحـات البوذيين اذن تسربت الى صوفيينا هذه اللوثـــة الخبيثة ! ٠٠

وشمس جديدة أيضـــا :

وفى الساعة ٤٥ــ٦ أطلت شمس الهند تتسلق الفضاء ، وقد بدأت حمراء تتلهب كالحديدة الخارجة من الاتون ، ثم شرعت فى الابيضـــاض حتى لتعجز العين عن ملاحظتها ٠٠ فتذكرت المشهد نفسه الذى استشرفته فى كوبانغ من جزيرة تيمور بأندونيسية صبيحة أحد الايام من رمضان الماضى ٠٠ وهو منظر لم نعهده قط فى أى مكان خارج أندونيسية والهند ٠

ومن اروع منظر القرى المتناثرة على جانبى الطريق ، وهى تستحم بأشـــعة تلك الشمس المتوهجة كسبيكة الفضة المذوبة ، فكأنها غـــير القرى التى عبرنا بها ضحى الامس ! ٠٠ وتبارك الله الذى جعـــل من أعاجيب الجمال تغير المنظور الواحد مالا يحصى من المرات فى ضـــوء تحركات الشمس وهى تجرى فى رحلتها اليومية نحو الابعاد المقررة لها من قبل العزيز العليم ٠٠

معاهــــد ومستشفى :

عندما بلغنا أطراف (بنارس) قال الشيخ سـعيد نحن على مقــربة من جامعة (مظهر العلوم) وهى احدى المؤسسات الداخـلة فى برنامج الزيارات ، فلنبدأ بها الان نوفر بعض الوقت ٠ فلم أخـالف وتركت له أن يوجه السيارة الى حيث يشاء ٠٠ وكان أول ما واجهنا من أبنية هذه الجامعة مهجع الطلاب ، وهو قائم فـوق صف من الدكـاكين التى تملكها وتؤجرها ، وبعد قليل وقفت بنـا السيارة عند مجمـع الدراسة ، فاذا هناك ثلاثة أبنية أحدها للقسم الابتدائى ، والثـانى للثانوى والعـالى ، والثالث للاناث ٠٠

والابنية قديمة لا تتوافر فيها شروط الصحة ، ولا تتلاءم مـع التطورات الحديثة التى طرأت على أبنية المدارس والجامعات ٠٠ وليتهم يبيعونها ليقيموا بدلها المنشآت الحديثة فى الامكنة المناسبة ٠٠ بعيـدا عن قلب البلد ٠٠

وقـد فوجئت ادارة الجامعة بقدومنا ، اذ كان الموعد المضـروب لذلك هو العاشرة ضحى ، فقدمناه ساعتين ، وكان لا مندوحـة لنا عن ابداء العذر لهذا التغيير ، ابراء لذمة الاخوة فى الجامعـة السلفية ، الذين تولوا ابلاغهم الموعد الاول ٠ والظاهر انهم كانوا يعدون لاستقبال مرتب فغيرت المفاجأة خطتهم ٠ وهكذا مروا بنا على كل من الاقسام ، بما يكفى لتكوين فكرة مصغرة عن أوضاعها ، ومن ثم توجهوا بنا الى احدى القاعات من القسم العالى ، حيث أخذنا أمكنتنا فى وسط حشـد كبير من الطلبة والمدرسين ٠ ونهض أحدهم فألقى كلمة طيبة بلسان عربى مبين ، قبسـه من دراسته فى دار العلم بديوبند ، وقد تضمنت مع التحية الاخـوية بيانا ضافيا عن نشاط الجامعة وأقسامها ٠ والحق انها كثيرة وهامـة ، وبخاصة ما أشـار اليه من ان لها مستشفى يحتوى قـرابة الخمسين من الاسرة لقسمى الرجال والنساء ٠٠ مما أثار فينا الرغبـة فى مشاهدته ، وكان ذلك احدى فقرات الاستقبال الذى أرادوا تكرمتنا به، فما ان فرغنا من هذا الحفل ، حتى مضوا بنا الى ذلك المستشفى الـذى زاد على ما كنا نتوقع ٠٠ ففيه طائفة من فضلاء الاطبـاء والمرضين ، الذين يتولون معالجة مختلف الامراض ، ويقومون باجراء الجراحـات الكبيرة ، مستعينين لذلك بمجموعة من أحدث الاجهزة ٠٠

وحفــــل بالسـلفية :

ومن (مظهر العلوم) الى الجامعة السلفية ، التى أبت أن تغـادر

بنارس دون ان تجمعنا بمدرسيها وطلابها فى حفل أخوى ، كان صورة بارزة لمنزلتها العلمية ، ولنشاطها الكبير فى خدمة الاسلام ..

عقد الحفل فى قاعة واسعة معدة لمثل هذه المناسبات ، واتخذ كل من الاساتذة والطلاب امكنتهم فى نظام جميل ، وبكلمة بليغة افتتحه مدير الجامعة الاخ الشيخ أنيس الرحمن تحدث بها عن ذكرياته فى الجامعة الاسلامية التى تخرج فيها ، وخصنى ، أحسن الله جزاءه ، بجزء صالح من هذه الذكريات ، اذ عرض لانطباعاته عن دروسى ومحاضراتى وأثرها فى نفسه .. وهو الحديث الذى أتلقاه حيثما كنت من ديار الاسلام ، وسجلت صداه بالقصيدة التى كتبتها فى لكناو ، وفيهاأحمد الله على انعامه بهذا الخير الذى أقول فى وصفه

ولم أك شيئا فى الحياة فسقت لى   من الهدى والتوفيق ما شاد لى ذكرا

وها أنذا أنى اتجهت فواجد   صفيا يساقينى المودة والبرا

واعقب الشيخ أنيسا أخونا السعيد بكلمة موفقة خصنى كذلك منها بنفحات من الود لا أعرف السبيل الى مكافأتها .. ولما جاء دورى لم أجد خيرا من وصف الانطباعات الفكرية والروحية التى حصلت عليها بهذه الزيارات السعيدة لاخوة يجاهدون فى الله حق جهاده ، فهم فى الحقيقة جنود الاسلام المجهولون ، الذين لا يفى بمجهودهم شكر مثلى ولا ثناؤه ، لانه من النوع الذى لا يريدون عليه جزاء ولا شكورا ، بل يبذلونه لاعلاء كلمة الله وابتغاء رضوانه فحسبهم ما أعده لهم الله ..

وبالمامة موجزة وواضحة ذكرت الاخوة السلفيين بوسيلتهم المفضلة من الحكمة والموعظة الحسنة فى دعوتهم الى الحق الذى آمنوا به .. وبخاصة فى هذه الربوع التى عرفت منذ القديم بحساسيتها المذهبية . ولا جرم ان رأس الحكمة هنا هو معالجة النفوس بالكلمة الطيبة ، والجدال بالتى هى أحسن ، حتى يشعر المخالف أن محاورة أخ فى الله يحب له ما يحب لنفسه ، وأنه واياه متعاونان على طاعة الله ورسوله .. ففى ذلك نصف الطريق الى التفاهم ، والقضاء على اسباب العناد والخصومة ..

وتطرقت من هنا الى واجب السلفيين نحو الوسط الذى يعيشون فيه ، ولا يستطيعون تجاهله ومسئوليتهم بازائه .. فها هنا بحر متلاطم من الضائعين فى صحارى الوثنية ، لا بد من ايصال الدعوة اليهم بكل

الوسائل المتاحة · وفى طليعتها الاسوة الحسنة ، التى تجعل لكلمة الخير اثرهـا العملى العميق ·· واذا كان هذا واجبا بالنسبة الى الوثنيين ، فهو أكثر وجوبا بازاء المسلمين ، الذين تراهم من حولنـا متهـاونين بعزائم الاسـلام ، وضربت مثـلا لذلك بالسائق ـ عبد القدوس ـ الذى رافقنا خلال اليومين ، دون أن يصلى ـ معنا أو منفردا ـ وقتا واحدا ··

وطبيعى أن للايمـان قوته المحركة ، التى لا ترضى من صـاحبها بالانطواء على نفسه ، وهو يشهد الفساد يكتسح المجتمع الذى يحيط به · فالواجب على الداعى الحق أن يؤدى واجبه على مستوى الجماعات ، كما يؤديه فى قاعـة الدرس سـواء بسـواء ··

تنظيـم رائـع :

وكان من تمام الفائدة ان نمر على اقسام الجامعة السلفية قبـل فراقها ، وما أدرى أحدث ذاك قبل الحفل أم بعده · والحق انها لفائدة ممتعة تلك التى حصلنا عليها بهذه المناسبة ··

أما البناء فمن أتقن ما شهدناه فى المؤسسات التعليمية الاسلامية ، التى قدرت لنا زيارتها حتى الساعة ·· وهو على سعته وتعدد قاعاته يكاد يضيق بطلبته ومدرسيه وادارته ، فهم لذلك قائمون بالعمل لانشاء مجموعة اخرى من الابنية فى أرض يملكونها خارج هذه المنطقة القديمة ·

ولقد أنزلنا الاخوة فى مضافة الجامعة كما اسلفت ، فكان لكل منا ، نحن الثلاثة غرفته الخاصة مجهزة بأحسن الفرش ، ومبسوطة أرضها جميعا بالرخـام الزاهى ·· وفوق المضافة الفخمة تنهض مساكن الاساتذة وأسرهم ، ولا بد أن تكون على شاكلة المضافة من حيث التنظيم وتوفـير الحاجات الاساسية من المياه ساخنة وباردة ··

وطـاف بنا الاخ الشيخ انيس الرحمن على اقسام الجامعة واحدا فواحدا ، فرأينا ما ضاعف سرورنا ، ومن ذلك المطبعـة التى تشـغل ثلاث قاعات ويعمل فيها سبعة من ذوى الاختصاص ، وعليها تطبع مجلة الجامعة ، وبعض الكتب الاسلامية ، وهى من النوع الذى يعتبر راقيـا قبل الاجهزة الحديثة · وفى نية المسئولين ان يطوروها باسـتيراد بعض القطع المتقدمة ، لكن الحكومة لا تسمح بأى استيراد من الخارج الا على سبيل الهدية ، ولعلهم يوفقون الى ذلك ذات يوم ان شاء الله ··

محسـنون من الكـويت :

ثم وجدنا انفسنا امـام معمل طبى مجهز كذلك بأنواع المـواد واللوازم الخاصة به ·· ويقول الشيخ انيس انه أقيم ليكون مخـبرا تطبيقيا لكلية الطب التى اسسوها من قبل وقد بدؤوا التدريس فيها طوال عامين ، الا أنهم اضطروا الى وقفها ، لان الحكومة ترفض الموافقة على احداث كليات من هذا النوع الا عن طريقها · وهم الان ينتظرون الظروف المواتية للحصول على الترخيص اللازم لها ··

ويحدثنا الشيخ أنيس ان تجربتهم خلال السنتين علمتهم كيـف يبدؤون خطوتهم التالية فى منجاة من الخطأ الذى تعرضوا له فى الماضى· ذلك لان الجامعة قد اختارت طلاب الكلية الاربعين من ابنـاء المسلمين ، الذين يحملون الثانوية العامة ، واشترطت عليهم الالتزام بالصـفات الاسلامية ، الا أنهم أخلوا بتعهدهم ، ولم يقبل أى منهم على الصلاة مع وجود الكلية بجوار المسجد ! ·· وقد اقترحت عليهم اذا قرروا العـودة لافتتاح الكلية ، أن يحدثوا قبل ذلك فصـلا للثانوية العلمية يكون هو الرافـد الذى يمدها بحاجتها من الطلاب ··

وكان آخـر ما شهدناه من معالم كلية الطب المغلقة ذلـك اللوح الرخامى الملصق على واجهة المعمل ، وهو يحمل اسماء المتبرعين بتكاليفه من آل الوزان فى الكويت ، جزاهم الله كل خـير ، وأكثر من المحسنين امثالهم ، الذين يفطنون الى أن فى تشجيع العلم النافع أيا كان نوعـه احسانا لا يقل عن بنـاء المساجد وعمرانها ··

بين القــديم والجــديد :

رفى الجامعة السلفية ـ بنارس ـ لمسنا صورة التلاقى ـ ولا أقول التنازع ـ بين القديم والحديث فى طرائق التعليم ، فها هنا الاســلوب التقليدى ، الذى تلقيناه عن تراث الماضى ، فاستمر هــو المسيطر الى ما قبل نهاية القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو الذى ينتظم فيه الطلبة حول شيخهم فى نصف حلقة ، على مفارش تقيهم قسوة الارض ورطوبتها ·· وبين يدى كل منهم كراسته المتصلة بالدرس ، فيقرأ لهم ويشرح ما يقرأ وعليهم أن يسجلوا النقاط الرئيسية ، ثم يأتى دور الاستيضاح والمناقشة·

وفى فصول أخرى وجدنا الاسلوب الاخر ، الذى بدأ يفرض سلطانه على مؤسسات التعليم منذ أواخــر القرن الثالث عشر الهجرى ، حيــث يتخذ المدرس مقعده على مرتفع فى صدر الفصل ، وأمامه صــــفوف الطلبة على مقاعدهم ومناضدهم ، يتلقون ويكتبون ، ويتابعون ما تحمله لهم السبورة من أصول البحث ··

ولقد احتفظ كلا القسمين بمواريث الماضى ، حيث تجلل الجميــع غلالة مهيبة من السكينة والوقار ، اللذين يليقان بمجالس العلم فى ضوء الاســـلام ··

ويعتبر ادخال الاسلوب الحديث على طرائق التعليم ظاهرة جديدة بالنسبة الى معظم المؤسسات التعليمية عند مسلمى الهند ، وحتى الان لم نشاهد هذه الظاهرة الا فى دار العلوم ـ ندوة العلماء ـ بلكنــاو ، وفى هذه الجامعة ، ولا بد للمتأمل فى كــلا الاسوبين أن يتساءل : الى متى يستمر صمود القديم أمام ضغط الغزو الجديد ؟! ··

وفـــروع للســـلفية :

ومن السلفية الأم الى بعض فروعها فى الحى نفسه ، حيث اطلعنا على القسم الابتدائى ، واستبشرنا بمــا لاحظناه هناك من ظواهــر الخــير التى أطلت علينا من وجوه أولئك البراعم ، المتميزين بالنظافة والتهذيب ·

والتعليم فى هذا القسم يجمع بين الذكور والاناث ، ولكن دون اختلاط ، لان لكل من الفريقين مكانه الخاص ، والظاهر ان هذا هو المسلك المألوف فى مدارس المسلمين بالهند ، فقد شاهدنا مثـــل هذه الظاهرة فيما بعد لذى المدرسة الرحمانية فى بومباى ، حيث تنتظم صــفوف الصبيان فى المقدمة ، ومن ورائهم البنـــات · وقد أعجبنى منظر الاناث على هــذا الترتيب ، وعليهن الأزر التى يتدربن بها على استكمال الحجاب ، الذى لا ينفك مصونا وغالبا على مسلمات الهند ولله الحمد ··

ومن ثم انصرفنا الى متوسطة البنات ، التى هى آخر فروع السلفية فى هذه المنطقة ، ولم نر منها سوى مدخلها ، وهيكلها الخارجى وكلتا المدرستين تحتلان الجديد من البناء ، وتصوران حجم النشاط المشكور الذى ينهض به هؤلاء المسئولون الناجحون بفضل الله ..

ومع كوننا لم نتمكن من التحدث الى كل من اساتذة هذه المؤسسة على حدة ، ليكون حكمنا صحيحا على مستوياتهم العلمية ، فان فى الذين اجتمعنا بهم منهم ما يكفى لاعطاء الصورة المتكاملة عن سائرهم ، هذا الى ان فى سمتهم الوقور تعبيرا مبينا عن فضلهم .. ولا ننسى أن أحد هؤلاء المدرسين هو (وفى أحمد) ، الذى استحق جائزة رابطة العالم الاسلامى عن مؤلفه فى السيرة النبوية المطهرة ..

في متجر الامين العام :

ورأى الشيخ أنيس أن نختم جولتنا بزيارة الامين العام للمؤسسة الشيخ عبد الوحيد عبد الحق ، الذى سبق ان لقيناه اثناء الحفل وبعده ، فراقنا ما لجناه في محياه المشرق من بوادر الخير والصلاح ان شاء الله ..

ودخلنا متجر الشيخ ، المتخصص بتجارة السارى ، يصدره الى مختلف الانحاء ، وهذا المتجر أشبه بمعرض ذى حجرات عديدة ، يذكرنا بالمراكز التجارية الكبرى ، التى قرأنا أخبارها فى تاريخ العصور العباسية ، فالمستخدمون متوزعون أمكنتهم واختصاصاتهم على الزرابى المبثوثة في كل من هذه الحجرات ، فمنهم الكتاب وبين أيديهم السجلات والهواتف ، ومنهم العاملون فى تنضيد الاقمشة المختارة استعدادا لشحنها.

ولما هممنا بوداع الشيخ أبى الا ان يكرمنا بهدية من بضاعته على الرغم من اعتذارنا ، وأبى كذلك أن يقبل ثمنها الذى عرضناه عليه بالحاح ..

وكان بين الذين استقبلونا هنا ولد للشيخ وسيم ذو لحية جميلة وقد عرفنا به الاخوة على انه متخرج فى السلفية ، ويتابع دراسته في جامعة الهندوس فى بنارس ..

وقد علمنا فيما بعد اخبارا هامة عن هذه الجامعة ، فهى اكبر الجامعات في آسية ، وتحتوى على اصناف الكليات حتى الحربية ، وتملك ثلاث طائرات هيلو كبتر .. ويقارب عدد طلابها ثمانية آلاف ، نسبة

المسلمين فيهم لا تزيد عن الخمسة في المئة ، وفي انشطتها العملية التدريب العسكري على فنـــون القتـــال · وقد اسس هذه الجامعة تاجـر من كبار زعماء الهندوس واسمه (مـدن موهن مالويه) وهو الذى اسـبغ عليها الصفة الهندوسية ، ثم استمرت بهذا الاسم تحت سلطة الدولة ··

فـــرع ديوبنـــد :

بجوار الجامعة السلفية تقع الجامعة الاسلامية المتفرعة من دار العلوم بديو بند ، ولا يحسن بنـــا أن نغفل زيارتها ونحن على مقربة منها والظاهر انهم كانوا على علم بأمـــرنا ·· فاستقبلنا هناك بعض مشايخها ومعهم عـدد من الطلبة ، وطفنا معهم على بعض الفصول ، التى كانت مشغولة بالدروس ، على الاسلوب الموروث الذى أسلفنا الاشارة اليه ·· وقد وجدنا بين هؤلاء الاخوة من المدرسين شبابا ذوى حيوية ورحابـة صـــدر ، وفهمنا منهم ان مناهجهم الدراسية ، وهى مقتبسة من مناهج ديو بند ، قد داخلها التعديل ، فهى أقـــرب الى العصرية من اصـــلها الديو بندى · وكذلك علمنا منهم ان لمؤسستهم هذه مدرسة خاصة للبنات جـريا مع حاجة المسلمين التى بدأ تأمينها فى مختلف الحواضر ، وهى جميعا فيما أعلم محافظة على السمات الاسلامية ، فلا اختـلاط الا فى المرحلة الابتدائية على الوجـه الذى سبقت الاشـــارة اليه ، ولا صلة للرجال بمدارس البنـــات الا من وراء حجاب ·· ومرة اخرى نؤكـــد ما لمسناه من ان الحجاب الاسلامى أقوى ما يكون ظهـورا أو استقرارا لدى مسلمات الهند ·· ولله الحمد ··

دجـــال هندوسى :

وفى الطريق الى المطـــار مررنا بحانوت صغير فى حى السلفية، يجلس فى صـــدره رجل هندى متوســط السن وقد تجمع على بابـه عدد من النســوة بينهن بعض المسلمات ·· فوجه أحد الاخوة انتباهى الى هذا المنظر ثم جعـــل يقول : ان هذا أحد الهندوس ، وكل عمله هنا أ ن يبيع النســـاء خيوطا يطوقن بها معاصمهن ، أو وريقات يخط عليهن بعض الاشكال ، ليستعملنها فى عــلاج للامراض المستعصية ، او تحقيق الأمانى لا يرين سبيلا لتحقيقها الا من هذا الطريق ! ·· وسرعان ما ردنى هذا المشهد الى امثاله فى العديد من بلاد المسلمين ويا للاسـف ، حيث لا يزال كثيرون من ورثاء الخرافات يتخذون من هذا الدجل وســـيلة للارتزاق ·· ولا شك فى أن الكثـير من هذه الخزعبلات قد تسرب الى الشعوب الاسلامية من هذه البلاد · التى تعتبر أحد الروافد العالمية لهذا الضرب من المخدرات النفسية ··

ويرحم الله شيخنا السيد رشيد رضا اذ حدثنا فى أحد بحوثه عن ذلك الشيخ الذى سجلت تمائمه الرقم القياسى فى استخراج الشياطين ، وتزويج العوانس ، وانجاح المخفقين ، وشفاء المزمنين .. فأراد أن يستكشف أسرارها بالاطلاع على ما يكتبه فيها ، فاذا هو يقرأ هناك هذه العبارة ، التى تصور أقصى احتقاره وسخريته بهؤلاء المساكين : (رز بحليب كلما برد يطيب) ! ..

قصة قبرين :

وكان علينا ان نتعجل السفر الى دهلى لنقوم من هناك بتوجيه بقية الزيارات ، وبشرنا الاخ الشيخ أنيس بأنهم استطاعوا أن يؤمنوا لنا الحجز على الطائرة المقلعة عصر اليوم ، فانطلقنا مستبشرين ، وفى الطريق الى المطار مررنا بضريحين مكلسين ، يقبعان أمام واجهة أحد البيوت المبيض مثلهما ايضا .. وتساءلت فى نفسى عن السر فى افرادهما فى هذا المكان بعيدين عن منازل الموتى ، فاذا الشيخ عبد السلام أحد طلابنا القدامى يجيب عفويا على تساؤلى فيقول ان لهذين القبرين قصة طريفة ، ذلك ان صاحب هذا البيت كان موصوفا بالصلاح ، فلما توفاه الله دفنه ولداه فى أحد القبرين ، ثم راح أحدهما يتلقى صدقات العابرين به من مختلف الطوائف ، كشأنهم بازاء أى من القبور التى تجد من يعنى برعايتها ، يقينا منهم بآثار الموتى فى نطاق الاحسان والاساءة ، فما ان رأى أخوه ذلك النجاح الذى حققه الثانى حتى دبت الغيرة فى قلبه ، وجعل يطالبه بحقه فى ذلك المورد . ولكن هذا ابى الاستجابة له ، لان القبر مقابل شقته فهو أولى بمنفعته ، فما لبث أن أقام عليه الدعوى أمام أحد قضاة الهندوس - طبعا - الذى سرعان ما حكم له بأن يقيم قبرا ثانيا بازاء الاول يتولى هو سدانته وجبايته .. وهذا ما حدث بالفعل فقد بنى القبر الثانى ، وطلى كنظيره بالبياض الجذاب ، وبذلك حسم الخلاف ، اذ جعل الاخوان يتناوبان حراسة القبرين ويتلقيان عطايا المغفلين ، ثم يأخذ كل منهما حصته من هذه التجارة الرائجة ! ..

ومن خلال هذه الطرفة المؤسفة عثرت على التفسير الصحيح لوجود تلك القبور المكلسة الاخرى ، التى كنا نمر بها اثناء رحلاتنا البرية بين بعض المدن ، وقد أقيمت بعيدا عن مواطن الاحياء .. فأدركت أنها لم تنصب هنا وهناك الا لاصطياد الروبيات من أيدى المساكين والمضللين ..

بين المطـــار والسلفية :

من العسير أن تحصل على حجز فى طــائرة هندية ، والاعسر أن تحظى بموعد ثابت للحجز ، ومرد ذلك فى الايام العادية الى زحــــام المسافرين العائد الى كثـــافة السكان ، ثم الى تباعد أقطار البلاد الذى لا يجزىء فيه القطــار ولا السيارة ، فكيف ونحن اليوم فى غمرة التنقلات التى يقوم بها النصارى للاحتفال بأعيادهم ، والمتفرنجون برأس السنة٠٠ ومع ذلك فقد استطاع الاخ الشيخ أنيس الرحمن ان يحصل لنــا على حجــز مثبت للطيران الى دهلى ، فوجدنا هــذا توفيقا سارا فى غمرة هذا الزحــام يحسن بنــا أن نشــد عليه بقوة ، لذلك أسرعنا الى المطار قبل موعد الحضور بوقت غــير قصير ٠٠ وأبى الاخوة الفضــلاء الا مرافقتنا الى هناك ، وكان بين هؤلاء السادة ، غير اخــوة السلفية ، الشيخ نظــام الدين مندوب جامعــة الفــلاح ، ومن جامعة مظهر العلوم أمين عــام المستشفى الحاج عبد العزيز ، والدكتور خليل الله ، واثنان من مدرسيها همــا محمد أرشــد ومجيب الغفار ٠٠ وقد لبثوا معنا فى المطار أكثر من الساعة ، ثم فوجئنا بأن موعد الطائرة قد تغير ، فكــان علينا ان نودع هؤلاء الاخوة بأخلص الشــكر ٠٠ وتعــذر علينــا أن نقنع أحبــاب السلفية بالعودة بعد ان أصروا على البقاء حتى اللحظة الاخيرة ٠٠ وكأنهم كانوا على توقع لهذا التأخير ، فاستعدوا لذلك بالطعام اللازم ، واستعانوا بأحــد الموظفين من المسلمين الذى حصل لنا على المكان المناسب فى مطعم المطــار ٠٠

وتلاحقت الساعات بطيئة ثقيلة حتى بلغت السابعة مساء دون ان تظهر أى بادرة على امكان السفر ، وذلك بعد انقضاء ست ســاعات ونصف على الموعد المحدد ٠٠ فاضطررنا للعودة الى السلفية ، على ان نتصــــل من هناك بالموظف المسلم فى المطـــار نستوضحه ، فاما سفر بالطائرة ، واما عــودة بالقطـــار الى لكناو ، ومن هناك بالنفـــاثة الى دهلى ٠٠

وهكذا قضينا ايضا ليلة الثلاثاء ١٣ـ٢ فى الجامعــة التى أحببنا فيها كل شىء ٠٠

وصــدق الموظف المســـلم فاتصل بالجامعة هاتفيا ليبلغنا ان ثمة رحــلة جديدة قد هيئت بدل الملغــاة ، وسيكون الاقلاع فى تمــــام الواحدة بعد الظهر ، والامل كبير بأن يكون لنا فيها نصيب ان شاء الله ٠٠

واستأنفنا المسيرة الى المطار فى الوقت المناسب ٠٠ وأثناء الطريق التقينا سيارة شحن عسكرية تتقدمنا ، وعليها مجموعة من الجنود ، تلوح فى وجوههم البرونزية مظاهر الشراسة ، وعلمنا أنهم من الحرس الهندوسى المولعين بقتل المسلمين ، وبأيدى فريق منهم حدثت مجزرة مراد اباد التى ذهبت بآلاف المسلمين فى مصلى العيد كما أسلفنا ٠٠

ومرة أخرى ـ لا اذكر رقمها ـ نفاجأ بخبر تأخر الطائرة ٠٠ وتوقعنا ان يذهب الوقت على النحو الذى عانيناه فى الكذبات السابقة ٠٠ فوجدتنى أتساءل فى سرى : ليت شعرى أكان سائقو الحيوان فى ماضيات الازمان يمارسون الاخلاف فى مواعيد أسفارهم الى هذا الحد ؟ ٠٠ وما أظن ذلك ، لسبب بسيط هو ما كان لديهم من رصيد الحياء ٠٠ أما تادة الاسفار اليوم فقد فارقوا أخلاق الماضين ، ولم يفيدوا من مدنية الغرب سوى القشور ، الا من رحم الله ٠٠

ملتقى الخنافس العالميين :

وتضيق صدورنا بالانتظار المتكرر فى هذا المطار الذى لا تكاد ترى فيه منظرا يسرك ٠٠ وانى له ذلك وهو ـ كما يقول الشيخ سعيد ـ ملتقى الخنافس العالميين من مختلف الاقطار ، وفيه ينطلقون لفعل كل ما يطيب لهم حتى التحشيش ٠٠ ولم أكن قد رأيت شيئا من ذلك حتى وقع بصرى على فتاة تجلس على فخذ شاب ٠٠ ثم خرج هؤلاء الزعانف من البهو الى الاستراحة الداخلية فجعلت الفتيات يرقصن ويتقلبن على أكف أخدانهن ٠٠ وشاهدت بعضهن يقفن على رؤوسهن لدقائق طويلة ٠٠ والعجيب المؤسف ان بين هذه الخنازير صبايا فى عمر الزهر ، يدفعن الى هذه المزالق باسم الحرية المظلومة ! ٠٠ ومن أشكال الوجوه والأعين يبدو أنهن من الشعوب الصفراء يابانيين أو صينيين أو كوريين ٠٠ وقد شاركوا أشباههم من الغربيين فى رفض النظام الاجتماعى ، والتملص من سائر التقاليد الموروثة ! ٠٠

فاللهم احفظنا والمسلمين أجمعين من شر الشياطين ، وجنودهم من اليهود والصليبيين والملاحدة اجمعين ٠٠٠ آمين ٠٠

واخيرا ٠٠ وبعد ساعات ثلاث جاء الفرج ، ويسر الله فامتطينا البوينغ المتجهة الى دهلى ، وها نحن أولاء نحلق عاليا فى أمان الله ، والفضل فى تلك بعد الله الى الموظف المسلم الوحيد فى

ذلك المطـــار الهيبى ، واسمه س الانصـــارى ، جـزاه الله والاخـــوة الذين شاركونا عنـــاء الانتظار ، خير ما يجزى الله المحسنين الأخيار ٠٠

وكان على الطائرة أن تهبط أولا فى مطـــار (كاجوراهو) حيث قضينا ثلاثين دقيقة ، ريثما غادرها الســـواح والهيبيون ، الذين يقصدون الى هذا البلد لمشاهدة المعبد الهندوسى الكبير ، الذى ليس فيـــــه من المعـــالم الهامـــة ســـواه ٠٠

عنـــاق الزمنين ثم دهلى :

وقبيل اطلال الطائرة على أرباض دهلى أواجه لاول مرة فى حياتى مثل هذا المنظـــر الرائـــع ، منظر عناق الزمنين الليل والنهار ، أشهده من أعالى الفضاء ، وكانهما صديقان على أهبة الفراق ، وقد ألقى كـل منهما بظله على جانب من الافق الكبير ، فبقايا من النور آخـــذة فى التوارى ، وطليعة من الظلمة تشرع فى الانتشار ٠٠ فســـبحان مقلب الليـــل والنهـــار ! ٠٠

وهبطنا بعناية الله فى مطـــار دهلى ، وهناك لقينا الاخ أبا سحبان وحـــده بانتظارنا ، واول كلمة تلقيناها منه بعد التحية بشراه الجميلة بوصول الحقيبة التائهة ٠ وبمجرد خروجنا من نطاق المطـــار توجهنا الى المستودع الخاص بالخطوط البريطانية ٠٠ حيث عثرنا بها بعد جهد جهيد ، فاستللناها من بين الآلاف من الامتعة التى لا تزال تنتظر أصحابها٠

وذهب بنـــا أبو سحبان الى الفندق الذى سبقنا اليه ، وهـــو من النوع المتوسط ، نظيف مجهز بكل ما يعـــوز النزيل من أسباب الراحـــة دون اسراف ، وفيه تناولنا طعـــام العشاء على الطريقة الهندية الطيبة ، لحمـــا ومرقـــا وأرزا شـــهيا ، بيد انها مغمورة بالتوابل المبكية ، ثـــم خرجنا نتمشى ونتفرج ٠٠ ومررنا تحت جسر القطـــار بصف من الفقراء يفترشون الارصفة ، وعليهم الاغطية الرقيقة التى لا تدفع لسعة ذلـــك الليل القـــارس ٠٠

ومن طرائف مشاهداتنا هناك مخفر للشرطة بجواره حظيرة صغيرة تحتجز عددا من البقـــر المقدس ٠٠

وقضينا فى هذه المسيرة قرابة الساعة قفلنا بعدها الى الفندق ، لنأخذ قسطا من الراحة التى سلبنا اياها الانتظار القلق الطويل ٠٠

بومبـــاى لا بهـــوبال :

وكان فى رأس القائمة زيارة بهوبال ، بلد العلامة الشهير صديق خان القنوجى ، صاحب المؤلفات الكثيرة الماتعة ، ومركز السلطة التى سعدت بحكم زوجه العظيمة ردحا من الزمن ٠٠ رحمهما الله ٠٠ وفى بهوبال صديقان لنا من أفاضل المسلمين فى الهند ، همـا الشيخ محمد عمران خان ، الذى تولى عمادة دار العلوم فى نـدوة العلماء عدة سنوات ، ثم ولده الدكتور خان محمد عمران ، وكان مدرسا فى احدى الجامعات الحكومية ٠٠ وقد تعرفناهما فى النـدوة بلكناو ، وأكد الشيخ لنا دعوته لزيارة مدرسته هناك ٠٠ لذلك كان أول عمل للاخوين فى صبيحة اليوم التالى هو السعى لتثبيت الحجز فى طائرة بهوبال ٠٠ ولكن سرعان ما عادا خائبين ، لا خيبهما الله ، اذ لم تـدع جماهيـر السواح مكانا لراكب ، فلم يبق أمامنا سوى الانتظار الذى لا أمـل وراءه ٠٠ وظللنا فى المطار حتى انتهينا الى اليأس كليا ، فقررنا العدول عن زيارة ذلك البلد العزيز ، والابراق الى الشيخ بعذرنا الذى لن يرضيه بله أن يسره ٠٠ وهناك حولنا الحجز الى طائرة بومباى ، حيث نتخـذ منها مركزا للانطلاق الى بقية الامكنة المقررة فى كجرات وأرانك آباد ، سواء بالطائرة أو بالقطار لقربهما من بومباى ، بخلاف بهوبال ، التـى بعدت شقتها حتى ليتعذر الوصول اليها الا بعد أيام ٠٠

وصدق الوعـد هذه المرة ولله الحمـد ، فودعنا الاخ الحبيب الشيخ سعيدا الاعظمى ، الذى حانت عـودته الى لكناو ، واصلت مـع أبى سحبان سفرنا الى بومباى ، حيث هبطنا مطارهـا الكبير فى تمـام الساعة الحادية عشرة ، ومن ثم حملتنا سيارة أجـرة الى فنـدق (بومباى بالاس) الذى إختاره لنا السائق ، على أساس أنه من الفنادق التى ألف أن يحمل اليها الوافدين من العـرب ٠٠

وكان الطريق المزدوج ما بين المطـار والفندق طويلا ، ومنظما ، وقد اقيمت فى وسطه النصب الفنية ، تعرض فى أعلاها رسوم الازاهير والمشاهد التى تجمع بين البساطة والبراعة ٠٠ ونمر أثناءه ببعض الفنادق التى بلغت الذروة فى الفخامة والتنسيق ٠٠ على أن الطريق لم يخـل كذلك من بعض المشاهد المضادة ، وهى بارزة فى عـدد غير قليل من الاكـواخ الحقيرة المهينة تنتشر هنا وهناك ، وأخص بالذكر منها تلك التى نصبت على الرصيف المجاور لاحدى الشركات ، وكل منها عبارة عن ستار بـال يقارب طوله المترين فى عرض مثله ، وقد ثبت على الجدار

ببعض الاربطة ، ومــد طرفه الآخر الى حـافة الرصيف ، وأرخى على جانبيه ستاران آخران يدخل من أحدهما اليه ·· ولقد رأيت احـــدى النســـاء تغسل الامتعة وأخرى تعالج قدرا على النار بازاء أحد هذه الاكـــواخ ، فايقنت انها منازل أسر لا أفراد ! ··

ولا شك ان فى وجــود هذه الجحور التعيسة بجوار احدى الشركات التجارية ، لصورة مميزة للتناقض العجيب الماثل فى هذا المجتمع الهندى الغـــريب ··

البدعيون فى كل مكـــان :

كان من حق دهلى على ان أعرض لشأنها قبل الانتقال الى بومباى ولكن لدهلى معنا أكثر من حديث ، لان زيارتنا لها تكررت اربع مرات ٠٠ آخـرها يوم عودتنا من (النـــدوة العالمية للادب الاسلامى) التى عقدت فى نـــدوة العلماء بلكناو فى أواسط جمادى الآخر ٠٠ وكان أهم هـــذه الزورات الاربع تلك التى أتاحت لنا ان نرى من معالمها الاثرية والمتصلة بتاريخ الاسلام فى الهند ، ما لم يتيسر لنا من قبل ٠٠ ولهذا قررت أن أرجىء حديثى عنها الى موضعه المفضل ، عند الكلام على تلك النـــدوة المباركـــة ٠٠

أما الآن فسأتم حـــديثى عن هذه الطائفة الناشزة فى صـــفوف الامـــة الاســـلامية ، والتى سبقت الاشـــارة اليهـــا عند الكـــلام على مؤلف العلامة الشيخ محمد منظور النعمانى (دعايات مكثفة ٠٠٠) أنهم حمـــاة البـــدع والخرافات الذين نصطدم بهم أنى اتجهنا من بـــلاد الاســـلام ، وان اختلفت القابهم ونعوتهم بين مكان وآخـــر ٠ وقـــد عرفوا فى شـــبه القـــارة الهندية باسم البريلويين نســـبة الى (بريلى) الواقعة فى غـــرب الولاية الشمالية - أوترا براديش - واليها ينسب مؤسس هذه النحـــلة (محمد رضـــا) البريلوى ٠٠ ويكاد لا يختلف عن طواغيت البـــدع والخـــرافات الاخرين ، الذين يسيطـــرون على جماهير المخرفين فى البلاد الاسلامية الاخرى ، اللهم الا فى نطاق المصادر التى يستمد منها كل منهم ، فاذا كان جمهور الباطنيين يرجعون فى نحلهم الى اليهودية والمجوســـية ، واذا كان غـــلاة المتصـــوفة ، فى كل مكان من ديـــار الاســـلام ، يلقحون مذاهبهم برواسب الوثنيـــات المحليـــة والفسلسفات الاغريقية ، مع اشتراك الجميع فى المؤثرات الهندية ، فـــان البريلوية هذه تكـــاد تجمع فى كيانهـــا كل هذه الروافد ، التى تجعـــل منها عـــدوة لكل اتجـــاه ملتزم لحقائق الاســـلام كما أنزله الله ٠٠

من قصص البريلويين :

والى القـــارىء نماذج من ضلالات هذه النحـــلة

يوم الخميس من كل اســـبوع هو عند البريلويين موعد اجتمـــاع الارواح ، ففيه تحتشد مهارجهم الصاخبة حول القبور التى يؤثرونهـــا ، فلا يزالون يغنون ويشربون ويطعمون حتى يأخذهم الرهق فينفضـــون ٠٠ والمستفيد الوحيد من هذه الأحفال هو سادن القبر الذى يهيء لهم الجو المناسب ليتلقى منهم الهدايا المناسبة ٠٠

والخميس الاول من رجب الفرد هـــو موعد الاجتماع الاكبر لهاتيك الارواح ، لذلك تتهافت حشودهم من كل حدب وصـــوب على ساحة القبر الاثير ، فى ذاك اليوم من كل عـــام ، فيكون الاختلاط على أتمـــه بين الجنسين ، حتى ليتعرض الهواء للتلوث ··

ولشهر المحـــرم عند هذه الطائفة المركز الممتاز بالنسبة لايام السنة كلها ففيه تتبارى أحياء البريلويين فى الاحتفال بمواسمه احياء لذكرى شـــهيد كربـــلاء رضى الله عنه · وتمتد هذه المجهرجانات على مـــدى الشهر كله · وفى الموعد المقرر يخـــرج كل حى بموكبـــه · يتقدمه نعش فارغ يرمـــز الى الشـــهيد ، حتى اذا انتهوا الى القبر المعـــد لدفنه ، فصلوا الرأس الرمزى وواروه التراب فى غمرة من الضجيج المفتعـــل ويطلقون على ذلك الموضع اسم (كـــربلاء) ··

ومن هنـــا نرى ان البريلويين اكثر اهتماما بعاشـــوراء من سائر طوائف الشـــيعة ، فبينما يقتصر احتفال هؤلاء على جزء محدود مـــن المحـــرم فى حسينياتهم ، تجد هؤلاء يواصلون أحفالهم من مطلع الشهر حتى نهايته ··

ومن طـــرائف هذا التناقض بين الفريقين أن الاختلاف قـــد دب خلالهما ذات يوم لأمـــر يتعلق بهذه الاحتفالات ، حتى رفعوا قضيتهم الى القضـــاء ، الذى قضى للبرلويين على الشـــيعة ، وقـــد استند فى حكمه ذاك الى كـــون البرلويين أشـــد اهتماما بهذه المناسبة ! ··

وتبلغ هذه الاحتفالات ذورتها فى العاشر من المحـــرم والعشرين من صـــفر التالى ·· وتسجل أكبر وقائعها فى مدينة بنارس ، حاضـــرة الوثنيـــة وأشهر مواطنها فى الهنـــد ··

نمـــاذج من ترهـــاتهم :

وقـــد أسلفت الاشـــارة الى كراهية البريلويين لأهل الحق ولسائر المخالفين لهم ، حتى بـــات معروفا عنهم أنهم يغسلون مساجدهم اذا دخلها احد المخالفين لاهوائهم · ولقـــد كان بين العشرة الذين ابتعثهم ذو الفقار بهوتو ـ ايام حكمه ـ الى الجامعة الاســـلامية لتدريبهم على التدريس ، احـــد هؤلاء المضللين ، فكان لا يدخل المسجد النبوى فى المدينة الا بعد صلاة الجماعة ، لانه لا يستجيز الصلاة خلف امام من غيرهم ··

وحدثني أحد الابناء ، من الذين انتدبتهم الجامعة الاسلامية للتدريس في الهند ، أن حوارا جرى بينه وبين بعض مشايخهم . فكان مما احتج به هذا البريلوى لمذهبه في عبادة القبور استشهاده بالآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ـ ٦٠ـ١٣) ، وقوله في تفسيرها : لقد نفيتم أثر الموتى من الاولياء في حياة الناس وبذلك خرجتم من الايمان الى الكفر ! .. ولو أوتى هذا المسكين مسكة من الفهم الصحيح لعلم أن الله عز اسمه يخبر بهذا البيان الآلهى عن منكرى البعث بأنهم يائسون من العودة الى الحياة بعد الموت .. فلا أمل لهم بلقاء ربهم ، وبالتالى لا يتصورون بعثا للخلق ولا نشورا ..

ومثل هذا تفسيره لقوله تعالى (قل انما أنا بشر) اذ يزعم أن (ما) نافية فيكون المعنى عنده نفى البشرية عن رسول الله ! ..

وهى نفسها خطة المعاندين للحق من غلاة المتصوفة والباطنية ، الذين ألغوا عمل العقل ، وانساقوا خلف المضللين ، الذين رسخوا في قلوبهم أن الدين حقيقة وشريعة ، فالحقيقة وقف عليهم وحدهم ، أما الشريعة فهى من حظوظ العوام فقط ! ..

وما أحكم قول أبى العلاء في المخدوعين بأمثال هؤلاء

أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بهاجمع الحطامفأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

وهؤلاء السيك :

وقديما قيل (شبيه الشيء منجذب اليه) والحديث عن البريلويين متصل بكل ذى بدعة من أهل النحل ، وأقربهم الى مرزئياتى في الهند أولئك الذين يعرفون باسم السيك ، واكثر ما رايت هؤلاء في دهلى وبومباى ، ويمتازون على سائر طوائف الهند بأجسامهم السامقة المتينة ، وبسماتهم البارزة الوسامة ، وتلحظ القسوة والنشاط في كل تحركاتهم .. ومن التقاليد التى لا تفارقهم اعفاؤهم شعورهم مطلقة ، فاما رؤوسهم فيعالجون شعرها بنوع من العمائم الخاصةلا تلتزم لونا معينا ، يجمعونه في داخلها ، ويتأنقون في ادارتها وصنعها ، وهى تختلف عن عمائم المسلمين التى تتخذ شكل التكوير ، بكونها مستطيلة ، وينتهى طرفاها الامامى والخلفى ببعض الارتفاع .. ولهم في معالجة لحاهم أسلوب خاص ، اذ يلبدونها ، ويشدونها الى رؤوسهم غالبا بقطعة من النسيج الشفاف تحول دون انطلاقها ..

حتى أطفالهم ينشئونهم على هـــذا التقليـــد ، فهم كشيرخهم يجمعون شعورهم تحت قلنسوة مصغرة من النــوع نفسه ، فـلا يلمح الناظر اليهم اثرا من ذلك الشعر ..

وربما نظرت الى الأشيب فيهم ، وقد تقدمت به السن ، واسترسلت لحيته دون ضابط ، فتحسبه من شـيوخ المسلمين .. وهو من أعـرقهم فى الســيكية ..

على أننى لاحظت تطورا قد بدأ يتغلغل الى شبابهم ، فيخفف مـن غلوائهم فى هذا الجانب من عاداتهم العنيفة .. اذ يخرقونها فيحلقـون لحـاهم ، الا أنهم يظلون متشبثين بجمتهم المضغوطة تحت العمـة التقليدية ..

وكثيرا ما ترى رجـالا منهم على اتم ما يكون الســيكى من مظاهره التقليدية ، لحيـة وعمـة وحسن سمت ، والى جانبه زوجته (المودرن) على أحـدث طـرز الغـرب ! .. وليسوا قليلين أولئك الشباب الذين يجمعون بين الاشكال التقليدية هذه ، وبين ظواهر الميوعة ، التى تترجم عن نفسها بالاسـاور حول المعاصم ، والقلائد تتدلى على النحور .. وهم يأكلون اللحم من الخنزير والبقـر وغيرهما ، ولا يذبحون الحيوان بـل يخنقونه .. ومهما يكن فى تصرفهم هذا من سوء فهو أقل قسـوة من عمل نصـارى الفلبين ، الذين وصفوا لى بأنهم يعالجون ضحيتهم من الخنـازير بادخال عصـا فى مؤخرها حتى تخرج من فمها ، ولا يزالون بها كذلك حتى تخمد انفاسها ! ..

ومعلوم أن السيك طائفة منشقة عن الهندوسية ، بدأ تاليفها أيام حكم المغول ، على يد رجل اسمه (جرونك) كان يحـاول التقريب بـين الاديان ، كما صنع بعده طواغيت البهائية ، الذين اخترخوا لاتباعهم نحلة يحاولون أن يحولوا اليها سائر الملل ..

وقد أخذ (جرونانك) هذا شيئا من كل دين واجهه فى محيطـه ، وقدم هذه الخليطة للمخدوعين به على أنها سفينة الخلاص . ومما أخـذه عن الاسلام مبدأ التوحيد .. فالسيكى لا يعرف تعـدد الآلهة ، وقد اقـر برسـالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويروى عنه أنه حج الى بيت الله ، وعاد الى الهند يتابع محاولته فى التقريب بين اتباع الاديان ، بل يقـال انه عاد ليحاول نقل اتباعه الى الاسلام الحق ، ولكن الاجل أدركه قبـل تحقيق امنيته ..

بيــد أن هذه الطائفة ، التى بدات نشأتها على اســــاس دينى يستهدف التآليف بين الناس ، سرعان ما انقلبت بعد مؤسسها الى منظمة سياسية عسكرية ، لقى منها المسلمون الامرين ، وفى عهــد السلطان الصالح أورنك زيب كان لها دورها الكبير فى مقاتلة المسلمين ، خــلال حروب استمرت ربع قرن ٠٠ ثم استأنفت عداءها للمسلمين عقيب قيــام باكستان ، حيث شاركت فى معظم المذابح التى تعرض لها مهاجروهم ٠٠

وقد قيل لى ان نظرة هذه الطائفة الى المسلمين قد تغيرت مؤخــرا ، فهم اليوم نادمون على ما اقترفوا بحقهم من ضروب العدوان ٠٠

وأخــيرا لعل القــارىء يحب أن يقف على بعض التعليل لخصائص هؤلاء القــوم ، التى بها يمتازون على ســائر طوائف الهنــد ، من حيث امتداد القامة ، ومتانة البنيـــة ، ووفور القــوة والشجاعة والوسامة ٠٠ والذى تحصل لدى من ذلك أن مــرد هذا كــله الى أصولهم المتحــدرة من شــعوب البنجاب المعروفين ، مــع جيرانهم من الباتــان ، بكــل هــذه الصــفات ٠٠

وربك يخلق ما يشاء ويختــار ٠٠

قناعـــة يقابلهـــا جشـــع :

حتى القطـار فى بومباى يتعـذر عليك تامين ســـفرك بـه الا اذا بادرت الى طلب الحجز قبل ايام ، ومع ذلك فقد يســر الله لنا الحصول على تذكرتى مقعدين من الدرجـــة الاولى بمساعدة الشيخ محمد عمر ، مدير المدرسة الرحمانية وصديق أبى سحبان ، وبات علينا أن نتهيأ للرحلة الى كجـرات لزيارة بعض المؤسسات التعليمية التى تنتظرنا فى ضواحى (سورت) ٠٠ وأبى هـذا الصديق الا أن ننقل أمتعتنا الى مضـــافة مدرسته ، لتعذر بقائها فى الفندق ٠ وتناولنا أول غداء فى مطعم مجاور للمدرسة يعج بالوردين ، وصاحبه مسلم من الدارسين فى معاهد الندوة، ويقال ان سائر المطاعم فى بومباى هى فى أيدى المسلمين ، وكذلك معظم الفنـــادق ٠

وقد رتبت لنا مائدة حوت ستة أصناف من اللحم والبيض وغيرهما، الى جانب التوابل التى لا مندوحـة عنها فى كل مائدة ٠٠ وتناولنا طعامنا بشهية ، وزاد لنا الخبز أكثر من مــرة ٠٠ ومن حق هذا الخـــبز أن أسجل له امتيازه ، فهو من خالص البر ، يصنع فى المنزل وفى المطعم ، ويشوى فى مقلاة صغيرة وقد يمزج ببعض السمن أو الزيوت النباتية ، مما لم نجد مثله فى أى بـلد زرناه خارج الهند ٠ ومع كل هذه الاصناف لم يبلغ ما دفعناه ثمنا لها عشرين روبية ، أى ثمانية اريلة ٠٠

وثمـة مطعم آخـر يملكه احد رجال التبليغ فى هذا البلد ، ولا يكاد يجد الوافد عليه مكانا الا بعد الانتظار ، لبثنا نتردد عليـه طوال أيامنـا فى بومباى لاعتداله فى استعمال التوابل ، ولا أذكر أنه تقاضانا ثمـن الوجبـة أكثر من زميله الآخـر ٠٠ ولكن هذا الرخص يغيب تماما فى الفنادق والمطارات والاستراحات السياحية ٠٠ ولأضرب لذلك مثلا صغيرا، هو أن أفطارا بسيطا تناولناه فى الفندق قد أدينا ثمنه أضـــعاف ثمن الغـــداء فى هذين المطعمين ، على حين لا تبلغ محتوياته ربع المقـــادير المقدمة فيهما ٠٠ وهو وضع عـام يشمل ســائر بلاد العالم ، ولا مسوغ لـه الا الجشــع الذى لا يروى ٠٠

ظهـر الفســاد فى البر والبحـر :

ولعل مما يتصل بهذا الجانب من طبائع الناس الحـــادث الذى فوجئت به وانا ارتب أمتعتى استعدادا للسفر الى كجرات ، فقـــد رأيت أن أشـد حقيبتى العائدة من الضـــياع برباط يحفظها من التبعثر ، ولم

أجد لذلك سوى حزام الحقيبة الاخرى التى اشتريت لى من لكناو ، وهو مصنوع من جلد الجاموس ، فلففته حولها ، ولكنى لم أكد أضغط عليه قليلا حتى انقطع ، ولما فتشت عن السبب تبين لى انه الغش لان الحزام مؤلف من عدة قطع موصلة ، وقد لصقت بالغراء ، وكأنما صنعت كذلك لمجرد الزينة فهى لا تحتمل شدا ولا ضغطا ! ..

ويذكرنى هذا الحزام المغشوش بأخ له فى المواطنة وفى البواعث ، وذلك أن صديقين من موظفى الجامعة الاسلامية كلفا أخا لهما مسافرا الى الهند أن يأتيهما بمقدار من العود الجيد ، ولما عاد قدم اليهما ما أوصياه عليه ، وهو يصفه بأنه لقطة نادرة ، حصل عليها من بائع فى بومباى كان ضنينا بها على غيره ، وانما آثره بها حبا بالمدينة المنورة ، التى ينتسب اليها .. ولكن اللقطة النادرة سرعان ما تكشفت عن قطعة لا تكاد تختلف عن أى قطعة من الحطب العادى ..

فسبحان الله القائل فى محكم كتابه المجيد (ظهر الفساد فى البر والبحر ..)

واستجاب لكلمة الحق :

ولاحظت أثناء خروجى من مطعم ذلك المبلغ أن فوق راسه لوح زينة كتب عليه بالحرف العربى (يا محمد) بازاء لوح آخر كتب عليه (يا الله) فوجدت لزاما على أن أنبهه الى هذا الامر عسى أن ينفعه الله فيراجعه ، وقد وفق سبحانه فلم أغادر المطعم حتى أقنعت الرجل بازالة حرف الاستغاثة من جانب اسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو جد راض عن ملاحظتى ولله الحمد . وما أكثر ما نشاهد مثل ذلك حتى فى طيبة المباركة ، حيث رأيت ذات يوم شاحنة كتب على مؤخرتها (مدد يا على) .

ولقد تساءلت فى نفسى : لو كان هذا الرجل من أشياع قبور القطم والحسين والسيدة زينب والرفاعى وابن عربى والاربعين والمغربى و .. أكان مستجيبا لدعوتى بمثل هذه السهولة ! .. هيهات .. الا أن يكون من السذج الذين يقبلون على هذه الحماقات دون انتباه ولا تعمد ، فسرعان ما يتحرر من أوزارها عندما يواجه الداعى الذى يحسن مخاطبة قلبه بالحكمة والموعظة الحسنة . ولكن المصيبة فى أولئك الذين عجنوا بهذه الاوزار ، وقلوا بها قليا ، فهى سارية فى دمائهم لا تقبل الفصل .. وكم رأينا من هؤلاء من يدخل المسجد النبوى وهو يصيح

متحديا أهل التوحيد (مدد يا رسول الله مدد ٠٠) ولو رحت تذكـره بقول ربـه (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا – ٧٢ – ١٨) لأصم أذنيه ، ولقلب استهزاء بك شفتيه ! ٠٠

الســـارى الشــيطانى :

والمتجول فى حواضر الهند لا بد ان تصدمه لاول وهـلة ظاهـرة السارى ، الذى لم يألف رؤيته من قبل ٠٠ وأذكر هنـا اننا كنـا فى الطريق ، من مطـار بنارس الى الجامعـة السفلية ، عندما سـمعت الشيخ انيس الرحمن يترنم بهذه الكلمات :

لا شـك ان السارى لبوس أهـل النـار
من كل غـر جـارى على خطى الفجـار
غـو كاس عـارى مسـربل بالعـار

فاذا هى تخض ذاكرتى فأتصور أنها ليست غريبة عن سمعى على الاقل ، ولكن ٠٠ اين ٠٠ ومتى ٠٠ ومن قائلها ؟ ٠٠ ولم أهتـد لشىء من هذا حتى اكد لى الشيخ انيس أنهـا من كـلام لى أرسلته عفويا قبـل سنتين فى مدراس ، أثنـاء رحلتنا الى الفلبين ، فحفظها رفيقى د ٠ عبد الرحيم ونسيتها انا ! ٠٠ وكـانت أحق بأن تذهب مـع الريح ، كما ذهب الكثير غيرها ، لولا أن حفظها ذلك الزميـل فى مدراس ونقلها الى بنارس ٠٠ ومن يدرى فقـد تكون اليـوم من محفوظات الكثيرين غير الاخ انيس فى الهند وغيرها ٠٠

وليسمح لى القارىء أن أعرض لخياله صورة موجـزة لذلك السارى الشيطانى ، الذى لا تفسير لانتشاره فى هذه الديار الا عن طريق النظرة الوثنية الى المرأة ، على اعتبارها محـلا للمتعـة والتناسل ، كما تعرضها المعابد الهندية نفسها ٠٠

انه نسيج من الحرير الاصيل ترتديه الوثنية بطريقـة خاصـة فوق ثيابها التحتية ، التى تتألف من قسمين ينتهى أسـفل أعلاهما فوق السرة ، ويبـدأ الأعلى ثانيهما من تحتهـا ، ويبقى ما بينهما عـاريا ، ليس بينه وبين السواتين الا ما يقارب الشبر ٠٠

وهذا الزى من أهم الالبسة وأفخمها لديهم ، ومع صـعوبة انضباطه على الجسم ، بما يقتضيه من توزيع على اجزائه ، حتى يكون كالوشاح

الذى شاع استعماله فى الاندلس قبيل سقوطها ، مع ذلك فهو الطراز القومى الذى تستوى فى ارتدائه الصبية الغانية والعجوز الفانية ٠٠ وحتى المضيفة فى الطائرة ، التى هى أحوج ما تكون الى الثوب الرشيق الذى لا يعوق حركتها ، تراها ملفوفة به ذاهبة آيبة ، وكأنه مثبت على جسدها بمشابك أو بغراء ٠٠

والمؤسف أن يتسرب هذا اللباس الابليسى الى بعض المسلمات ، فلا يكتفين بارتدائه فى البيوت ، بل يخرجن به الى الاسواق والمحافل العامة ٠٠ وقد شاهدت فى الفندق الذى نزلت فيه مع الاخ الدكتور ف ٠ عبد الرحيم من مدراس ، كوكبة من هؤلاء النسوة وقد قدمن لحضور حفلة زواج هناك وعليهن هذا السارى ٠٠ بل لقد شهدت بعض هذا فى المدينة المنورة ، اذ قدمت مع قرينتى الى بيت مهندس هندى مسلم كان على وشك سفر ، وهو يريد بيع أثاثه ، فاستقبلنا مع زوجته ، وجعلا يرياننا معروضاتهما ٠٠ والغريب أن هذه المرأة أثناء ئذ كانت مستورة الرأس ، مكشوفة البطن على طريقة الوثنيات تماما ٠٠

بين الأصالة والتقليد :

على أن من الانصاف للمرأة المسلمة فى الهند أن نؤكد ما سبق ذكره من أنها لا تزال ـ كأختها الماليزية ـ أشد نساء المسلمين حفاظا على الحجاب ٠٠ وقد ثبت لى هذا من خلال تجوالى فى العديد من حواضر هذه القارة ٠٠ فانت حيثما اتجهت من أوساط المسلمين هناك رأيت الحجاب مع النقاب كأتم ما يكون ٠٠ أضف الى ذلك أنها قليلة الخروج من المنزل الا لضرورة ٠٠ وقد أكد لى الاخوة فى كل من تلك الحواضر أن السواد الاعظم من المسلمات هن المحافظات على ذلك الامتياز ، وقليل منهن اللواتى جرفهن تيار التقليد ٠٠ ولا جرم أن طابع المحافظة السائد فى المجتمعات الاسلامية بالهند هو الذى يفرض اتجاهه العام فى هذا المضمار ٠٠ وفى ظنى أن هذا الطابع سيستمر طويلا فى هذه البلاد ، ما دام هناك شعور بالذاتية الاسلامية وما دام التعليم الاسلامى والنشاط الثقافى الاسلامى موفورين للمسلمين على النحو الذى لمسناه ٠٠

ويبقى أن نذكر القارىء بما سبقت الاشارة اليه من التفاوت الكبير بين تماسك المرأة المسلمة فى الهند أمام الاغراآت ، وضعف

اختهـا في أندونيسية ، حيث تمكن الغـزو الغـربي من ضعضعـة الحجاب الاسلامي ، الى حد اختفائه في كل الحواضر التى زرناها، الا النزر اليسير ٠ حتى أصبح السفور والتكشف هما الغالبين ، بل يكادان أن يكونا هما الوضع الاصيل ، والحجاب ـ دون نقاب طبعا ـ هـو الغـريب الدخيـل ! ٠٠

ولعلي أوضحت رأيي بهذا التفاوت في ما سبق من حلقات ، فان لاختلاف ظروف البيئتين اثره العميق في ذلك ، فشعور المسلمين بقلتهم في الهنـد يدفعهم الى الاستمساك بمقوماتهم فـلا يذوبون في ما حولهم من الاجناس، يقابل ذلك أن اعتزاز مسلمي أندونيسيةبكونهم العنصر الغالب والسائد يقودهم الى التهـاون في كثير من الشئون المتصـلة بعوامل التميز الاسـلامي ٠٠ هذا فضـلا عن امتياز مسلمي الهند بسبقهم للكثير من أقطـار العـالم الاسـلامي في نطـاق العلوم الاسلامية والعربية على مـر القرون ، مما أدى الى تعميق عناصر الشخصية المسلمة في سـائر مسـالك الحياة ، وجعـل الخروج عن الصـورة الاسـلامية ضربا من المغامرة لا يقـدم عليها الا من انسلخ من الولاء لدينـه ومجتمعـه كما فعل عبد الكريم تشاكلا ، الذى كان وزير التعليم في حكمة الهند ومن كبار المحامين والقضـاة ، اذ أوصى باحـراق جثته فأحـرقت وفق التقاليد الهندوسية ، وكما صـنع معاصره التركي عصمة اينونو ، الذى أوصى بأن لا يصلى على جثمانه ٠٠ فذهب ولسان الحال يردد فيهما :

مازاد (حنون) في الاسلام خردلة ولا النصارى لهم شغل بحنون

من روائـــع بومبـــاى :

الاربعاء ٢٤ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

لم يزل أمامنا جزء غير قليل من النهار قبل سفرنا الى ولاية كجرات ، وقد رأى الاخوان أبو سحبان ومحمد عمر ، أن نفيد منه فى الاطلاع على معالم بومباى ، احدى عواصم الدنيـا ، وذات الملايين الثمانية والنصف من السكان ٠٠ وهكذا كانت أمسية رائعـة ، لو غادرنا هذا البلد بدونها لما علمنا عنه أكثر من الشارع الممتد مابين المدرسة الرحمانية والمطعم الذى استرحنا اليـه ٠٠

ومما يسر لنا تلك المتعـة لقاؤنا ذلك السائق الفاضـل من جماعة التبليغ ، الذى أغنانا عن العـديد من الادلاء ، والكثـير من المصـورات ٠٠

لقد مر بنا الاخ اسماعيل هذا على الروائـع من أسواق وساحات بومباى ، ولم يدع منها موضعا يروق النظر ويثير الفكر ، الا وقف أمامه ينفحنا بمعلوماته الدقيقة عنه ٠٠

وبدأت مسيرتنا أصيل اليوم ، فكان أول المعالم التى لفت اليهـا انتباهنا تلك السوق الكبيرة ، التى يقول بأنها مزودة بأنواع المكيفـات المناسبة لفصول السنة ٠٠ ومن هنا شرعنا نواجه العمائر الشواهق ، التى ينطح بعضها الفضـاء بأكثر من خمسة وعشرين دورا ٠٠

ومررنا أثنـاء ذلك باثنين من أضخم الابنية فى شارع (تاردو) قال اسماعيل انهما ملك لشركة روسية تقيم فيهمـا مصانع ومعـارض لاصناف الادوية ٠٠ وفى الشارع نفسه تشمخ القصـور الفخمة الضخمة التى يسكنها كبـار أصحاب الاعمال والثروات ، ويطلق عليهـا اسم (هـيرابندا) ونمـر هناك بمعبد هندوسى كبير ترف عليه وحواليه أسراب الحمـام ، حتى اذا أخذنا سبيلنا باتجـاه القمة المدهشة جعلنا نطل على بحـر العـرب ، وقد انتشرت على شاطئه الحمامات العـامة تلفها الاشجار الباسقة ، وتشرئب نحوها العمائر القديمـة ذات التخطيط الهندسى البـارع ٠٠

وفى الاعالى من جبـل (مونت بليز ندور) وعلى سفوحه المشرفة على معظم المدينة العالمية ، تتجلى روائـع العمل الهندسى الجبـار ،

حيث تنتصب النواطح التى لا ترى وجه فقير الا اذا كان قاصدا الاستجداء ، ولعل أعجب مافى هذه الشوامخ تنوع أشكالها حتى لا تقع العين على اثنين من طراز واحد ٠٠

- حديقة فيروز شاه :

وانتهينا أخيرا الى سطح الهضبة الذى يحمل أروع ما شهدت وما قرأت وسمعت من حدائق العالم ٠ انها حديقة (فيروز شاه مهتا) الساحرة ، قد نسقت أروع تنسيق ، وهى تقوم فوق واحد من الخزانات الخمسة التى تسقى بومباى من مياه بحر العرب بعد مرورها على معامل التحلية ٠٠ وفى وسطها رفع لوح رخامى نقشت عليه تفصيلات الطريق الموصل الى تلك المعامل ، وبيان بطاقة الخزان الذى يستوعب ثلاثين مليون غالون !

من على هذه الهضبة العبقرية تطل على معظم جوانب بومباى ، وبخاصة من ناحية بحر العرب ، حيث ينحدر البصر خلال أنواع الشجر والخضار والازاهير المنسقة على أجمل الاوضاع ٠٠

وتتداعى فى خيالى هذا مطلات بلودان ومضايا وصلنفه وكسب وأبى سمرة فى سورية ولبنان ، وكذلك مناظر ترمال ، وروائع البوسفور فى تركية ، وحتى مرتفعات تشلوتو فى أندونيسية ٠٠ فكأنها كلها تتجمع هنا تحت بصرى ، فلا أدرى على أيها أقف ، والى أيها أتلفت ٠٠

فى جانب من هذه الحديقة الساحرة ، حيث تنتشر القرود البشرية ، فى أوضاعها المخزية ، تواجهك تماثيل الحيوانات مصنوعة من النباتات التمددية ، فهنا شجرة وجه نموها بيد المشذب المفن حتى استقرت على صورة أسد ، وهناك أخرى تمثل لك أسطورة القرد هانومان وهو يحمل على رأسه جبال الهملايا – حسب القصة التى سردتها من قبل – ٠٠

وفى طرف من هذه الهضبة العجيبة تقع مقبرة للمجوس عبدة النار ، الذين لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم ، بل يدعونهم لسباع الطير تنهش لحومهم ٠٠

ويصف الاخ اسماعيل تلك المقبرة بأنها بئر عميقة ، ينزلق منها مجرى متصل ببحر العرب ، وعلى سطحها مشبك حديدى تطرح فوقه



ساحة النافورة فى بومباى

جثث المجوس ، وتوضع بجوارها اوانى الاطعمة المغرية للطير ، فاذا رآها الطير المعود انقض عليها يقضمها حتى لا يبقى منها سوى العظام ، التى تتساقط الى البئر ، التى تدفعها بدورها وبمساعدة الماء الى البحر .. وهكذا يريحون الارض من آثارهم ليبتلى بها حيوان اليم ..

حـــتى الحـــذاء :

وجعلنا تتنقل على جوانب الهضـــبة نستكمل مشـــاهدة معالم البلد الكبير .. فنشرف من الشرق على ذلك الخليج الذى تجرى فيه الجوارى على اختلافها ، وتقوم على عدوته الاخرى شوامخ الابنية ذاهبة فى الاعالى وبيننا وبينها جماهير المتنزهين على الشاطىء ، وقد بدأ الليل ينشر رواقه، وتلتمع من خلاله ملايين المصابيح ، فتهب للمنظر صورا أخاذة تعجـــز الواصـــف ..

ولا يسع المستوعب لهذه المشاهد أن يغفل الكلام عن دقة التنظيم فى اقســام هذه الحدائق ، فلقد اعطيت من العناية والروعة ما يؤكد أن فى الهند أبــرع المهندسين والمجملين ـ الديكور ـ .. حتى الحـــذاء لم يعـدم لـه مكانا فى تلك التحف ، ففى جـانب منها بناء صــــور على شكل سوقاء ـ حـــذاء ذى ســاق ـ وقد رسمت فى مقدمته أشـــكال الخيوط الرابطة لطرفى الســـاق ، وارتفع الى ما يقارب ستة امتــــار ، وجعلت لـه مداخل للمتفرجين يصعدون منها الى الاعلى .. ومن هناك يطلون على الجمهور من شرفة خاصة ..

وقــد قيــل لنــا أن هذه الهضـــبة ترتفع عن بحر العـــرب الف ذراع، وأن يكن الناظر لا يقدر لها اكثر من ثلاثمئة .. ووفقنا الى شراء مجموعة من الرسوم الفوتوغرافية تمثل اروع ما شاهدنا هناك ، عشرين بطـــاقة بسبع روبيات .. وما أرخصها ! ..

مسرحيـــة قــــردية :

وكنــا فى الطريق الى السيارة عندما لمحت ذلك اللعاب الهندى مع قرديه ، وقد شرع فى عرض تمثيليتهما على احـد الارصفة .. فـرأيت أن اشهد عرضه لاقف على مقدار دربته الفنية ، وما وراءها من مـــواهب وتصورات .. والحق انها تمثيلية متقنـــة اثبت فيها ذلك القراد براعته فى ترويض الحيوان ، كما اثبت القردان مدى تفـــوقهما فى التلقى والمحاكاة ..

وخلاصة التمثيلية أن القرد قد رغب فى استهواء الانثى لتكون له زوجة ، فجعل يتأنق لها على منظور المرآة ، ويحتال بعرض نفسه بالشكل الذى يستهوى مثلها ، فتقابله تلك بنفرة الانثى التى تريد أن تضاعف من رغبته فيها ·· ويتوسط القرد صاحبه ليقنعها به فلا يرضى، فتنشب بينه وبين القراد معركة بالعصى ، تنتهى بقبول هذا القيام بدور الوسيط · ويدعم هذا المسعى بهدية يقدمها الى الخطيبة ، وهى عبارة عن ثوب من السارى الجميل ، وبذلك يتم المشروع ، وتنتهى التمثيلية بحفلة راقصة يقوم بها العروسان القردان

وبقليل من التأمل يدرك الناظر والقارىء أن قصة هذا الزواج القردى انما هى فى الواقع قصة الزواج نفسها فى كل مكان ، غير ان الطابع القردى فيها هو قيام العروسين بعرض رقصاتهما لجمهور المدعوين ، وهو نفس الخاتمة التى ينتهى اليها كل زواج يجرى على الاصول الغربية ، حيث يتخاصر العروسان على الملأ ·· بل قد يزيد المنحلون من البشر على تلك النهاية ما يتجاوزون به أخلاق القرود ، اذ تكون المخاصرة فيهم عامة يشارك فيها كل ذكر مع كل انثى من المدعوين دون تحديد ·· ويبقى كذلك من امتياز القرود تماسك الانثى لكى تظل هى المطلوبة التى يسعى اليها ، على حين فقدت أنثى الحضارة الكافرة تلك الخاصة المترفعة ، فأصبحت هى التى تكافح لاجتذاب الرجل بكل وسائل الاغراء ! ··

مسجد ومسكن :

وهبطنا من الهضبة نقصد أقرب المساجد لصلاة المغرب · وفى واحد من أجمل الشوارع ، ومقابل قصر والى بومباى ، وقفت بنا السيارة وعلى درج ضيق بين جدارين لبنايتين عاليتين صعدنا الى مسجد كان بيتا وهبه أصحابه ليكون مصلى للمسلمين فى هذا الجانب ·

انه قاعة تتسع لمئة وخمسين مصليا ، وفى زاوية منها قامت خيمة من القماش لا تزيد مساحتها على اثنى عشر مترا مربعا ·· قدرت أنها مسكن الامام وأسرته ··

وبعد الصلاة لقيت الامام الذى قال ان اسمه محمد ميا انصارى وانه من مراد اباد ، ذلك البلد الذى لا تزال دماء الالفين من شهداء مسلميه حارة تخضب ارض المصلى ، الذى أطلق فيه حرس الامن

الهندوسى رشاشاتهم على مصليه ، فى واحـــدة من أهـــــول المذابح التى لقيها المسلمون على أيدى هؤلاء المتعصبة ٠٠

ولهذا الامـــام هيئـــة صـــالحة ، وقد أخبرنا أنه حج وزار ، ويتطلع إلى العودة مـــرة أخرى ٠ ومنه علمت أن أسرته تتألف من ثمانية أفراد بينهم ابن أخيه وأخته الذى يقوم بالآذان للاوقات الخمسة ، وأن المرتادين للمسجد غير قليل ، ويوم الجمعـــة يبلغون أقصى استيعابه ، وهـــو معروف باسم (انجمن محافظ الاسلام) ويقع فى شارع (والى كشور) ٠

ويقول هذا الامـــام أنه يحصل على مصروفات المسجد من تبرعـــات المحسنين من المسلمين ٠٠ وودعنا الامـــــام بعد أن وضعت فى يده ما قدره الله للاسهام فى هذه المصروفات ، والحق لقد شعرت اذ ذاك أنى أقـــوم بأسعد عمل أديته طوال ذلك اليوم ٠٠

والله الموفق والمســـتعان ٠٠

عجائب تحمل عبرا :

وقف بنا السائق الخبير اسماعيل على مدخل احد المبانى ليقول : هذا بيت السمك ..

وبعد اداء الرسم ، الذى لم يتجاوز الروبيتين عنا نحن الاربعة ، ولجنا المتحف الذى عرضت على جدرانه احواض الاسماك والحيوانات البحرية ، فى ترتيب فنى علمى يوفر لها الجو الملائم عن طريق تجديد الاوكسجين بتجديد الماء المستمر . ولم نر فيها جديدا بعد الذى شاهدناه من انواع هذه الاحياء فى معرض جامعة الرياض عام ١٣٩٥ ثم فى متحف الدوحة اثناء مؤتمر السيرة والسنة النبوية ، اللهم الا منظر تلك الثعابين التى تعيش مع الاسماك فى منتهى الامن والطمانينة، والا تلك الاعجوبة التى فوجئنا بها حين وقع بصرنا على سمكتين ميتتين لا تتجاوز الواحدة منهما حجم الكف ، وقد كتب على نيل كل منهما بيد القدرة الآلهية ، وبالخط العربى شبه المغربى (شان الله) .. والكلمتان من الوضوح بحيث لا يخطئهما قارىء للحرف العربى ..

وهنا تذكرت ما سبق ان قرأته فى كتاب (عجائب الخلق) لجورجى زيدان عن سمك فى الهند يحمل جلده شهادة التوحيد ، وقد اكد لى هذا الامر بعض طلابنا من الهنود ، اذ قال ان ذلك الامر مشهود عندهم ، وانه يعرفه بنفسه .. على انى لم اجد بين معارفى فى الهند من شهد برؤية هذه الخارقة .. ولكنى لا استبعد وقوعها ، لان الهند اكبر واوسع من ان يجمع سكانها على مشاهدة شىء بعينه ،وليس وجود (لا اله الا الله) على جلد سمكة باعجب من بروز (شان الله) على ذيل السمكتين اللتين شهدتهما بعينى راسى فى متحف بومباى هذا ..

ولقد نقلت فى بعض كتبى نبا تلك السمكة الاخرى التى عثر بها صيادون من المغرب ، وعليها بالخط المغربى الكوفى كلمات الشهادتين على غاية من الوضوح ، وقد بعث بها المسئولون الى مختبر علمى فى لندن ، وبعد التدقيق اعلن شهادته بانها حروف لم تمسها يد مخلوق .. ثم تلا ذلك النبا خبر سمكة من هذا النوع عثر عليها فى البحر الاحمر ، واعقبه حديث لفضيلة الاخ الشيخ عبد القدوس الانصارى نشره فى بعض صحف جدة ، وفيه يعلن خبر تمرة شهدها وكثيرون غيره فى المدينة ، تحمل كذلك كلمات الشهادتين بالحرف الكوفى نفسه ..

وهى كلها اخبار تصل الى حد التواتر من حيث القطع بصحتها، اذ لا يمكن حصول التواطؤ بين رواتها وهم من مختلف الاجناس والانحاء ·

ومشـاهد لا تنسى :

ومررنا أثناء تلك الجولة الماتعة بمنطقة يبدو انها احدث احياء بومباى من حيث الابنية الضاربة فى أجواز الفضاء ·· وأكاد اسميها حى الفنادق الدولية · فقد رأيت روائع الفنادق فى أندونيسية وغيرها فلم أر ما يفوقها ضخامة ودقة هندسة ·· حتى لقد أصبحت مقتنعا من خلال ما شهدته هنا وفى حديقة فيروز شاه ، وما حولها وما تحتها من روائع المشاهد ، أن فى الهند عمالقة المهندسين العالميين · ولا ينسى القارئ ما سبقت الاشارة اليه من تنوع الاشكال التى تمثلها هذه النواطح الجبارة ، بحيث لا تجد واحدة تحاكى الاخرى فتحار فى الحكم على أيها هو الاروع والافخم ··

وبين هذه الابنية الحكومية والفنادق العالمية تقع مكاتب الخطوط الجوية اقرب ما تكون الى الصورة التى تراها فى مبنى الخطوط السعودية بجدة ··

وعلى الدائر البحرى ـ الكورنيش ـ مررنا كذلك ببعض المقاصف ـ الاستراحات ـ الآسرة بفنها وكهربائها ، وقد افرغ عليها الليل المكهرب غلالة من الفتنة البالغة ، ولما استوضحنا خبرها قيل ان كلا منها خاص باحدى الطوائف ، ومعد لاقامة حفلات الافراح وفق التقاليد الخاصة بكل طائفة ··

والعابر بتلك المناطق العمرانية لا يسعه الا أن يقف مليا تلقاء ذلك البناء الضخم المميز بقبابه الهندية المنمنمة والذاهبة فى السماء ·· وهو الجمع المركزى لمكاتب القطارات ، التى اليها يرجع عمل المكاتب الفرعية الاخرى لقطارات بومباى ··

وما ينبغى ان تفوتنى الاشارة الى ذلك الجهد الجبار ، الذى تنهض به بلدية بومباى فى تلك الاحياء المحدقة بالخليج ، فقد علمت أن معظم هذه الارض ، التى تحمل كل هاتيك النواطح المهيبة ، انما حصلت عليها بومباى من احضان البحر ، على طريقة هولاندة التى لا تنفك تزحف على جوانب المحيط ، فترده على اعقابه ، مخلفا لها ما هى بحاجة اليه من اليابسة ··

على سيف الخليج :

وانتهينا الى ساحة (باب الهند) حوالى العشاء الثانى ٠٠٠ وقد سمى بذلك نسبة الى البناء التذكارى القائم على حافة الميدان المطل على مياه الخليج ٠٠ انه اشبه باقواس النصر التى خلفها الزمان فى بعض الحواضر السورية ، ليخلدوا بها ذكريات المعارك التى انتصروا بها على عدوهم ٠٠ فهو مثلها من حيث الشكل ، اذ يتالف من بناء ضخم ذى قناطر عالية يعبر تحتها المارة والعربات ٠٠ الا أن باب الهند هذا يفوق بحجمه كل ما شاهدته من تلك المعالم ، فهو سامق الارتفاع ، ويتكون من ثلاث بوابات يتجمع الناس تحتها وحولها فى الاماسى ، ويقال انها بنيت لاستقبال خامس نواب ملك بريطانيا ، بمناسبة دخوله مع زوجه بومباى من ذلك المكان ٠٠

وتعج هذه الساحة بحركة الناس بين متنزهين وباعة طعام والاعيب ٠٠ وكل يعرض ما لديه بأناقة وبراعة ٠٠ حتى الشحاذون يكادون يقطعون عليك الطريق أنى اتجهت ٠٠ وحسبى من امرهم ما اسلفته فى بعض الحلقات ٠٠ الا انى أحب أن طرف القارىء بخبر واحد من هؤلاء ٠٠

انه غلام لا يعدو العاشرة ، اخذ مجلسه فى طريق المارة قرب النصب التذكارى ، وفى كفيه اربع قطع صغيرة من رقيق الحجارة ، جعل كل اثنتين منهن بين ابهام وسبابة ، ثم راح يضرب بعضهن ببعض فى نسق خاص ، فيخرج من ذلك توقيعا موسيقيا عجيبا ٠٠ وحتى الان لا اعلم امقعد هو يستجدى الاكف ، ام محترف يقتضى الناس بعمله هذا ثمن اعجابهم واطرابهم ٠٠

وتصطف الزوارق البخارية على سيف الخليج ، وقد تفاوتت احجامها بين كبير وصغير ، وراحت تتنافس فى عرض زينتها اغراء للراغبين فى الرحلات البحرية ، وبخاصة فى الليالى الساجية الهادية ٠٠

روائع وفجائع :

فى هذه الساحة ينهض واحد من افخم واكبر فنادق بومباى اطلاقا هو فندق (تاج محل) ومعلوم أن هذا الاسم يطلق على البناء العالمى المشهور الذى شيده شاه جهان فى مدينة اكرا ، ليكون مثوى لزوجه ممتاز محل ، التى فقدها فى ميعة الصبا ، وهو اشد ما يكون تعلقا بها ٠٠

والاسم نفسه يعنى (تـاج القصـور) ولعلهم استحسنوا جرسـه العـربى فاستبقوه له وكان بوسعهم ان يخلطوا العباس بالدباس فيسموه (تـاج بلاس) ٠ وهو يتألف من قسمين قديم على أسلوب القصـــور الملكية الشرقية ، وجديد على أحـدث الطرز الغربية للفنادق العالميـة ٠ فبينما الاول ينبسط طولا وعرضا حتى يكاد يؤلف مربعا هائل الحجم ، اذا بالاخر يشمخ الى الاعـالى ليطل على مختلف أنحاء بومباى ٠٠ وقد قدر لنا النزول فيـه أثناء عودتنا من النـدوة العالمية للادب الاسلامى فى لكنـاو ، فخبرنا بذلك داخله ، كما أحطنا من قبل بظاهره ٠ والحق أنـه مستوف لكل وسائل الراحة من حيث الاثاث والخدمة ٠٠ ومع ذلك فان فى طبيعتى ايثـــار الوسط من كل شىء ، ومن أجـل ذلك كنت أفضل النزول فى (بومباى بالاس) الهادىء البسيط ، والذى لم أر بين رواده أجنبيـا من حمـلة الجراثيم الخلقية ، بخلاف ما رأيته هنا من مناظـر تجرح حيـاء المؤمن ٠٠ على أن أسـوأ ما رقع بصرى عليه فى تـاج محـل هو مشهد ذاك الرجـل العـربى مع زوجته العربيـة المسـلمة ، وقد تخلت عن زيهـا الاسـلامى ، ووقفت مـع زوجها ورفيق لهما غـربى مع زوجـه الاجنبية عند واجهة الفندق ، يتبادلون المواقف لتؤخذ لهـم الصـور المشتركة ٠٠ وقد زاد من سوأة ذلك المشـهد أن العـــربى كان يرتـدى زيه المميز من العبـاءة والعقـال ، ولو هو أستبدل بهما الزى الفرنجى لكان المشهد أقل سوءا ، لانه حينئذ يكون قد أكرم هويته باكرامه شعارها على الاقل ٠٠

على أن ثمـة ذكرى لاذعة حملتها من هذه الساحة الواقعـة بين تـاج محـل والخليج ، ما أحسبنى قادرا على نسيانها ما بقى من حياتى ٠٠

انها ذكـرى مؤسفة بل محـرقة فجرها فى صدرى ذلك التمثـال البغيض الذى ينتصب بكبريائه المتحدية أمـام ذلك الفندق ٠ وقد زاد كـربى منه عندما اضطررنا ، نزولا عند رغبة الاخوة الثلاثة من وفـد الجامعة الى لكناو ، الى أن نتخـذ من تـاج محـل مقـرنا طوال الايام الثلاثة التى قضيناها فى بومباى ، فكان ذلك سببا لتكرار النظر الى ذلك المنكـر ، وكنت واياه كما قال المتنبى :

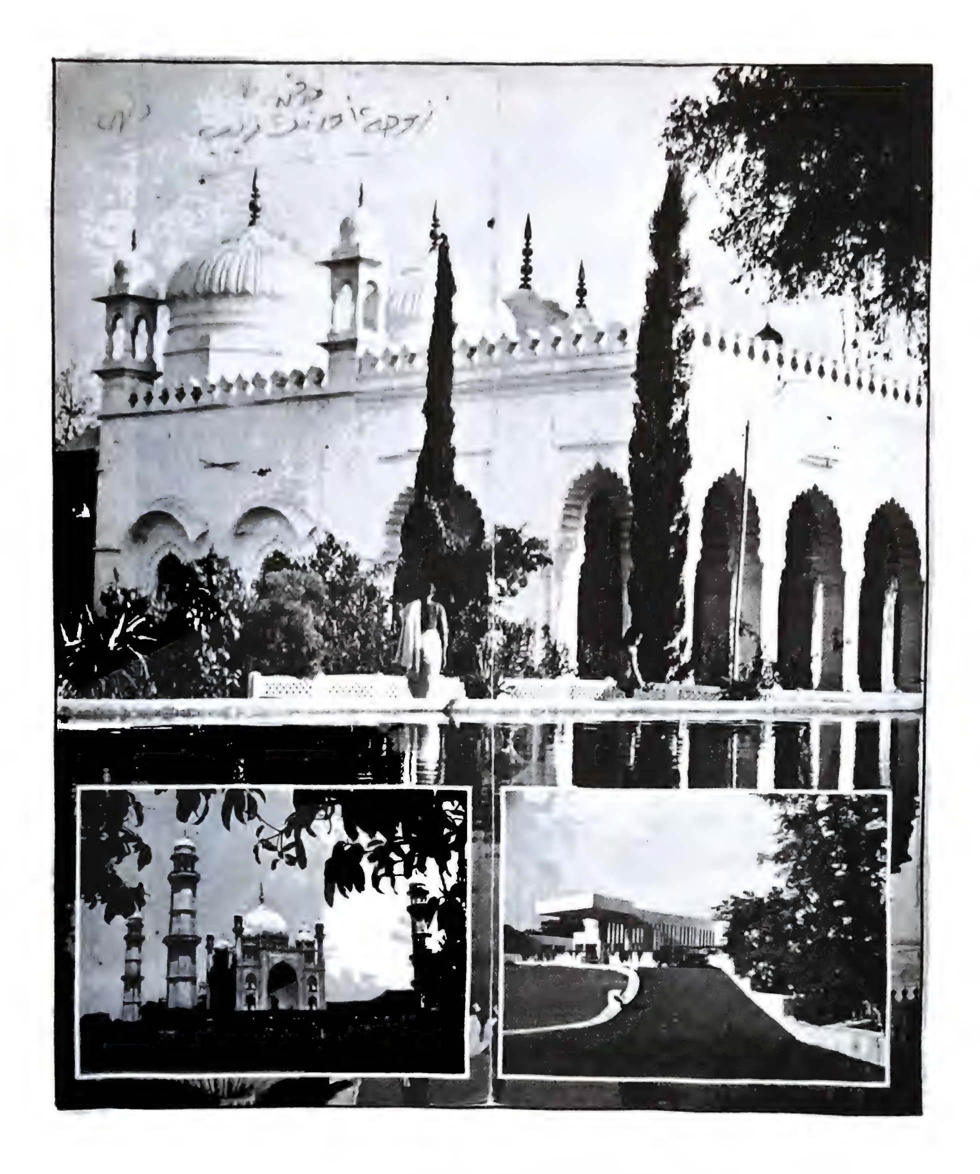
واحتمال الأذى ورؤية جانيـه غـذاء تضوى به الأجسام

واى مسلم يعرف شيئا من تاريخ (أورنك زيب) ذلك العمـــلاق الاسـلامى ، الذى رشحته فضائله وعدالته وعلمه واخلاصه لله ، الى أن يحتـل بنظر بعض المـارفين مرتبة سادس الخلفاء الراشدين ٠٠ ثـم





فندق تاج محل فى بومبـــاى



مدفن زوجة أورنك زيب بدلهى

لا يأكل الحزن قلبه وهو يرى الى قاتله المجوسى متشامخا على صهوة جواده ، فوق تلك القاعدة العالية من ذلك الميدان التاريخى ! ٠٠

هنا يمجد الغادرون :

من المعلومات التى يتداولها المسلمون حول مقتل أورنك زيب ، صاحب المجلدات الاربعة المشهورة باسم (الفتاوى الهندية) وبطل الحروب التى حمى بها بيضة الاسلام من عدوان السيك والمجوس مدى سنوات طويلة ٠٠ أن (شيوه جى) الفارس المجوسى المحنط فى هذا التمثال ، عندما أخفقت كل محاولاته للصمود بوجه البطل الاسلامى العظيم ، عمد الى أخس الاسلحة ، فكتب الى أورنك زيب مستأمنا وراغبا فى زيارته ، وعلى دأب المسلم فى ايثار السلم رحب بخصمه ، وينهض لاستقباله بمنتهى الاكرام ، ولكن المجوسى ما ان تمكن من عناقه حتى غرز فى جسمه قفازيه الحديدين اللذين أعدهما لهذا الغرض ٠٠ وهكذا سقط الرجل العظيم ضحية الغدر اللئيم ٠٠

والى هنا والمأساة معقولة لا تعدو أن تكون واحدة من غدرات الجبناء والأخساء فى تاريخ الانسانية ، ولكن الغريب فيها هو أن يمجد صاحب هذه الغدرة حتى يحسب فى الخالدين ٠٠ ولا مسوغ لهذا التفكير المقلوب سوى النقمة من الاسلام ، الذى عدا عليه ذلك المجوسى بغدرته الحقيرة ٠٠ ولو سارت الامور فى مجراها الطبيعى لكان التمجيد لذكرى أورنك زيب ، الذى يكفيه من الحق على الهند أنه كان فيها مثال الحاكم الصالح الذى نضرب بعدالته ونزاهته الامثال ٠٠ أما أن ترفع النصب لتمجيد الغدر وأهله فلا محصول له الا المزيد من التعصب الضرير ، الذى سيظل يمد الاحقاد الطاغية بالوقيد الذى لا ينطفىء ٠٠

فى القطـــار الى كجـــرات :

نحن هنــا فى محطة القطــار نترقب موعد ركوبه لننطلق من بومباى الى منطقة (ســورت) حيث ينتظرنا بعض الاخـــوة فى المعاهـد التى اشــعرت بزيارتنــا ..

والداخــل لهذه المحطة لأول وهــله لا يسعه أن يمنع عينيـــه من التجــوال فى ما يواجهه منها .. فالبناء غاية فى الفخامة والضخامة ، والقادم اليه لا بد أن يراجع أولاً مكتب الحجز ليعطيه رقمه وموعـــد الانطلاق بالدقيقـــة ..

ودلفنا الى الداخل نتبين أسماءنا فى الجداول المعلقة على واجهات الاعــلان .. وبينما كان الاخوان أبو سحبان ومحمد عمر يقومان بذلــك فوجئت بالشيخ عبد الله اسماعيل ، عميد جامعة فلاح الدارين فى قرية (تركيسر) من ولاية كجرات التى نحن على أهبة التوجه اليها ، يعانقنى بحرارة ، وجعل يعرفنى نفسه وأنه وافد من الجامعة لمرافقتنا ، وعلى الرغم من انى لم أره من قبل فقد أزال لطفه وفصاحته كل شعور بالغـــــربة فيما بيننا ، وزاد ذلك الانس ، اطلاعه على بعض كتبى ووصفــه بعض ما يذكره منها ..

وفى الساعة ٥٠ر١٠ تحــــرك بنا قطار الدرجة الاولى يدافع الطريق الحديدى بين زفـــير وشــهيق ، ثم ما لبث أن اندفع بقـــــوة ينهب الارض .. وبدأنا نستطلع المشاهد المختلفة من ابنية وحقول ومحطات ، وزرائب جاموس .. ونلتقى بالقطر تعبر بنا كالسهام ، وهى من الكثرة ووفرة المقطورات بحيث تعرفك قيمة القطار فى حياة الهند ، والسبب الذى من أجله اقيمت تلك المنشآت الهائلة لادارتها وتسييرها ، وســتكون اشد اعجابا عندما تتذكر انها كلها من مصانع هندية ، وبخبرات هندية مئــة فى المئة .. وبخاصة عندما تعلم ايضا أنها قد استغنت عن النفط بالكهرباء فهى تسير بقوة التيار الذى تستمده من الاسلاك الجبارة الممتدة فوقها .. كشأن واصل بن عطاء الذى عالج عجزه عن اخراج بعض الحروف باللجوء الى مرادفاتها من الحروف الاخرى ، حتى قال عنه أحد الشعراء :

تجنب الراء حتى لا يـلم بهــا وجاء بالغيث اشفاقا من المطر

ذكريات من كفــاح الهنــد :

هذه الارض على امتدادها معمورة لا تلمح فيها شــبرا قفرا ، والزراعة راقية ومخصبة تتجمع محصولاتها على مدى الطــريق ..

والمتأمل فى هذه الخيرات ، التى لا يخطئها البصر فى اى ناحيـة من هذه الربوع ، لا يستطيع ان يتصور للفقر وجودا فيها ... حتى يفاجأ بالواقع المؤلم الذى يجرح عينيه فى كل بلد يتاح له الالمام به ..

وعبر بنا القطار جسرا طويلا تنبسط عن جانبيه المياه الى مسافات بعيدة ، فسألت : أخليج هذا أم نهر ملاحى ؟ .. فكـان جواب أحد المسافرين فى مقصورتنا : بل انه امتداد بحرى : وسرعان ما جـاء توكيد ذلك فى الاحواض التى تتجمع على مقربة منها اكوام المحصول الملحى خالصا ومشوبا .. وهنا طفت على ذاكرتى حركة العصيان المدنى الذى شاده غانـدى ومحمد على جنـاح وأبو الكـلام أزاد .. والذى بلغ قمته فى التمرد على قوانين الانجليز التى تفرض الضرائب على استخلاص الملح من مـاء البحـر ، وبكسر هذه القوانين البـاغية بعزائم الهنود على اختلاف طوائفهم ، أنكسرت شركة بريطانية ، فانحدرت من المرتبة العظمى الى الدرك الاسفل ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى ..

وصـلات الهنـد بالعـرب :

ومن على الجسر المقوس فوق نهر (تابتى) جعل يعرفنا الشـيخ عبد الله اسماعيل شيئا من ماضى هذه البقعة من منطقـة سورت .. ومثل الشيخ عبد الله قمين بأن يصغى الى حديثه عن ذلك العهد ، فهـو ذو خبرة واسعة بتاريخ الحقب التى شهدت صلات العرب بهذا الجانب من الهند سواء قبل الاسلام أو بعده . ولا أنسى أنى كنت أحد المعجبين بحديثه عن ذلك التاريخ ، ذلك الحديث الذى القاه فى الندوة العالميـة للادب الاسلامى ، فاستوعب جذور العلائق بين الهند وجزيرة العرب ، وما أعقبت من مردود لغـوى فى ألسنة الهنود ، حتى صارت الهند بذلك أحد مراكـز العربية فى العالم ، تصـدر كبرى المؤلفات فى لغة الضـاد الى سـائر الانحـاء ..

من هنـــا دخـــل الاســلام :

يقول الشيخ عبد الله ان نهر تابتى هذا كان همزة الوصـل بين الهند والبلاد العربية ، عن طريق السفن ، التى كانت تجوب بحـــر العرب الى هذه الشواطىء منذ العهود البعيدة .. واذا كان هذا النهر قد فقد اليوم صفته الملاحية تلك فبسبب السدود التى اقيمت على الكثير من جوانبه فقللت مياهه ..

وعن طريق غابتى احتلت مدينة سورت مكان الصدارة فى هذه العلاقة بين القطرين ، حتى انها لتسمى الى عهد قريب (باب مكـــة) لان حجاج الهند فيها يتجمعون ، ومنها الى شواطىء الحجاز يبحرون ..

ويضيف فضيلة الشيخ عبد الله الى ذلك القول بأن مدينة (باروس) الباعدة أربعين كيلا كانت أول ثغـــر استقبل طليعة صحابة رســـول الله صلوات الله وسلامه عليه أيام الخليفة الثالث ذى النورين رضى الله عنه ، عام خمسة عشر للهجرة ..

والقارىء الذى يلم بهذه الوقائع التاريخية لا يستغرب ازدهـــار ولاية كجرات بالعلم ، حتى ليكون منها طائفة من اساطينه ، ذوى الاثـــر العميق فى نشر الثقافة العربية والاسلامية ، مثل الشيخ محمد طاهـــر الفتنى مؤلف (مجمع بحار الانوار) ونحوه من المربين والمؤلفين .. ولا يستغرب كذلك تأثير العلم الاسلامى فى توجيه الحكام حتى ليكون بينهم من يستحق ان يذكر مع الراشدين ، مثل السلطان مظفر شـــاه حكيم الكجـراتى ، الذى بلغ القمة فى الزهـــد والورع والعـــلم والانتصار للحـــق ..

اســـوا التناقضات :

وعلى مقربة من الثالثة بعد الظهر اشرفنا على ضواحى مدينـــة سورت ، حيث يصطدم النظر بأسوأ المتناقضات : مئات من اكـــواخ الفقراء فى أردء الاوضاع ، تملأ مساحة غير قليـــلة من الارض ، وأول ما يواجه المسافر باتجاه سورت ، وفى مساحة أخرى مماثلة تنتشـــر عمائر أصحاب اليسار متنافسة فى الضخامة والارتفاع ، وكلها من النوع الحديث ، وكأنهما بذلك يعرضان التباين الاجتماعى فى واقع هـــذه البـــلاد كلهـا ..

وتوقف القطـــار فى محطة سورت ، فما أن وطئنا الثرى حتى وجدنا بانتظارنا أحد شيوخ (فلاح الدارين) ، وللتو توجهنا الى الســـيارة التى حملتنا الى (تركيسر) الواقعة على بعد ٤٢ كم من البلد ، وشد ما كانت الخيبـــة مرة حين واجهنا مدخل القرية ، وبدأنا نخوض فى أزقتها غير المنظمة ، وكلما رأيت بناء من الحجارة حسبته المؤسسة المقصودة ، اذ لا يتوقع ان تكون مدرسة فى مثل هذا الوسط الضيل منه ..

جامعة فلاح الدارين :

ومضت السيارة تشق الممرات القروية الترابية واحدا بعد الاخر حتى كانت المفاجأة ، واذا هناك صرح تعليمى ليس مستغربا أن يسمى جامعة ..

اول ما يستقبلك هنا المسجد الواسع الرائع ، ثم الممر الانيق الى داخل الفناء ، وهو كما وصف على لسان الشيخ ابى الحسن الندوى — حفظه الله — جنتان عن يمين وشمال .. فهناك الانواع من شجر الزينة والازاهير ، قائمة فى نسق رائع ، ويطل عليها من كل جانب ذلك البناء المنظم ذو الادوار الثلاثة ..

وكان ثمة حشد من الطلاب اعد لاستقبالنا .. فما ان وافينا المدخل حتى دوى صوت الموجه بمثل الهتافات السخيفة التى نسمعها فى البلاد التقدمية : فلان .. يا .. يا .. يا .. ويلى كلا من هذه الياءات تتمتها (عيش .. عيش .. عيش ..) ولم يتوقف حتى انتهينا الى المضافة النظيفة المريحة .. فصلينا جمعا ، ورقدنا قليلا ، ثم خرجنا للسلام على المشايخ ..

والحق ان هؤلاء الفضلاء جميعا من نوع يستحق الاحترام ، سواء من حيث العلم او الهيئة الصالحة .. ولن يضيرهم أن أخص منهم بالذكر الشيخ (احمد بايمات) احد مدرسى الحديث والفقه ، الذى وجدته على مستوى رفيع من الدراية والرواية .. وقد طبعه التزام المذهب الحنفى بالخاصة التى تميز فقهاءه ، من حيث التبحر فى تتبع الدليل ، والقدرة على الجدل المنطقى .. وقد ذكر بعض الحضور من زملائه أن لهذا الفاضل قرابة المئة من المؤلفات الاسلامية ترجم بعضها الى اكثر من لغة ، وأعيد طبع بعضها عددا من المرات ، وزاد ما وزع منها على مئة الف نسخة ، وذلك على نفقة بعض التجار الكجراتيين فى المهاجر ..

محسنون من آل راوت :

وعلى ذكر هؤلاء المحسنين من مهاجرى كجرات يحسن بى ان اعرض للقارىء بعض الصور التى هزتنى من اريحيتهم العالية ..

ففى جزيرة الرينيون عدد من هؤلاء يتعهدون هذه الجامعات بمعوناتهم المستمرة ، حتى لقد بلغ ما بذله احدهم ، وهو الحاج يوسف راوت ، لهذه

الجامعة حتى الان ما يساوى الستة الملايين من الروبيات الهندية ، أى مليونين ونصفا من الريالات ·· هذا فضلا عن المدد الثابت الذى تتناوله الجامعة فى كل عام ، ويقدر بمئتى الف روبية - فيما اذكر - وهو ريع بناء اشتروه ووقفوه لمصلحتها هناك ··

وشاء الله ان يجمع لى بفضله بين علم السمع وتحقيق النظر فى ما روى لى من اخبار هؤلاء المغتربين ·· فاذا نحن ببعضهم ، وقد وصلوا لتوهم من مهجرهم ، وفيهم الحاج يوسف راوت الذى أحببته فى الله ، ودعوت له بظهر الغيب ، فاذا هو أشيب فى الستين من السنين ، يمتلىء حيوية ونشاطا وحبا لله ولرسوله وللمسلمين ·· وقد علمت من نبذه أنه مولود فى فرنسة حيث كان والده يعمل فى التجارة ، ولما بلغ سن الحداثة بعث به الى قريته هذه للتزود من العلوم الاسلامية ، فقرأ القرآن ، ودرس ما يعوزه من العلم فى البناية القائمة عند مدخل الجامعة والتى تشغل الان بالتعليم الابتدائى ·· وقد قدر له ان يقضى معظم عمره فى جزيرة الرينيون ·· حيث يعمل حتى الان فى التجارة ، الى جانب كونه عضوا فى برلمانها ·· ومن فضل الله على هذا الرجل أنه لا يتخلف عن أداء العمرة والحج كل سنة الا أن يصرفه عن ذلك صارف من المقادير ··

العنــاية بكتــاب الله :

الجمعة ٢٦ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

كان صباح اليوم موعد جولتنـــا على أقســام الجامعة (فــلاح الدارين) وفق ترتيب مديرها الشيخ عبد الله ، وكــانت جولة سارة أثلجت الصــدر بما أتاحته لنا من العــلم بكبر المجهود الذى تنهض بهـ هــذه المؤسسة المباركــة ٠٠

لم يكن ثمـــة من عمل دراسى ، لان الجمعة هى ميعاد العطـــلة الاسبوعية فى معاهد المسلمين ، لذلك اكتفينا بالنظر الى مواطن الدروس والاقسام الاخرى المتممة لهـــا ٠٠

لقد مررنا على الفصول الكثيرة الواسعة وكلها من الطـــــراز التقليدى ، وقد فرشت بالبسط الواقية من البرودة والصـــلابة ، وزودت بثلاجة كبيرة لسقاية الطلبة ، اقيمت فى مكان متوسط من مجمع الفصول٠ واعجبنا بمشهد الحجرات الثلاث الخاصة بتحفيظ القرآن العظيم وتجويده، وهو من الاقسام الرئيسية فى كل معهد اسلامى زرناه من هذه الديار ٠ ولا عجب فان الاقبال على دراسة القرآن وتلاوته وتجويده يعتبر من أولى المقومات الثقافية فى حياة المسلم الهندى ، وقد ذكر الشيخ عبد الله فى كلمته الترحيبية أن فى هذه القرية (تركيسر) مئة وخمسين حـــافظا للكتاب الكريم من مجموع سكانها البالغين تسعة آلاف ٠٠

واخبرنا كذلك الاخ ايوب محمد ، وهو من الحفظة ان مثل ذلك العـــدد بل أزيد منه موجود فى قريته (كوسارى) التى لا يخلو أى بيت فيها من حافظ أو أكثر ، وهو أمر عـــام يشمل النساء والرجال ، باستثناء الكثيرين الذين يحفظون الجـــزء والجزأين والاجزاء من كتاب الله ٠٠ وحسب القارىء بذلك دليلا على منزلة القرآن فى وجود المسلمين واثره العميق فى سلوكهم وحفاظهم على ذاتيتهم ٠٠

ومن الذكريات التى ما ينبغى ان تزايلنى فى مثل هذه المناســـبة صـــورة ذلك الغــلام ـ محمد حنيف ـ الذى حضر مع احد قرابتــه من المشايخ مجلسا لنا فى احدى الامسيات ، وذكر لنا انه يستظهر كتـــاب الله ، فاحببت ان اختبره ، فكلفته ان يقرأ علينا ما يتيسر ، فقرأ بالمزمل ، فجعلت اختار له من هنا وهناك ، فاذا هـــو يستجيب لكل مطلوب فى ثقة عالية ، فلا يضل ولا يتردد ٠٠ وكل ذلك فى اداء رائع ، وصوت ندى

٠٠ مع أنه لا يتجاوز بتقديرى الثانية عشرة من سنيه ، فسبحان من يخلق ما يشـــاء ويختـــار ٠٠

مظاهـــر النشـــاط :

ولاحظنا من مظاهر النشاط الفكرى لدى طلبة الجامعة ذلك المعرض الخاص بالصحف العربيـــة الصادرة فى مختلف انحاء العالم الاسلامى ٠٠ وبينها العديد من المجلات والجرائد التى نعرفها ٠٠

كذلك أطلعنا على مكتبة الجامعة ، وهى كبيرة وكثيرة الكتب بمختلف اللغـــات والاغراض ، وقد وقعنا بين محتوياتها على معجم تعليمى فى ست لغـــات شرقية (عربية والأوردية وفارسية وهندية وسنسكريتيـــة وتركية) وهو كتاب مطبوع ولكنه مخروم من أوله فلا يعرف مؤلفـــه ولا ناشره ٠ ويحدثنا الاخ الشيخ عبد الله انه عثر به فى احـــدى القرى ، وقد اكلت الارض اجزاء من بعض صفحاته ٠٠

واطلعنا على مطعم الطلاب ، وهو يحتل قاعة كبيرة تتسع لخمسمئة طالب ، وقد مدت فيه الخوانات الخشبية المنخفضة ليوضع عليها الطعام وبازائها فرشت الحصر البلدية لجلوسهم ، وبجوار المطعم عدد كبـير من الصنابير غرزت فى بنية جميلة مظهرة بالبلاط الابيض ٠ وقد رفعت فى صدر المطعم ورقة تذكر بآداب الطعام فى ضوء الاسلام باللغة الاوردية ٠٠ وقيل لنا ان احد الطلبة يقف قبل البدء بالاكل ليلقى على اخوانـــه بعض المواعظ المتصلة بالموضوع ٠٠ وانتهينا الى غـــرفة المدير ، ذات المفارش الارضية ايضا ، وهناك اطلعنا كذلك على عـــــدد من الكتب المطبوعة ، وكلها من تاليف مدرسى الجامعة ٠٠

وكـــانت نهاية المطاف فى المسجد الذى جمـــع به الطلبة ، ورتب حفـــل لم ندر به من قبل ٠٠ وفيه القيت بعض الكلمات الصالحـــات ان شاء الله ٠٠ سجلت مع تعقيبى عليها فى شريط اكرمونا بنســـخة منـــه ٠٠

واحب الا تفوتنى الاشارة إلى أن بين المئات من هؤلاء الطلبـــة عددا من مختلف ارجـــاء العالم ، قدموا للاغتراف من معين الاسلام ٠٠ ففيهم الافريقى ، واليمنى ، والامريكى ، وحتى الكوبى ٠٠ ولهذا الكوبى

قصة مؤثرة جديرة بالتسجيل ، ذلك انه تعرف الاسلام من خلال بعض الكتب التى وقع عليها فى احدى المكتبات العامة ، فانشرح صدره له ، وحاول الهجرة للالتحاق بالمسلمين ، ولكن سرعان ما احست به المخابرات الشيوعية فتعقبته وفتشت منزله ، ولاحقته بفنون الاذى والمضايقات والاخطار ، حتى قيض الله له الخلاص من جحيم كاسترو ٠٠

الأرجوحة الكجراتية :

وأبلغنى المشايخ انهم يرغبون ان اكون خطيب جمعتهم هذا اليوم وبعد الغسل عدنا الى المسجد ، ولم يكن قد استقر فى خاطرى الموضوع الذى يحسن الكلام فيه ، ثم شاء الله ان تكون الخطبة حول آية من سورة الفتح ، وأن يكتب لها التوفيق ، حتى وصفها أبو سحبان بأنها كانت فتحا من الله عجيبا

وفى الطريق الى الغداء ، الذى أراده الشيخ عبد الله فى منزله ، مررنا بأبنية جميلة قيل لنا انها مساكن بعض أسر المتزوجين من مدرسى الجامعة ، وبجوارها ابنية اخرى فى حالة الانشاء لسكن الاخرين منهم ٠٠ أما غير المتزوجين من هؤلاء الاخوة فيقطنون فى غرف خاصة داخل المؤسسة ٠٠

وكان الغداء ممتعا بما قدم فيه من الاطعمة الشهية ، على ما فيها من لذعة التوابل ، وبما أتاح لنا من الاجتماع بسائر الاخوة من أهل العلم والفضل ، وبينهم اولئك المحسنون من آل راوت ٠٠

ولأول مرة يقع بصرى على الارجوحة الكجراتية مدلاة من وسط القاعة ، وهى كالصندوق المستطيل تتسع لشخصين يستريحان فيها ، فتستجيب لحركتهما التى يريدان ، وقد أتقن صنعها ، وبذل فيها من الزخرف ما يتناسب مع وضع المنزل ٠٠ ولا يكاد يخلو منها منزل فى كجرات ٠٠ والظاهر انها بدأت تتسرب الى المناطق الاخرى ، فقد رأيت واحدة منها فى منزل أحد تجار العطور فى بومباى ، اذ كنا مدعوين لغداء عدنه مع فضيلة الشيخ أبى الحسن ، فقلت : لا بد أن تكون هذه الارجوحة هاربة من وطنها الاصلى ، اذ لم يسبق أن شاهدت لها اثرا فى اى منزل او مؤسسة خارج كجرات ٠٠

وقبل ان أدع الحديث عن جامعة فلاح الدارين أحب أن أسجل بعض ملاحظاتى حول مواقع هذه المؤسسات الاسلامية ، والباعث على اختيارها خارج نطاق الحواضر ٠٠ والذى استقر رأيى عليه هو ان وراء هذا الاختيار فى الغالب غرضا تربويا يقصد به الى حماية الطلاب من سيئات المدن ، التى لا تخلو من المفسدات ٠٠ وبذلك تكون الجامعة أو المدرسة كيانا مستقلا توفر للطالب نوعا من الاعتكاف هو أعون ما يكون له على الدراسة والتنمية الخلقية والفكرية ٠٠ وحتى اذا لم يكن ذلك مقصودا اليه فهو واقع لا يحسن اغفال أثره فى تنشئة هذه الجماهير من اجيال المسلمين عند الكلام عن هذه المعاهد التى اختارت لنفسها تلك المواقع القصية ٠٠

وكان الاصيل قد شرع فى الانكماش حين وصل فضيلة الشيخ أبى بكر الغازيكورى مندوبا عن جامعة (تعليم الدين) فى دابهيل ، للتفضل بمرافقتنا اليها ، وهى احد المعاهد الداخلة فى برنامج الزيارة، فاتجهنا مع المشايخ نحو البوابة الخارجية لنمتطى السيارة المعدة لذلك ، وبصعوبة كبيرة استطعنا النفاذ بين صفوف المشيعين من الطلاب وغيرهم ، ومن ثم أخذنا طريقنا الى دابهيل ، رفى النفس غصة لفراق أولئك الاخوة الذين ما ندرى اذا قدر لنا ان نعود للقائهم مرة أخرى ٠٠

فى (تعليم الدين) :

وبعد اثنين واربعين كيلا ، بلغنا الجامعة المقصودة مع أذان المغرب ، فأديناها جماعة مع مئات الطلبة ، والعديد من المشايخ الذين كانوا بانتظارنا حول مسجدها ، الذى يجتذب الانظار بحسن هندسته ، وجميل موقعه ، وروعة تنظيمه ، فهو مظهر بالرخام كله ويتسع لاكثر من خمسمئة مصل ، وتمتد الى منتصفه شرفة يصلى بها الناس اذا ضاق بهم رحب المسجد ، وركبت على صدره مراوح كبيرة تلطف فضاء المسجد كله ، وتقوم فى فنائه المرخم ميضاة أنيقة بالغة النظافة ٠٠

وعقيب الصلاة عبرنا من خلال صفوف الطلاب الى المكتبة ، وهى تستحق الزيارة بما تحتوى من اصناف المؤلفات ، بينها غير قليل من المخطوطات ، وهناك استرحنا قليلا ، وتحدثنا الى المشايخ فى شئون

العلم والتعليم والمناهج وضرورة تجديدها ، وتحديث وسائلها بالاخذ من كل نافع قديما كان أو حديثا ٠٠

ومن ثم مضوا بنا الى دار الضيافة ، وهى شقة نظيفة مخصصة للنزلاء ، فى بناء حديث يسكنه المدرسون دون مقابل ٠٠

ومن دار الضيافة الى منزل مدير الجامعة فضيلة الشيخ محمد سعيد بذرع ، ويقع منزله داخل القرية وراء طريق ترابى طويل ٠٠ وهنا تناولنا العشاء مع ذلك الشيخ الوقور ، ثم عدنا الى المسجد لصلاة العشاء ، وهو على مسافة الف متر ، آثرت قطعها سيرا على القدمين ، وهو الثمن الذى لا مندوحة عنه كلما أضطررت الى مخالفة عادتى المألوفة فى الغاء وجبة العشاء ٠٠

ظاهرة مؤسفة :

ولا أنسى تلك الظاهرة التى واجهتها اثناء تلك المسيرة اذ تقدم نحونا رجل يترنح ، وبلسانه عقدة السكر ، القى تحية الاسلام ، وراح يجمجم بكلام لم أفهم منه شيئا ، وحتى الاخوة الهنود لم يجدوا له معنى ، سوى أنه يريد ان يعبر عن هويته الاسلامية ، ويسأل أن ندعو الله له بالمغفرة لاقدامه على شرب الخمر ! ٠٠

ويقول الاخوة أن ظاهرة السكر هذه قد بدأت من جديد بعد الغاء حكومة أنديرا غاندى لنظام الحظر على تعاطى الخمر ٠ وقد سبقت الاشارة الى أن باعثها على هذا الالغاء هو الرغبة فى المزيد من الضرائب ، ثم توسعة المنافذ لتصريف طاقة الجماهير فى مزالق اللهو والمجون ! ٠٠

جـولة اسـتطلاع :

السبت ٢٧ـ٢ـ١٤٠١ هـ ٠

فى الساعة التاسعة صباحا بدأنا الجـولة على أبنية جامعـة (تعليم الدين) ، وهى تشغل مساحة واسـعة من أرض كبيرة ٠ فهناك بنـاء سكن الطلبة ، ويتألف من ثلاثة ادوار ، تستوعب ثلاثمئة غـرفة - على قول الشيخ أبى بكر الغازيكورى - وفى الدرر الارضى منـه المطبخ والمستودع والمطعم ، وثلاجة كبيرة لشرب الطلاب ٠ وقد شاهدنا غرفهم وهى واسعة تحوى كل منها ما بين اربعة وخمسة أسرة ٠٠

وتمتد الابنية على دائر رحب ، وكل منها مختص بنوع من المهـام أحدها للفصول الدراسية ، وفى دوره الارضى القسم الخاص لتحفيظ القرآن الكريم ، ويتألف من سبع حجرات ، وفى هذا القسم يتخرج ما بين ٣٠ و ٤٠ حافظـا كل عـام ٠٠

ولم يتح لنـا المرور بسـائر الابنية ، ولكن ظاهرها يـدل على أهميتها ، ويقول الاخ ابو بكر ان مدرسى الجامعـة خمسة وثلاثـون وطلابها يبلغون خمسمئة وخمسين ٠ أمـا موازنتها ، البالغـة مليونا وخمسمئة ألف روبيـة ، فتأتيهم من محسنى المسلمين ، وبخاصـة مهاجريهم فى لنـدن والرينيون وبنامـا وموريشوس ، وأكبر روافدها من مهاجريهم فى جنـوب افريقية ٠٠

ويقول كذلك أن هؤلاء المهاجرين الموزعين فى شتى اصقاع الارض يبعثون بأبنائهم الى هذه الجامعة وغيرها لتزويدهم بالثقافة الاسـلامية حماية لهم من الضـياع ٠٠

وأمـا راتب المدرس فى هـذه المؤسسة فيتراوح ما بين ثلاثمئـة وخمسين وتسعمئة وخمسين روبيـة هندية وقد أصبح ضـعيف المردود بازاء الغـلاء الكبير المتلاحق ٠ ويضرب لنا المثـل على ذلك ببعض الضروريات كالسكر الذى بيـع الكيلو منه هذه الايام بخمس عشرة روبية والذرة التى وصـل ثمن الكيلو منها الى ست ، وحتى البصل ارتفع الى اربع روبيات ٠٠

قصـــــة عمامـــــة :

وهمس في اذني الاخ ابو بكر على استحياء أن هيئة التدريس في الجامعة قد رتبت لنا اجتماعا في المسجد ، فهو يريدني على ان أشهده وألقى فيه بعض التوجيهات ٠٠ ولم يعد ثمة مجال للاعتـــــذار ما دام الاجتماع قد هيىء ، واحتشد الطلاب والمشايخ بانتظارنا هناك ، فمضيت مع الاخوة الى حيث ارادوا ، وقد ملأ الطلبة المسجد في صفوف منتظمة ، وأعـــد للمشايخ مجلس خاص في مواجهتهم ٠٠

وافتتح الحفـــل بآيات من كتاب الله تلاهـــا أحـد الطلاب بتجويد محكم ٠٠ ثم تـلاه أبو بكر فالقى كلمة معـــدة ، أعطونا منها نسـخة كتبت بخط عـــربي مبين ، ونسقت في وضـــع فني جميل ٠٠ وفي نهاية الحفـــل وقف العـريف ليقول بأنهم يريدون ان يترجموا مشاعـــرهم نحوي بمـــا اعتادوه في مثـــل هذا الموقف ، وهو ان يلوثوا على رأسي عمامـــة خاصـــة مطرزة بالآيات ثم بعض العبارات التي تسجل ذكرى المناســـبة ٠٠

ولكي يلزموني بالامر الواقع ذكر الاخ العـريف أن مثـــل هذه العمامـــة قد تـوج بهـا رأس شيخ الازهـــر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود في هـــذا المكان ٠٠ وليست سـوى رمز تقديري لمـا عـرفوه من آثاري في خدمة الاســـلام والمسلمين ـ بنظرهم ـ فلم أجـد مجالا لرد ما يريدون ، وتركت لرئيس الجامعة الوقور أن يكور تلك العمة على رأسي كما يشاء ٠٠ وقد عقبت على الكلمات بما يناسب المقـــام ، من اشـــادة بمجهوداتهم في نطـــاق الدعوة ، وتنشئة الجيل على حـب الحـق والالتزام بروح الاســـلام تربية وتعليما وعقيدة رســـلوكا ٠٠

ولمـا تحركنا لوداع القـــوم اتجــه بنا مسئولوهم الى حفـــيرة يريدون ان يصبوا فيها دعامة لبناء جديد يضيفونه الى مساكن الطلبة ، وطلبوا الى أن اضع الحجـــر الاول في أساسها ، ففعلت ودعـوت الله أن يشملها والمؤسسة كلهـــا برعايته وبركاته وتوفيقه ٠٠

عـــلوم وصـــنائع :

بقي أن اذكر لجامعتي (فـلاح الدارين) و (تعليم الدين) عنايتهما بتأهيل طلابهما للعمل اليـــدوي الى جـــانب الزاد العلمي ، فكمـــا يتلقون الدروس في المقررات الدراسية ، يتعلمون كذلك بعض الحـرف

التى تساعدهم على الحياة ، فلا يربطون مصايرهم بالوظائف الرسمية ، ولا يضطرون لطلب الرزق بالوسائل غير اللائقة بحملة العلوم الشرعية ٠ ومن هذه الحرف الخياطة واصلاح الساعات و ٠٠ وقد سبقت الاشـارة الى مثل ذلك عند الحديث على مدرسة (التعليم والصنعة) فى مدينـة كانبو ر، وهو اتجاه أتمنى أن أراه سائدا فى سائر مؤسسات التعليـم الاســلامى ، فى كل مكان من ديار الاســلام ٠٠

ولقد غادرت كلتـا الجامعتين أيامئذ وفى نفسى اليقين التـام بأنهما من أجـدر المعاهـد الاسـلامية بالمساعدة ، وبخاصة فى نطـاق منح المتفوقين من طلابهما الفرص لمواصلة دراساتهم العالية فى جامعات المملكة ٠٠ ومن أجـل ذلك نبهت المسئولين فيهما الى ما ينبغى مـن تنظيم مناهجهما على الاصـول المطابقة لشروط المعادلات فى الجـامعة الاسـلامية ، وقد استجابت (فـلاح الدارين) لهذا التنبيـه ، فتمت معادلة مناهجها ، والمأمول أن يكون لطلابها حظ فى القبول لدى الجامعة الاسلامية للعـام ١٤٠١ ـ ١٤٠٢ ان شاء الله ٠٠ على ان المؤسـف أن الثانية غفلت عن هذا الجانب فلم تبين ان من شروطها لقبول الطالب فى المرحلة الاولى أن يكون حاصلا على شهادة الدراسة الابتدائيـة من مدارس الحكومة أو ما يعادلها ، وبذلك تأخر صدور معادلتها ريثمـا تستكمل هـذا النقص ٠٠

دنيـــا وديـــن :

ولقد فاتنى أن أذكر منظرا شهدته أثناء قدومنا الى هذه الجامعة فملأ قلبى سرورا واعجابا ، وذلك حين وقفت بنـا السيارة تلقاء مسجد لم يتم بناؤه ، بيـد أن ما ظهر منه حتى الان كاف للدلالة على ما سيكون بعد استكماله ٠ وهبطنا مع الاخوة لاستطلاع شأنه فاذا هو يتألف مـن طبقتين أنجزت أولاهما ، ولا يزال العمل جاريا فى الثانيـة ٠٠ وقـد نظمت مرافقه أحسن تنظيم ، وفى جـوار هذا المسجد ينهض مصـنع ضخم لانتاج الورق المضاعف ـ الكرتون ـ تؤخذ مـواده الاولية من فضلات الأوراق المنبوذة ، فتعالج بالطرق العلمية والفنية حتى تخـرج نوعـا جديدا يقبل عليه المستبضعون من مختلف الانحـاء ٠٠

وتعرفنا هناك احـد مالكى المصنع ، وهـو الاخ محمـد على مينـار ، الذى اليه والى اخوته يرجع الفضل فى بناء ذلك المسجد الذى ينفقون عليه بسخاء ، ليوفروا لعمالهم وجيرانهم المكان الذى

يعبدون فيه ربهم . ومما يضاعف السرور ما اخبرنا به ذلك الفاضل من امتياز أولئك العمال الذين ليس بينهم واحد يتخلف عن الصلاة ، ولله الحمد ..

وفى ما يتعلق بعمل المصنع يقول الاخ محمد على مينار انه ينتج فى كل يوم عشرة أطنان من الورق المقوى ، يصدرونها الى دبى وعدن وغيرهما .. وزاد على ذلك أن فى هذه المنطقة من ضواحى سورت رتسمى (أودهنا) خمسمئة مصنع يملك المسلمون كثيرا منها ..

وقد علمنا ان لهؤلاء الاخيار من آل مينار تجارات واسعة فى سورت ، التى تعتبر من اهم مراكز الصناعة فى كجرات ، والتى يضاهى سكانها المليون من مختلف الطوائف ..

ولا ننسى ان لمسلمى كجرات نشاطا اقتصاديا رائعا ، يذكرنا بأمثالهم من الحضارم والشاميين وهو ما يثير عليهم احقاد الهندوس ، فيحاولون تخريب اقتصادهم بأصناف العدوان ، حتى التقتيل واحراق المصانع ، كما حدث فى أحمد أباد - من كجرات - قبل سنتين ..

بنوك اسلامية :

ويحدثنا الاخوة المرافقون أن الربا فى كجرات يكاد يكون محصورا فى نطاق الهندوس وحدهم ، وكثير من المسلمين يرفضون فوائد البنوك على اموالهم ، وبعضهم يأخذها فيوزعها على حاجات المسلمين ..

ومما يذكر لمسلمى هذه المنطقة أنهم قد سبقوا الى تجربة البنوك الاسلامية ، فانشئوا لهم واحدا غير ربوى يقوم على التعاون ، وتديره جمعية من المسهمين المسلمين ..

وقد ابى الاخ محمد على مينار الا أن يكون بين مرافقينا الى محطة القطار ، وبجهوده المشكورة حصلنا على الحجز المثبت بالدرجة الاولى الى بومباى ..

وكان وداعا حارا ترك فى نفسى أعمق الذكريات ، فلهؤلاء الاخوة الاوداء من جامعتى (فلاح الدارين) و (تعليم الدين) أصدق التمنيات ، واخلص الدعوات ..

الطب العربي في الهند :

الاحد ٢٨_٢_١٤٠١ هـ ٠

بعودتنا الى بومباى ختم منهاج زيارتنا للمدن الهندية الاخرى ، ربقى علينا ان نترقب موعد الطائرة التى ستقلنا الى مطار جدة ٠٠ وقد دعينا لتناول الافطار مع فضيلة الشيخ أبى الحسن فى منزل مضيفه التاجر الكبير ٠٠ حيث واجهنا نفس المشهد المعهود حول الشيخ، فالحضور كثير ، وهم من مختلف الاصناف ، تجارا وأطباء وضيوفا مثلنا من غير الهند ٠٠ وقد غمرهم جميعا جو الوقار الذى يحدق بفضيلته حيثما حل ٠٠

كان بين الحضور فتى عراقى من أعيان بغداد يقول انه يزور بومباى لمعالجة والده ، الذى أعيا مرضه اطباء العراق ولندن وغيرهما ، فنصح له بعض العارفين بأن يقصد الى هذه البلاد لعرضه على بعض المطببين على الطريقة العربية اليونانية ٠٠ ويقول ان رحلته استغرقت ثلاثة اشهر وقد نجحت ، اذ وجد والده طلائع الشفاء على يد طبيب من هذا الضرب فى مدينة سورت الكجراتية يبلغ من العمر مئة وعشرين عاما ٠٠ فبعد أن محى شعر رأس والده تماما عاد فنبت ، وبعد ان اقعده المرض فلم يستطع المشى زمنا طويلا ، استعاد قدرته بفضل الله وشرع يتمشى بسهولة ٠٠

ولا عجب ان يحدث ذلك على يد مطبب على الاسلوب التقليدى ، فقد بدأ الطب الحديث بالالتفات الى ذلك النوع ، الذى كاد ينتهى من سائر انحاء العالم خارج هذه القارة ، التى حافظت على مكانته ، واعطته حقه من الانطلاق ، حتى لتنشأ له الكليات ، وتجرى له الامتحانات ، وتمنح لاهله الشهادات ، وتقام لهم العيادات ، فتراها أنى ضربت فى هذه الارض ٠٠ وها هى ذى الجامعات العلمية ترسل مبعوثيها اليوم الى كل بلد يعنى بذلك الضرب من الطب ، لتستطلع طرائق أهله وتنتفع بخبراتهم فى رعاية النوع الانسانى ٠٠

مسلم جديد :

وكان بين الحضور أيضا رجل أسمر اللون عميق النظر كثير الادب ، وصف لى بأنه دكتور فى الرياضيات ، وذو مكانة محترمة فى الاوساط الجامعية ، حيث يتنقل بينها لالقاء المحاضرات فى اختصاصه ٠

وقد هداه الله الى الاسـلام حديثا ، وبدا عليـه من نوره حليـة من البهجة التى لا يمكن وصفها ٠٠ واثناء حديث معـه طلبت الى المترجم أن ينقل اليه قولى : (أنت مسلم قبل ان تعرف الاسلام عن طريق الكتب ، لان الاسـلام مركوز فى فطرتك ، وقد حفظها الله لك فبقيت لهـا طاقاتها المتفاعلة مع الحق ٠) وكان لهذه العبارة وقع سـار فى نفسه ٠٠

وعقيب الافطـار كلف الشيخ بعض أحبابه بمرافقتنا الى المسجـد الجامع ، الذى لا يحسن بالزائر لبومباى أن يغفله ٠٠ وشكر الله لأبى الحسن لفتته هذه ، اذ كنت سأعود من بومباى بخسارة كبيرة لو لم أشاهد هذه التحفة الرائعة ٠٠

وكان رفيقاى فى زيارة المسجد امامه الشيخ محمد ابراهيم الخطيب وهو عـربى اللسان ، ويجمع بين الثقافتين ، ثم الشيخ شوكـة على نظير ، الذى ينوب عنه فى غيابه ، وهو من خـريجى دار العـلوم ـ ديوبند ـ ولكليهما سـمت صـالح ، وخصـائص تسـتدعى التوقير والتكـريم ٠٠

المسـجد المدهش :

أما المسجد فقد بنـاه رجل من كبار التجار من أهل (كوكن) جنوب الهند على الساحل الغربى من بحر العرب ، اسمه محمد على ناخـذا ـ وناخدا بلغتهم الربان ـ ٠

والمسجد هذا كبير يتسع لسبعة عشر صفا مضروبة بمئة مصـل ، ويتألف من دورين ، يقوم اسفلهما على سبعة وعشرين عمودا ، وينهض دوره الاعلى على عشرة اعمدة ، تحمل قبته المستطيلة التى تبـدو من اعاجيب الهندسة ، ويستوعب كلا الدورين قرابة الاربعة الالاف ، وقيل لنا ان النسـاء لا يحضرن الصلاة فى هذا المسجد الا فى ليالى رمضان حيث يشـاركن ، من امكنتهن الخاصة ، فى صلاة التراويح ٠٠

ويحيط بالمسـجد من الخارج صـف من الحوانيت موقوفة لتمويله ، وقد فرشـت سطوحها بأنواع الفسيفساء ، وقامت على زوايا جدرانه مصغرات المنائر التزيينية على طريقة المساجد الهندية ، وبينها المنارتـان الرئيسيتان تطاولان الفضاء ٠٠ والالاف من المصلين فى المناسـبات

الكبرى فى كلا الدورين يصلون بصلاة الامــــام ، الذى يؤم الناس من الدور الارضى ، ويتلقى الاعلون صوته اليوم عن طريق المكبرات ، ومن قبل عن طريق الفتحة القائمة فوق مقـــام الامام ، ينقله البهم المبلغون فى الدورين ٠٠ وقد شاهدنا عدة مساجد من ذوات الطبقتين فى عدة مدن من الهند تصور اقبـــال المسلمين على المساجد فى زحـــام يضطرهم الى مضاعفة الطوابق على هذه الصورة ٠٠

ويلحق بالمسجد مكتبتان مكتظتان بنفائس الكتب ، احداهمـــا فى الدور الارضى ، والاخرى فى الاعلى ، ويكثر فى هذه المخطوطات الى جـــانب المطبوعات ٠٠

ولقد رأينا الى جانب المكتبة الارضية غرفا معدة للتدريس ، الـذى قيل لنا انه توقف لبعض الاسباب ٠٠

ويقوم المسجد كله على ركائز ضخمة ضمن بركة كبيرة يتـــدفق ماؤها من ينابيع تحته تجرى الى حيث لا ندرى ٠٠

وموضع العجب فى ذلك المسجد المدهش نقوشه التى تمسك بصـر الزائر فلا يكاد يرتوى من ملاحظتها ، ولا يكاد يعرف من اين ينبغى أن يبدأ ولا أين ينتهى ٠ السقف والجدران والعمد والارض والمحـــراب والابواب و ٠٠٠ وكل مافى هذا المكان معرض يصور عبقرية الرســام والنقاش ، على النحو الذى يذكرك بالنابغة الذبيانى وهـــو يصف الاثار الرائعة التى أنشأها مفـــو العرب والرومان فى هياكل تدمر ، فكـانت فى تصوره من الاعاجيب التى لا يحسنها الا عباقرة الجن فيقول :

الا سليمان اذ قال الآلــه لـــه قم فى البرية فأحددها عن الفند
وخيس الجن انى قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمـــد

وانى لاستشعر عجز القلم عن الوفـــاء بجزء من هذه النقـــوش ، فكيف باستيعابها جميعا ! ٠٠ لذلك سأوجز الكلام فى اشارات خاطفـة الى اهم ما بقى فى الذاكرة من هذه المشاهد ٠٠

تحـــف لا توصـــف :

بمجرد اطلالتك على المدخل الرئيسى للمسجد تفاجئك الروائع فى ما تحت قدميك وعلى جانبيك ٠٠ فالارض من الرخـــام اللبنى محفـورة على صـــور محيرة من الزهر والاشكال الهندسية الاخاذة ، والمقـــاعد

الكبيرة على يسارك تدعوك للاستراحة عليها قبل الولوج الى قلب المسجد، فيشغلك منظرها عن مهمتها ، اذ تريك عبقرية الانسان الخارقة التى ذللت صلابة هذا الصخر الابيض الناصع ، فجعلت من كل جزء منه مسرحا للبصر والفكر ٠٠ وعلى الجانب المواجه له تقوم الابواب المصنوعة من خشب (اسيسم) الاسود ، ولعله المسمى بالساج فى مقامات البديع الهمدانى ، وكلها محفور بصور شتى متداخلة من انواع الزهر ، المنافسة لأزاهير الأرائك الثلاث ٠٠ حتى اذا اخذت طريقك الى داخل المسجد رأيت هذا الفن يواجهك انى توجه بصرك ، ثم لا يفارقك ما دمت تتحرك فى أى من الدورين ، وحتى السطح يحتفظ بنصيبه من هذه الزخارف ، بله المنارتين السامقتين ٠٠

ومما يلفت النظر ان هذه التحفة الفنية الباهرة تكاد تكون محجوبة عن الابصار ، فلا يراها الا المصلون الذين ألفوها فأوشكوا ألا ينظروا اليها ، والا الزائر القاصد اليها من مكان بعيد ٠٠ ذلك بأنها تقع فى حى قديم تحدق به من كل صوب المحال التجارية والمساكن الشعبية ، فلا يبدو منه للمارة سوى منارتيه ٠٠ وهذا ما أتعبنا كثيرا فى الزيارة الاخيرة ، اذ كنا عائدين مع الاخوة الثلاثة من رفد الجامعة الى ندوة الادب الاسلامى بطريقنا الى المملكة ، فرحنا نبحث عن هذا المسجد ، أو من يدلنا عليه ، حتى كدنا نيأس من لقائه ، لولا ان وجدنا أنفسنا فجأة على مقربة منه ٠٠ وكان النصب قد اخذ من الاخوة فلم يصبروا أنفسهم على مشاهدته الا قليلا ٠٠

اما وقد فرغت من حديث المسجد العجيب فلا بد لى من تذكير القارىء بأن لى رأيا فى هذه الزخارف لا يتفق مع وجهة نظر القائلين بنظرية الفن للفن ، الذين تصرفهم مغريات الدنيا عن أهداف الاسلام ، وفى مقدمتها اقامة بناء الامة التى تقيم حجة الله على عباده ، بتقديم الانموذج الاعلى للمجتمع المتوازن السعيد ٠ وهو الرأى الذى أسلفت بعضه فى بعض الحلقات عند الكلام على قصور ملوك الشيعة فى لكناو ، وسأتمم عرضه عند الحديث على القصور الملكية الاخرى فى دهلى واكرا ان شاء الله ٠٠

محمد وشوكه على :

وبصحبة الاخوين الفاضلين الشيخ محمد ابراهيم ونائبه مضينا للبحث عن العود الجيد ٠٠ وفى أحد الشوارع الكبرى توقفا قليلا ليخبرانى بأنه يحمل اسم مولانا محمد على ، وان هناك شارعا آخر يحمل اسم

اخيه شوكة على ·· ودون انتظار لاى شرح وجدتنى أتذكر دلالة الاسمين ومنزلة صاحبيهما فى نفـــوس المسلمين ، ليس فقط فى الهنـــد بل فى العالم الاسلامى كله · وما احسب احدا من مثقفى جيلى يجهل انهمـــا من كبـــار زعماء التحـــرير فى كفـــاح الهند الكبير ·· وان محمـــد على بخاصة هو دفين القدس ، وصاحب المرافعة الرائعة التى دافع بهـا عن نفسه امـــام القضاء الانجليزى ، وتعتبر من نصوص الثقافة والجهاد الاسلاميين العالميين ··

وجـــدير بالذكـــر أن كثيرين من القـــراء تختلط عليهم هوية هذا المجاهد الكبير بشخصية سمى له هـــو محمد على اللاهورى الاحمـــدى صاحب التفسير المنحرف ·· وشـــتان بين المسلم المستقيم والقـــاديانى المضـــلل ··

وانمـــا أطلق اسم الزعيمين المسلمين على ذينك الشارعين من قبـل بلدية بومباى تقديرا لجهودهما فى معركة الحـــرية ·· وهو وضـــع يتناقض كل التناقض مع اقامتها العديد من تماثيل المجوسى (شيوه جى) الذى لا مأثرة له فى تاريخ الهند الا غدرته الحقيرة ببطل الاسلام السلطان الراشدى العظيم (أورنك زيب) ولكنها على كل حـــال ظاهرة طيبـــة تسجل لبلدية بومباى فى اطلاقها اسماء بعض رجال الاســـلام على بعض شوارعها ، فقد رأينا قبل هذين الاخوين اسم (محمد عمر رجب) يتـــوج شارعا آخـــر ، هو الذى تقوم فيه المدرسة الرحمانية ، التى تنـــزل فى ضيافتها · ولعل ثمـــة أسماء مسلمين آخرين أطلقت على مناطق أخرى لم نرها بعد من هذا البلد ··

العـــود اغلى ســـلع الهنـــد :

وبعـــد قليل عـــرج بنـــا الرفيقان الفاضلان على متجر احـــد العطارين من معارفهما ، وفى غرفة علوية صعدنا اليها مع صاحبها الحاج عبد القيوم ، الذى هـــرع لاستقبالنا ، الفينا عددا من أهل الفضـــل · وبعـــد حـــديث اسلامى ذى شجون وشئون عرض علينا عينتين من أفضل العـــود الذى عنده ، ولكن بسعر لم نتوقعه · أما أحدهما فثمن الكيـــل الواحد منه ستة وثلاثون ألف روبية ، أى ما يقارب الخمسة عشر الـــف ريال سعودى ، وأما الثانى فثلاثة وعشرون الف روبية · والفرق بـــين النوعين من الدقة بحيث لا يدركـــه الا خبير ، وهم يعرفونه بمجرد جسه وزنتـــه ··

ولو قررنا الشراء لكان علينا ان نختار الاغلى .. ولكن استعدادنا المالى كان دون ذلك ، فاكتفينا باخذ عنوان المتجر على ان يكون الاتصال به بعد مشورة الموصين عليه من اخوة المدينة ومعلوم أن هـذا السعر الخيالى ما كان ليكون لولا اقبال اصحاب الملايين من دول الخليج على اقتناء العـود بالغـا ما بلغ ثمنـه ..

واخيـرا سـالنا الحـاج عبد القيـوم عن دهن السمك الصحيح فنفى وجوده فى هذه الايام ، وعرض علينا نوعـا آخـر من دهن العنبر الجيـد ، بواقع مئة وعشرين روبية للعشرية ـ قارورة الغرامات العشر ـ وقـدم الينا واحدة على أنها هدية . وهنا ايضا حاولنا الاعتـذار ، وعرضنا الثمن بالحاح .. فأصر على الرفض .. وليجزه الله عنا كل خـيـر ..

١البحــــيرة الســـاحرة :

عصارى اليوم ٢٧ـ٢ وافانا السائق اسماعيل الى مضافة الرحمانية ليحملنا بسيارته فى جــولة ثانية ، نستطلع خلالها بعض الجوانب التى لم تتسع لها الجولة الماضية من معالم بومباى ٠٠ وكان علينا ان نسـلم اليه قيادنا فـــلا نساله الى أين ٠٠ الا ان تشوقنا معرفة بعض المشاهد فنستوضحه عنها ، وهيهات أن يذر لنا مجالا لذلك ، لانه عودنا ألا يدع شاردة ولا واردة الا حدد لنا هويتها وموقعها ، وهكذا انتهينا بعد ما يقارب الساعة الى تلك الضاحية الساحرة الجامعة بين الطبيعة والصناعة ، والتى تنتهى بمتنزه قـل نظيره ٠٠

انه منطقة جبلية تغمرها الخضرة ، ويرتفع فى جرانبها الأيــك مختلف الاشكال والاطوال ، وفى طرفه الشمالى فجوة شديدة الســعة بين مجموعة من الجبال المنخفضة تشبه بطن الماقول فى ضواحى المدينة وفيه يتجمع مـــاء المطر منحدرا من المرتفعات . ليشكل بحيرة رائعــة واسعة ٠ حتى اذا طغى المـــاء متجاوزا ضوابطه المحددة ، تلقتــــه المسارب المعدة لتصريفه الى أعماق الاودية ٠٠

ومن هذه البحيرة تستمد بومباى خمس حاجتها من مـاء الشفة ، عن طريق اربعة او خمسة اقنية مغلقة هائلة الحجم مررنا بأحدها أثناء الطـــــريق ٠٠

ولقد نظم حـــذاق المهندسين حول البحيرة وسائل للترفيه ، تبعث البهجة والنشاط ، وتجتذب أفواج السواح ، والسكان يصطحبون طعامهم وشرابهم ودربكاتهم ، فيأكلون ويشربون ويرقصون ويلعبون ٠٠ كلهم دون اســـتثناء ٠٠

فنـــــون ومرفهـــات :

ومن المرفهات الممتعــة للصغار وأشباههم هناك كرة لا يقل قطرها عن الخمسة الامتار ، صنعت على شكل رجه انسان ، عيناه نافذتان مشبكتان وفى جوفه منزلق يتزحلق من داخله اللاعبون على منحدر يبدأ من داخل الكرة وينتهى بهم الى مخرج فمه ٠٠ والى جانب الكرة اسطوانتان بمثل ارتفاعها يعلو كلا منهما وجه ينظر الى الاخر بابتسامة توشك ان تسمع قهقهتهـــا ٠٠

وعلى مقربة من المكتب الخاص بالاشراف على هذا المتنزه اقيم نصب ذو اربعة جدران من الرخام ، كتب على كل منها تاريخ انشائه باحدى اللغات الاربع الانجليزية والهندية والكجراتية و ٠٠٠ وفيها ذكـــــر البريطانى الذى قام بهذا العمل الرائع واسمه « الكابتين جـراهام » ، ويحدد تكاليف هذا المشروع بخمسة ملايين وستمئة الف روبية ٠٠

مصـــــانع وحـــــدائق :

وبالعودة من ذلك المتنزه مررنا بالعديد من المصانع ، بينها واهمها واحد لتجفيف الحليب ، وهو الكبير يقوم فى منطقة مخصصة لتربيـــة الجاموس على أحدث الاساليب ، وقد زرعت بالاعشاب المغـــذية لها ٠٠

وعرجنا هناك على حديقة على سطح الهضبة ، قد نسقت بـأروع الخطط ، وفرشت اقسامها المتدرجة بالخضرة الباهرة ، وانتشر النـاس اثناءها مشـاة وركبانا فى السيارات والاراجح ، كأنهم فى مهرجان ٠٠ ومن أعلى هذه الهضبة شاهدنا واحدا من أمتع مناظر الغـروب ٠٠

والحق ان فى ما ذكرنا وما أغفلنا من ظواهر التنسيق والتجميل ما يؤكد ان للانسان فى موازين بلدية بومباى قيمة تستحق الاهتمام ٠٠ ولعل هذه النظرة الكريمة تمتد ذات يوم حتى تشمل ســــــكان شوارع (كامانى بوره) التى نقلت صورتها الباكية ، من قطاعات هذه العاصمة العالمية ، فلا تكون هاتيك المباهج كمديرية التحـــــرير الناصرية ، التى اقيمت لايهام السواح والزوار بأن ناس وادى النيـــل يعيشـــون تحت سلطان الثوريين فى جنة لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ٠٠ على حين حجبت عن الانظار ملايين المساكين ممن ضاقت بهم سبل الحياة فــلا يحسون منها الا وجهها القمطرير ٠٠

وفى ذلك الجانب السعيد من بومباى مررنا بعدد من الابنية الكبيرة النظيفة ، واخبرنا الاخ اسماعيل أنهـا مصـــانع الحجارة الكريمـة ، تستوردها الهنـد من افريقيـة وغيرها ، ثم تصدرها بعد الصقل والتصنيف الى مختلف أنحـاء العـالم ٠٠

الأسـطورة التى صـنعها الوثنيـون :

وواصلنا المسـيرة المـاتعة بين المرتفعات الرائعة حتى صرنا الى منطقة (جـوهر) البحرية ٠٠ ذلك المتنزه الشعبى الآخـر ٠٠ حيث يعرض

كل ما يشتهيه المتنزهون من الاطعمة والاشربة ، ووسائل الترفيه ومغريات السواح من المصنوعات البحرية ‥ حتى الجمال والخيول للراغبين فى الركوب ، وحتى الاراجيح لهواتها ، والمقاعد الحجرية المنقنة لمن شاء اراحة قدميه ‥

وفجأة يقع بصرنا فوق بسيط غير صغير من ذلك الرمل على تمثال مصلوب ، قد عرى جسده من كل ساتر غير سوأته · ودقت فى راحتيه المسامير ‥ ولم يعوزنا المشهد الى كبير تفكير حتى ندرك ما أراده عارضوه ‥ انه صورة المعبود الذى أهانه عابدوه حتى جعلوه لعنة ، ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنه تحمل هذا المصير لتخليصهم من لعنة الخطيئة التى اقترفها أبوهم ... مرت على موته الالاف من السنين ‥ ولعل كثيرين منهم يعلمون كما نعلم أنها أسطورة صنعتها أهواء الوثنيين من قدامى الهنود والصينيين والمصريين ، الذين عجزت عقولهم عن الارتفاع الى أنوار التوحيد الحق ، فخرقوا لانفسهم أوهاما تصور لهم أن نوازع الشر فى الانسان أصيله لا سبيل الى الخلاص من أعبائها الا بأن يتحمل الههم خطاياهم ، ويضحى بنفسه فداء عنهم ! ‥

والأغرب من ذلك التصور الطفولى كله أن يحاولوا اقناع العقول السليمة ، والفطر السوية بقبول أوهامهم هذه ‥ فهم من أجل ذلك يعدون هذا التمثال المسكين ، ليقص على الناس أضلولة الاله الذى عجز عن انقاذ عباده الا بتسليم نفسه للقتلة المجرمين ! ‥

ومن شاطىء جوهر الى ميدان (شيوه جى) فى شارع (زارلى) حيث تعرض النسخة الثانية لتمثال الغدر ، الذى لعل المسلمين قد ألفوا منظره فلم يعد يحرك فى صدورهم ما أحسه فى صدرى حين النظر اليه ‥ وقد اختير له هذا الميدان لانه مجمع لاروع وأحدث عمائر بومباى التجارية ‥

وفى الطريق نفسه مررنا بالميدان الخاص بسباق الخيل ، الذى سبق ان شهدناه من الجانب الاخر ، وهو من السعة والروعة على جانب كبير ‥

ضريح الحاج على :

وتوقف بنا اسماعيل على سيف أحد الخلجان التى تكثر فى شواطىء بومباى ، واذا هناك جزيرة صغيرة يرتفع من وسطها قبة

ومنارة تتوهجان بأضواء الكهرباء ، الى أنوار شتى تملأ جوانب الجزيرة ٠٠ وسرعان ما علمنا ان ثمة قبر نزيل من الذين ينسبون الى الولاية ، يقال له الحاج على ، الى جانب أسماء اخرى له ، ويتناقل أناس من أخباره أنه أول عربى قدم هذه البقعة من ربوع الهند لنشر الاسلام وتمكينه ٠٠

والمهم أن أصحاب البدع يجدون فى هذا القبر مجالا رحبا لاوهامهم ، فالمد والجزر متناوبان حول هذه الجزيرة حتى لينقطع الوصول اليها فى بعض الليالى ، ومع ذلك لا تغرق ولا تتأثر ، وليس هذا ـ فى زعمهم ـ الا من بركات هذا الولى ، لذلك يكثر التهافت على قبره للتبرك ولطلب الحاجات ٠٠

واتفق ن شاهدنا فى مدخل الطريق الموصل الى تلك الجزيرة فتى تلوح عليه سيما التهذيب ، وقد اتجه ناحية القبر وجعل يتمتم بدعاء طويل ، حتى اذا فرغ من ضراعته استوقفناه وحييناه وسألناه عن اسمه تألفا له ، فأجاب أنه يدعى أرشد خان ، وعند استيضاحه عما يفعل قال : ان له حاجة يرجو قضاءها من الله ومن صاحب هذا الضريح ٠٠ وبمنتهى اللطف ذكرناه ووعظناه ، وحركنا فطرته النائمة ، فخجل وراح يتمتم : أنا لست جاهلا ، وانى لاعلم ما يجب ٠٠

ولقد تركنا الفتى ونحن موقنون أننا زلزلنا بناء الخرافة فى قلبه ، وأودعنا صدره بذرة الحق التى لا بد ان تنبت وتنمو وتثمر بمشيئة الله ٠٠

صور لا تمحى :

وهناك مشهد آخر من هذه العينة واجهناه فيما بعد أثناء خروجنا الى المطار يوم العودة الى جدة لا أرى بأسا من التعجل بذكره فى هذه المناسبة ٠ فقد توقف بنا السائق الصديق عند احدى الاشارات الضوئية ، ليطلب لنا بعض الشراب ، وهنا شد أبو سحبان بيدى وهو يشير الى منظر لم أتوقع مثله قط ، حانوت لا تزيد مساحته على ٣ × ٣ م يتكوم فى وسطه شىء بحجم الجمل مستطيل مسنم ، يجلله نسيج من القماش اللامع لعله من الحرير ، وتتناثر فوق النسيج أفواف الازاهير المختلفة الالوان ، واكثرها من الاصفر الفاقع ٠٠ وهناك رجل فى العشرينات من سنيه يمرغ جبهته عليه ، ثم ينتقل الى مختلف جوانبه ،

ساجدا على كل منها ٠٠ ولما فرغ من عبادته خرج القهقرى حتى تجاوز العتبة ٠٠ وما كاد يزايلها حتى اخذ مكانه رجل آخر ، فجعل يقوم بالتمثيلية نفسها ٠٠

ولاحظت بجوار هذا الحانوت واحدا آخر بمثل حجمه يعرض انواع الزهر للساجدين العابدين فيسهل لهم مهمتهم الضالة ٠٠ ومن يدرى فقد يكون بائع هذا الزهر ، وهو فى الخمسينات من عمره ، هو المنشيء لهذا القبر طلبا للرزق ، ولعل القبر نفسه خال الا من التراب على طريقة احد القبرين اللذين اسلفت ذكرهما عند مغادرتنا لمدينة بنبازس ٠٠

وعدت الى السيارة متفطر القلب من الاسى على ناس يسمونهم مسلمين وليس عندهم من الاسلام مقدار حبة خردل ٠٠ ولا يجدون من يهدى اليهم كلمة تذكير ٠٠

واقبل رجل ملتح من مطعم مجاور يريد ان يسلم على تكرمة لثوبى العربى ، فسألته : لماذا تسكتون على هذا المنكر ؟ ٠٠ اليس لهذا المخلوق المضلل من حق عليكم ؟ ٠٠

ولقد غادرت يومئذ بومبای وفى خيالى صورة لا تمحى لذينك القبرين المعبودين من دون الله ، وبخشوع يفتقده الكثيرون من اهل التوحيد ٠٠

ولا حول ولا قوة الا بالله ٠٠

حوار مع الشيعة :

كنت أكتب بعض مشاهداتى حين دخل على الفتى العراقى ـ مرافق والده المريض ـ ومعه أحد شيوخ الشيعة العراقيين ، وطبيعى أنى عرفته من زيه المميز ، واثنان آخران من العرب أيضا ٠ وأعرب الرجلان عن سرورهما بلقائى لانهما ـ على حد تعبيرهما ـ سبقت لهما معرفتى من خلال ما يقرآن لى ٠ ٠وأظهر الفتى أسفه لانه لم يعرف اسمى إلا بعد مغادرته الدار التى كان اجتماعنا فيها مع الشيخ أبى الحسن ٠٠

وبادروا فأبلغانى رغبة من وراءهم من كبار الشيوخ فى لقائى ، وعلى رأسهم ذلك المندوب الذى يمثل كبير مراجع الشيعة ، الذى كان يريد زيارتى لولا انشغال وقته بمقابلة الزائرين الذين لا ينقطع سيلهم ٠٠ ودعوانى الى مرافقتهم بالسيارة الواقفة بالانتظار ٠٠ فأعتذرت بأن وقتنا مشغول كله طوال ذلك اليوم ، وبعضه فى الغداء مع أبى الحسن ٠٠ واتفقنا على أن نتصل بهم هاتفيا لنخبرهم بما استقر عليه الرأى ضحى الغد ٠٠

ولقد عرضت أمر هذه الدعوة على فضيلة الاخ أبى الحسن فلم ير بأسا فى الاجابة ما دمت أرى فى ذلك مجالا للتعاون على تخفيف شدة متعصبيهم عن التحرش بمقدسات أهل السنة ، كما لاحظنا فى فتنة لكناو ، حيث أراد الشيعة الخروج فى موكبهم التقليدى الذى يعلنون فيه الاساءة الى صفوة رجال الاسلام ٠٠ وكادت تقع الواقعة لولا لطف الله بتدخل السلطة التى حجزت بين الفريقين ـ كما اسلفنا ـ ٠٠

وفى الموعد المضروب اتصلت بالقوم على الرقم الذى حددوه، وبعد ما يقارب نصف الساعة أقبل الفتى بالسيارة ، فأقلنا الى مقر المندوب الذى استقبلنا بالترحاب ، ويبدو أنه يعرفنى فعلا من خلال بعض آثارى ، وقد جعل يذكر منها مالا أذكره ، وقد رغب الى ان أؤمن له نسخة من ديوانى الثانى (همسات قلب) فوعدته خيرا ٠٠

ولقد وجدت المندوب الشاب عالى الثقافة فصيحا مبينا ٠ ٠ ودار الحديث بيننا حول حاجة المسلمين الى التوحد والتعاون ٠٠ وكان مما قلته له : كيف تريدون من أهل السنة تقاربا وهم يسمعون الى غوغائكم يرفعون عقائرهم بالتحدى لمشاعرهم واعلان عداوتهم ! ٠٠ وضربت له مثلا بحوادث لكناو وغيرها ٠٠ فكان تجاوبه تاما معنا ، واعلن ان علماء الشيعة أبلوا العوام ان ذلك التحدى حرام

قطعا ، فقلت من الخير أن تصدروا بيانا مكتوبا بذلك حتى تسكت تلك الالسنة التي تتغذى بالفتنة ٠٠ فقال : ان اساس المشكلة هو انصياع العامة الى دسائس الساسة الذين لا يخافون الله ، ولا يرعون مصلحة المسلمين ٠٠ وضرب لذلك مثلا أن هذه الفتن لا تنبعث فى الهند الا على مشارف الانتخابات فى الغالب ٠٠

واخيرا عرض رغبته فى زيارة الشيخ أبى الحسن للبحث معه حول الدعوة الى مؤتمر يضم كبار علماء الفريقين ، وفيه يتفقون على الاصول التى تقمع الفساد ، وتصون الوحدة ، ويصدر عنه بيان يعلن موضوع الاتفاق ، ويدعو الامة الى التزامه ، على ان يعتبر الخارج عنه خارجا على مصلحة الامة ٠٠

وبما ان هذا العرض يتفق مع افكارى الخاصة فى هذا الجانب ، فقد وعدته بأن أنقل رغبته الى سماحة الشيخ ، واستطلع رأيه فى اللقاء المنشود ٠٠ وافترقنا على ذلك ٠٠ وفى طريقنا الى المطار رجوت من صاحب السيارة الشيخ علاء الدين ان يعرج بنا على منزل الشيخ محمد حى ، صاحب شركة الحافلات العاملة بين بومباى ومهرات ، وهناك ودعت نزيله فضيلة الشيخ أبى الحسن ، وأبلغته أمنية الرجل فوافق عليها ، ولم ير بأسا فى استقباله ٠٠ وتركت لابى سحبان تحديد الموعد وابلاغه المندوب ٠٠

المؤنس الحبيب :

وكانت الساعة السابعة ـ بتوقيت الهند ـ عندما ارتفعت بنا الطائرة السعودية الترايستار الى الاعالى ، برعاية الله لتأخذ سمتها باتجاه الظهران فجدة ٠٠

وشد ما كان سرورى كبيرا حين انطلق صوت المذيع فى القلعة الطائرة يعلن للركب البلاغات المعتادة عن الوقت والمدى والاتجاه ومواعيد الهبوط والصعود ٠٠

وانما جاء السرور من ارسال ذلك الاعلان بلغة القرآن ، ومتوجا بأحب الكلمات الى قلوب أهل الايمان : (بسم الله الرحمن الرحيم) لقد كان ذلك النغم بمثابة البشرى تطرق سمع المستوحش ، وقد سمع بغتة صوت مؤنسه الحبيب ٠٠

ويا ليت ذلك المذيع قد أتم ايناسه فقرأ على الركب الغافل عن

اهمية مسبحه في ذاك الفضاء ، الذى لا سلطان فيه الا الله الواحد القهار ٠٠ ليته اتم فتلا علينا آيات من كتاب الله تذكرنا بموقعنـــا الخطير ، وحاجتنا الماســة الى رحمة اللطيف الخبير القدير ، كمثل قوله تعالى : ((فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ـ ١٢٥ الانعـام) ٠٠

أو قوله عــز من قائل : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بهـا جاءتها ريـح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعـوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ـ ٢٢ ـ فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق ٠ يا أيهـا الناس انما بغيكم على أنفسكم متــاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم فننبئكم بمـا كنتم تعملون ـ ٢٣ ـ يونس) ٠٠

وكم سيكون مفيدا أن تتبع هذه الآيات بشرح وجيز يذكر الانسان بمبدئه ومصيره وواقعه فى الوجود ، وحاجته الدائمة الى موجـد الوجود ٠٠ فتكون الرحلة مغمورة برحماته ومحفوفة ببركاته ٠٠

وحبذا لو يكون ذلك ديدن الطيران السعودى فى كل رحلة ، على أن تكون ثمـة آيات تتبعها شروح مكثفة ومسجلة لطائفة مختارة من اكابر مفكرى الاسلام ، وبمختلف اللغات العالمية ٠٠

ومن أحق من الخطوط السعودية بهذه المأثرة التى لم يسبق اليهـا حتى الان ٠٠ ولا جــرم سيكون لهذا الخير مردوده المشكور . ولا سيما فى أيــام الحج ٠٠

امنيــة لعلهـا تتحقـق :

وانظر الساعة فى الجزء الاخير من مذكراتى عن هذه الرحلة فاقرأ الكلمات التاليــة :

فى قاعة الانتظـــار من مطـــار بومباى ، ألفيت نفسى فى جوار لا احســد عليه ٠ فها هنا عجوزان هندوسيان ينتظران مثلى موعـد الانتقال الى الطائرة ، وقد ارتدت المرأة منهما السارى الوثنى ، تعرض بطنهـا وظهرها فى قحـة القرود ٠٠ ثم يكون مكانهما فى الطائـرة بنفس الجـوار حتى هبطت الطـائرة فى مرفأ الظهران ٠٠ وعلى الرغم

من تبدل الامكنة لدى استئناف الرحلة ظل حظى هو نفسه من ذلك الجوار البغيض ·· واستمر هذا اللقـــاء الكرهى حتى الهبوط الاخير فى مطار جـــدة ··

ولكم تسءلت : أليس من حق حمـــاة الامن والآداب فى هـــذه المملكة العزيزة أن يلزموا نزلاءها باحترام فضائلها ولا أقول تقاليدها ، كما يفعل شرطة الاخلاق فى بعض الولايات الامريكية ، حيث يقطعون كل كعب لحذاء امرأة يزيد ارتفاعه عن الحد المقرر بمنشار خاص يتسلحون به لهذه الغـــاية ·· ولا يسمى أحد ذلك التصرف عدوانا على الحريات الشـــخصية ··

الى مهبـــط الـــوحى :

وكان وصولنا مينـــاء جـــدة بعد الساعة الواحدة من نصـف ليل الثلاثين من صفر الخير ، أى فى الثانى من ربيع الاول على حساب الهنـــد ·· ولم يكن ثمـــة من رحلات المدينة الحبيبة سوى واحـــدة توشـك على الاقلاع ·· وحسب المألوف من رعاية الله تبارك اسمه وافانا الخـــير على يد موظف كـــريم فى قسم العبور ـ الترانزيت ـ ما أن علم بأمرى حتى انطلق لانجاز كل الاجراءات اللازمة لسفرى ، وفى أقل من ربع الساعة كنت فى سيارة المطـــار مع أمتعتى الى الطائرة ·· وأحببت أن أتعرف اسم ذلك المحسن فاذا هو صبحى الساسى ، الذى لم أعـــرفه ولم يعرفنى قط ، وما احسبنى بقادر على نسيان هذا الاسم ما دمت أقدر عمل المحسنين ·· جـــزاه الله عنى كل خـــير ··

وبذلك تمت نعمـــة الله على فعدت الى مهبط الوحى فى الليـــلة نفسها التى غادرت فى مطلعها بومباى ، وذلك بعـــد ثمانية وعشـــرين يوما من فراقه ·· وكان الفـــرق بين الزمنين ساعتين ونصف الساعة دون زيادة ولا نقصـــان ··

وبهذه الحلقـــة تنتهى انطباعاتى عن تلك الرحلة لنبدأ الحديث عن الرحلة التالية ان شاء الله ··

العـــودة الى لكنـــاو :

السبت ٧-٦-١٤٠١ هـ ٠

ها نحن أولاء فى أحضان التريستار السعودية تشق بنا أجواز الفضاء باتجاه الهند ٠٠

وبعد استراحة قصيرة فى مطـار الرياض استأنفت الطائرة انطلاقتها ٠ وكانت ليلة ناعمة لم نكد نستشعر مرور ساعاتها الست ، التى قضينا أكثرها نيـاما حتى حطت بثقلها فى مطار دهلى ، وكان ذلك فى تمـام الساعة ½ ٥ مع صبـاح الاحد بتوقيت المدينة ، أى الساعة الثامنة من يوم الثلاثاء بتوقيت الهند ٠٠

وعند ما أثبت التوقيتين على هذا الوجه فانما أريد اشعار القارىء بجهلى لهذا الفرق بين أيام دهلى وأيام جـدة ، فحتى الان لم أوفق الى حـل هذا اللغز ، وبخاصة بعد ذلك البحث العلمى الذى قرأته ذات يوم فى احدى المجلات الاسلامية مؤكدا ان ليس بين طنجـة وجاكرتا ، من الزمن والحيز الجغرافى ، ما يؤلف يوما كاملا ، ومعنى ذلك ان ثبوت رمضـان فى اى بلد على امتداد ذلك الخط يشمل بحكمه كل سكانه من المسلمين دون تفريق ٠٠

ومرة ثانية اعترف بجهلى المطبق لهذه القضية ، ولكن هذا لا يخفف من حيرتى وأنا أرى الاندونيسى يصوم بعد سكان الحرمين بيوم ، والهندى والباكستانى يصـوم بعدهم بيومين ! ٠٠

وفى مطـار دهلى أعاننا الله بأخ فاضـل هو الدكتور عباس الندوى فانجـز لنا الاجراءات النظامية بمنتهى اليسر ، وأراحنا من مشقة لا بد منها ، وبخاصة ان ليس بيننا ، نحن الاربعة مندوبى الجامعـة الاسلامية الى النـدوة العالمية للادب الاسلامى فى لكناو ، من يحسـن حل عبارة من لغـة القـوم ، اللهم الا الاخ الدكتور عبد الباسـط بـدر ، الذى يستطيع التحرك ضمن نطاق محدود من اللغة الأنجليزية ٠ وأبى الدكتور عباس أن يدعنا قبل أن يؤمن لنا سائر ما يعوزنا ٠ وها نحن أولاء بمسعاه الحميد نحتـل حجرتين صالحتين من فنـدق (أمبريال) احتجز كل اثنين منـا احداهما ٠٠ وكان حظى من الرفاق صـاحب الدكتوراه الآتية ، ان شاء الله الشيخ عبد الله القادرى ، عميد كلية اللغة العربيـة بالجامعة ، وهو الاخ القديم الحبيب ، الذى زوده الله

بنشاط فى الجسم ، وبسطة فى العلم ، وقدرة عجيبة على اختراع (المقالب) التى توتر انتباهك ، وتجعلك فى حذر دائم ٠٠ وكفى بهذه (المواهب) باعثا على الحركة التى تجعل للحياة معنى جميلا ٠٠

معـــالم دهــــلى :

وقد أسلفت القـــول بأننى سأفرد لدهلى مجالا خاصا فى هـــذه الحلقات يوفيها بعض ما تستحق آثارها الاسلامية من اهتمام ، وها انذا استدرك من ذلك ما فـــات ٠٠

لقد كان نزولى فى دهلى من قبل على طريقة العبور ـ الترانزيت ـ فلم اقم فيها اكثر من الوقت الذى يتسع للانتقال من طائرة الى اخرى ، لذلك كان أسفى غير قليل عندما اسمع بعض الاخوان يلومنى على حرمان نفسى متعـــة النظر الى مخلفات الحكم الاسلامى فى ذلك البلد ، الذى كان فى زمن ما مركزا هاما للحضارة التى شيدها نشـــاط المسلمين فى مختلف جـــوانب الحيـــاة ٠٠

فهى اذن فرصـــــة لاستدراك ما فـــات ٠٠

واول هذه المعالم التى قصدنا اليها المنارة المشهورة باسم السلطان قطب الدين ، وقد التقينا فى ظلها بالاديب الكبير الاستاذ عبد العـــــزيز الرفاعى ٠ والحق انها أعجوبة الفن والسرف فهى برج لا يقل اهمية عن برج ايفـــل ، الذى هو مفخرة باريس ومهوى أنظـــار الســـواح من شتى انحاء العالم ٠٠ وما أحسب الباعث على انشائها هو الشعور الدينى وحـــده ، بل لا بد أن يكون ثمـــة أمران اخران أيضا ، أحدهما هـــو ارادة التحدى لمعالم الحضارات الوثنية ، والثانى هو الرغبة فى اثبات الذات على طريقة المعاصرين من رجال الحكم فى تخليد مآثرهم ، بأمثال هذه البنى التى يشتد فيها تنافسهم ٠٠

ومما يؤكـــد التقـــدير الاول كـــون هـــذه المنارة الهائلة تقـــوم فى وسط تكثر فيه أطلال المعابد الوثنية ٠٠

منـــارة قطب الـــدين :

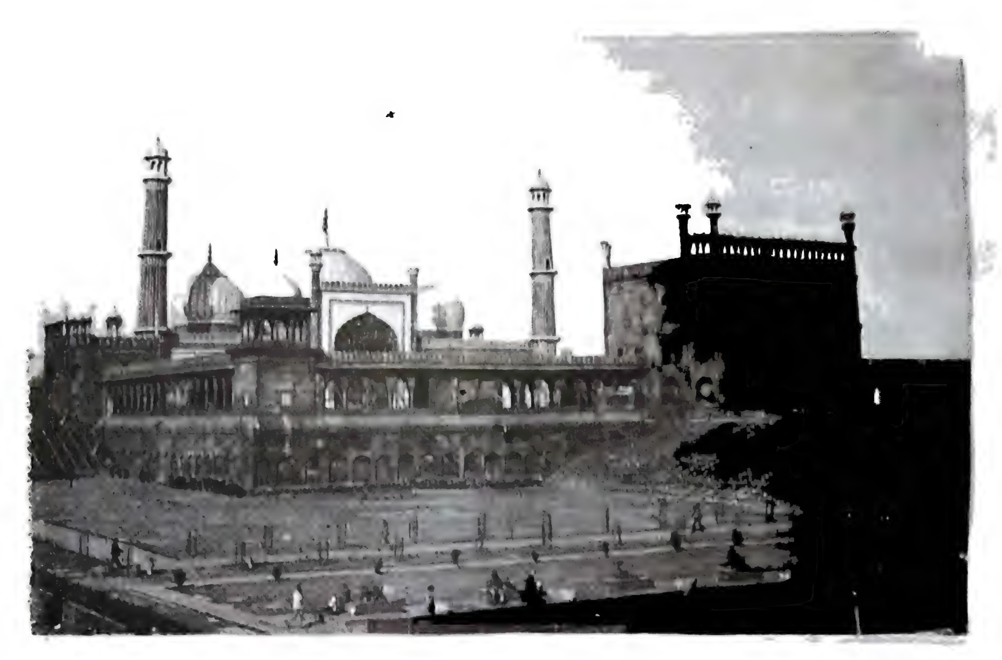
والى القـــارىء صورة مصغرة عن هذا المعلم العجيب فى ضخامته وارتفاعه ونقوشـــه ٠٠



أطلال بعض المشـــات الملكية بجوار منارة قطب الدين بدلهى



قصر الرئاســـة بدلهى



مسـجد دلهى الكبيـر



المدفن الملكي بدلهى

هذه المئابرة تتخذ شكل مجموعة من الاعمـــدة الذاهبة الى الاعالى حيث تؤلف خمسة أدوار ، فى جـوف كل منها سلم يصعد الى شرفتـه على ١٩٧ درجة ·· وقد طـــوق كل دور منها بالآيات القرآنية بارزة بأروع الخطوط ·· واستغرقت قاعدة المنـــارة ما لا يقل بنظـــرى عن أربعمئة من الامتار المربعة ··

وقد باشر السلطان قطب الدين بنـــاء الدور الاول ، ثم تـــلاه السلطان التمش فأتم الثانى والثالث ، ثم جـــاء بعدهما فيروز شــاه تغلق فأتم بقيـــة الادوار ·· وهكذا تتابع على بناء هذا الاثر ثلاثة من سلاطين دهلى ، ولا بد انه التهم مئات الملايين من خزائنهم ··

ويقابل المنــارة هـــذه قاعدة منـــارة اخـرى من الطراز نفسـه بوشر ببناء دورها الاول ، ولكنه لم يتم منـــه سوى الدعائم الداخلية ، فبقيت عـــارية من كسوة الفن الذى ارتدته المنارة الاولى ولا ندرى ما الذى عرض لبناتها حتى توقفوا ·· ولعل الحائل دون ذلك عائد الى الحـــروب أو الى الافـــلاس ··

واطـــــلال تاريخيـــــة :

وفى جـــوار المنارة التامة اطلال مدرسة يبدو انها كانت خاصـــة بأبناء الحكـــام ، يتعلمون فيها القـــرآن الكريم وما لا بد منـــه لامثالهم من الثقافة الاسلامية ، وقد زينت بالزخارف والنقوش ، وطوقت جوانبها بالآيات القرآنيـــة ، وهناك قاعدة خاصة بضريح السلطان التمش وهى عبارة عن مربع كبير بولغ فى أناقته وبرز فى وسطه الصـــندوق الرخامى الذى يرمز الى مثواه ، وتحت مدخل المربع درج يوصـــل الى القبر الحقيقى الواقع أسفل ذلك الشكل الرمزى ، وهو الطـــراز الذى شهدنا مثله فى (تاج محـــل) بأكرا ، ويظهـــر أنه هو الوضع التقليدى المتبع فى مدافن الملوك أثنائئذ ··

والى جانب الساحة المخصصة لمسجد كان مقدرا ان يقوم هناك ، وان يكون متناسبا مع عظمة المنارتين ، بقية من أطلال معبد وثنى لا يزال معرضـــا لانواع من الاعمال الفنيـــة البالغة الدقة ، وقد نظمت بينهـــا ضروب من التماثيل تصور بعض معبوداتهم ، وطائفة من راقصى المعابد ··

وحـــول المنارتين والاطلال فسحة رحبة من الارض فرشت بأمثال النسيج الحريرى من العشب الدائم الخضرة ··

وكان من تمــام المتعة ان وجدنا هناك بعض الباعة الذين يعرضون المصنوعات الوطنية ، وبينها مجموعات من الرسوم التى تصور هـــذه البقعة بما تشمله من الآثار التاريخية والفنية ، الى جانب العديد من الرسوم المختلفة لمعالم دهلى التاريخيــة ..

وتصرمت ساعات فى هذه الجولة السياحية ، لم نستشعر مرورها حتى نبهنا أحد الاخوان .. فانصرفنا الى الفندق ، على نية أن نستأنف الحركة بالقصد الى المسجد الجامع ، مسجد شاه جهان الذى لا مندوحة للسائح الطلعة من زيارته ..

المســـجد الجـــامع :

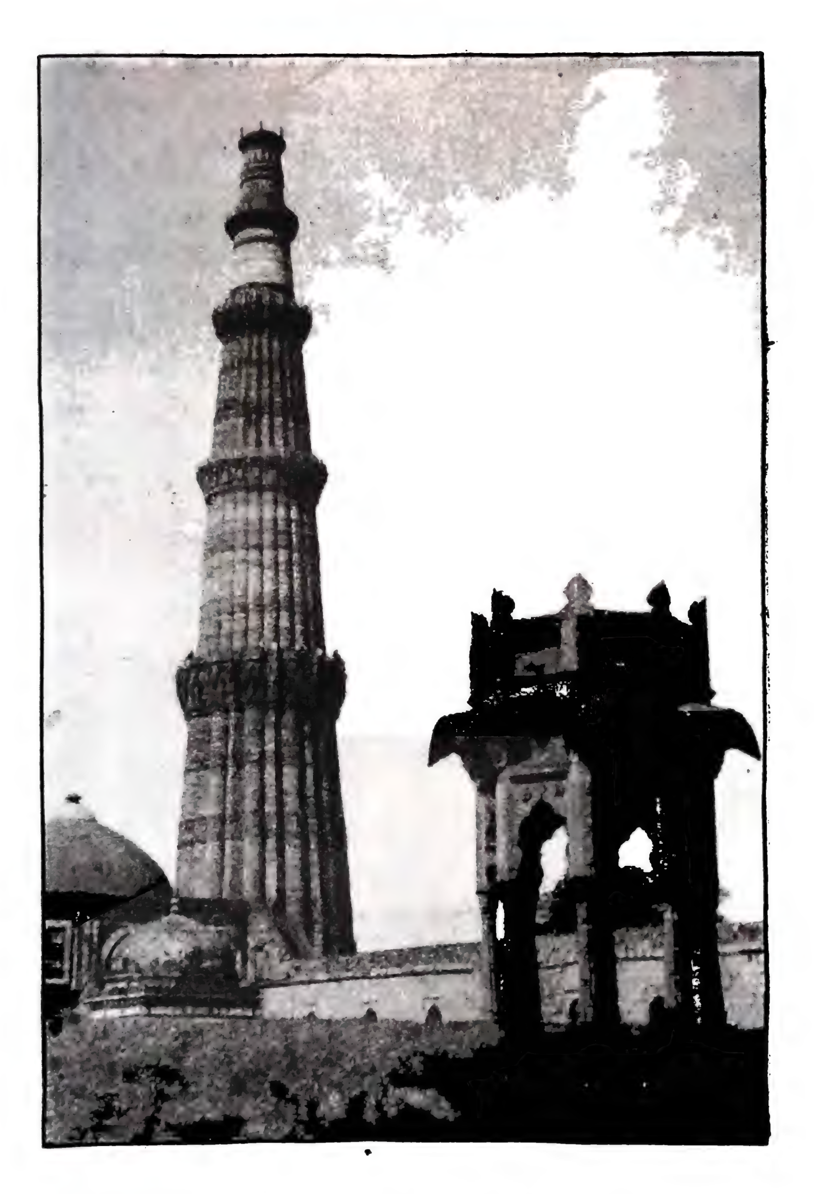
يقع هذا المسجد الجامع فى القسم القديم من المدينة ، ويمـــيز القسم الاخر عنه باسم (نيودلهى) اى دلهى الجديدة ، لانه الجانب الذى أحدثته بريطانية ، فارادت ان تصرف به الاذهان عن ماضى المدينة حتى بالعدوان على الاسم ، اذ غيرت موضع اللام منه فصار دلهى بـــدل دهلى ..

وأول ما يواجهك من دهلى القديمة مظاهر التخلف كأنهـــا شىء متعمد لابقـــاء سكانه ، وكثرتهم من المسلمين ، فى وضع اقرب ما يكون الى ما كانوا عليه قبـــل التطـــور العمرانى ، الذى يشمل كل شىء فى دلهى الجديدة : الشوارع العريضة المظللة ، والعمائر الشـــوامخ ، وبخاصة الفنادق العالمية ..

والغريب ان اكثر ما تواجهه هنـــا من وسائل المواصلات المحليـة هو الريتشاك ـ الدراجة الثلاثية التى يقودها الانسان ـ وهى التى لا تلمح لها اثـرا فى نيودلهى ! ..

وها هو ذا المسجد الجـــامع .. انه يعلو عن الشارع ثلاثين درجة ، وتدخل الى فنائه المربع الفسيح من احد ابوابه الثلاثة ، ومن هذا الفناء تصعد بعض الدرجات الى المبنى الكبير ، وهو مستطيل وذو امتداد كبير ، ويتسع فى الداخل والخارج لعشرات الالاف من المصلين ..

وصلينا المغــرب فى الصف الاول من الفناء بعد انفضاض الجماعة التى لم ندركهـــا ..



منظر اخر لمنــارة قطب الدين فى دلهى



واجهة أحد القصــور الملكية فى القلعة الحمراء بدلهى

وكانت الاضاءة ضعيفة وحزينة ، وظاهرة الفقر والتخلف ماثلة فى كل شىء هنا ٠٠ حتى فى صنابير الوضوء التى بعد عهدها بالماء ، ولعل أبرزها وفرة المتسولين من عجزة النساء والصبيان والشيوخ ، الذين يستقبلونك على مداخل المسجد ، وفى الشارع المواجه ٠٠ ولهم الحاح عجيب لا تعرف كيف تتخلص منه ٠٠

ذكرى المذابح :

وقال بعض رفاقنا ونحن نهبط آخر درجات السلم الحجرى الى الشارع : هنا قام العديد من مذابح المسلمين التى قادها سنجاى بن انديرا غاندى ، ولا سيما فى أعقاب عملية التقسيم بين الهند وباكستان٠

ولا ننسى ونحن نشير الى المذابح الجديدة ، أن نذكر القارىء ببعض ما أسلفنا من ان دهلى ، ذات الماضى الاسلامى العريق ، والمعالم التاريخية الرائعة ، قد شهدت قبل ذلك ابادة العشرات من الوف المسلمين على ايدى المستعمرين الانجليز وحلفائهم من السيك ٠٠

ولعل ذكر هذه وتلك من مذابح المسلمين قد أصبح من الاخبار المألوفة التى تقرع سمع القارىء صباح مساء ، ومن كل جانب من الارض فلم تعد تستحق منه التأمل فضلا عن التوجع !٠٠

ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠٠

فى القلعـــة الحمـــراء :

فى الساعة ٤٥ر٩ من صباح اليوم وصلنا بسيارة الاجرة الى ميدان (القلعة الحمراء) وهى احدى المعالم الكبرى من آثـار الحضارة الاسلامية فى الهند ، ولا بد ان يكون لاسمها علاقة بلون حجارتها الخارجيـــــة الحمـــراء ٠٠

انهـا بنـاء هـائل فى الحجم والسعة والتخطيط والاعمال الفنيـة التى يتعذر تعدادها بله وصفها ٠٠

يحيط بها سور لا يزال محتفظا بسلامته ودقة صنعه ، مبنى بالحجارة المتناظرة بقياس ٥٠ × ٥٠ سم على وجـه التقريب ، ويعلو قرابة الخمسة من الامتار ، فى اربعة من الصفوف ، يفصل كل واحد عن الاخر طنـف كالقلادة يطوق السور كله ، ويؤلف الصف الرابع والاخير منها مقـاطع تزيينية مفرجة ، تتخللها مراقب مقببة رشيقة كانها المظال ، ينطلق من أعلى وسط كل منها ما يشبه الحربة ، وبين المرقب والاخر مسافات متوازنة لا يقل الواحد عن المئة من الامتار ٠٠

ويجارى لامتداد الســور الطويل خندق منتظم لا بد انه كان يمتلى عند الحاجة بالماء يتدفق اليه من نهر (جمنـــة) الذى يجاور القلعـة من جهـــة الشمال ٠٠

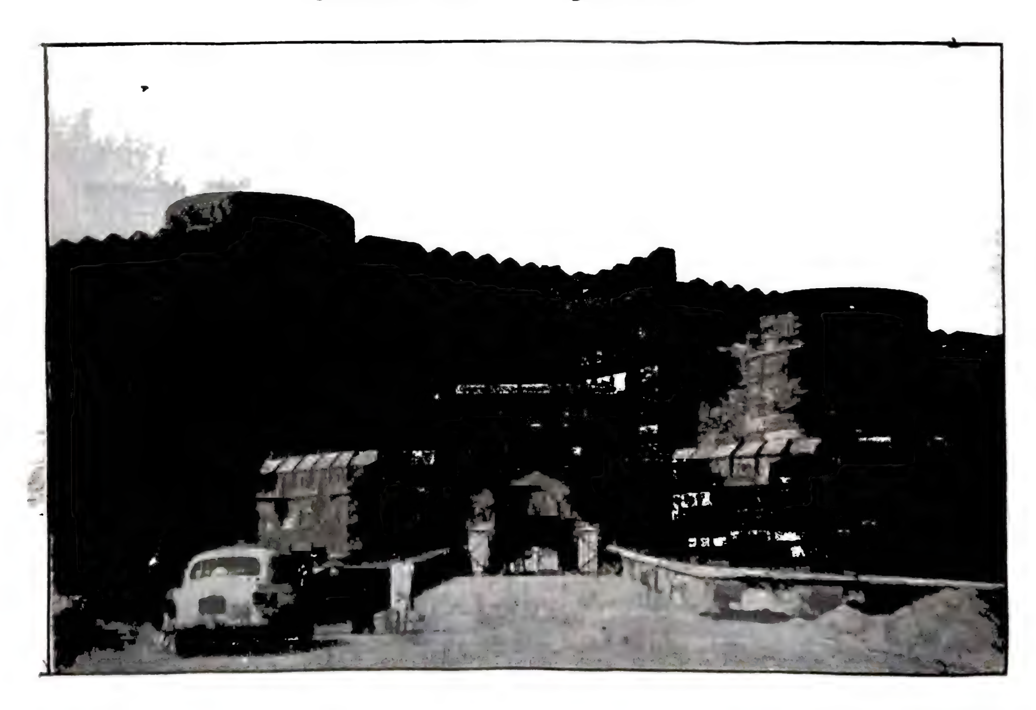
ودلفنا الى داخل القلعة بعد أداء الرسم المعتاد ، فاذا نحن تلقاء مدينة كاملة ٠٠ شوارع ومساكن وحدائق وحوانيت بارعة العرض ، فيها روائع التحف من صناعة الهند ٠ ٠

تـاريخ عهـدين :

كل شىء من هذه القلعة الجبارة يؤكد انها بنيت فى الاصل لتكون مقـــر الاسرة الحاكمة ، والثكنة العسكرية المشحونة بالجنود والاسلحة لحماية المنطقة من المفاجآت ٠٠ وقد اعدت فيها المرافق التى توفر وسائل الحيـــاة لمجتمع قد يصل الى العشرة الالاف من السكان فى حــــالات الـــطوارىء ٠٠

وتمثل منشـــآت القلعة عهود المسلمين ، الى جانبهـــا آثـــار المستعمرين الذين اتخذوا منها ــ كما يبدو ــ مقرا لكبار قادتهم وحكامهم

مســجد فى القلعة الحمــراء بدلهى



القلعة الحمراء فى أكرا

٠٠ ولكن الفارق بين الظاهرتين كبير ، اذ تمثل الاولى قمة الترف والقوة، على حين تصور معالم الدخلاء مجرد البساطة المرتكزة على التفكير البعيد ٠٠

ولنقف قليلا على بعض الاثار الملكية من عهود ما قبل الاستعمار ٠٠ حيث نشاهد الديوان العام ، وهو رواق كبير يتسع لالف انسان ٠ وقد أطلت عليه من صدر القصر سدة مقببة بشكل هندسي عجيب ، شيدت بالرخام اللبنى ، ورصعت بالنقوش والصور الاخاذة ٠٠ وبين يدى السدة على مستوى أرض الرواق مائدة رخامية من اللون اللبنى نفسه ٠ والظاهر من تنظيم هذه الاثار انها جعلت على هذا الوضع لتكون ملتقى الملك مع اساطين دولته او مبعوثى الحكومات الاخرى ، يجلس لهم فى أعلى السدة ، التى يخرج اليها من باب خلفها ، وينتظم الكتاب حول المائدة مستعدين لكتابة ما يسمعون على سجلاتهم الخاصة ٠٠

وسيكون هذا الوصف كله ناقصا اذا لم أشر الى نوعية تلك النقوش والتصاوير المرسومة على السدة والمائدة ، ذلك ان كل رسم هناك يمثل لونه الطبيعى ، لا بالادهان بل بأنواع الحجارة الكريمة التى فصلت مقاديرها ، ونزلت فى مواضعها ، بدقة وصبر واناة لا يمكن تصورها ، وسأقص على القارىء ان شاء الله طرفا من هذا الفن ، الذى انقرض من سائر بلاد العالم الا هنا وبخاصة فى مدينة أكرا التى تحتفظ بالبقية الباقية من ورثاء هذه الصناعة المدهشة ٠٠

مسجد عالمكير :

ومن هذه السدة الملكية الى مسجد السلطان الصالح عالمكير أورنك زيب ٠٠

وعلى مدخل المسجد يواجهك اللوح الذى يؤرخ بناءه بالعام ١٦٥٩، ومنذ النظرة الاولى الى ظاهره وباطنه ندرك انه جزء لا يتجزأ من هذا المتحف العجائبى ٠٠

انه مظهر بأروع الرخام المرصع بالزخارف المؤطرة . والمنزلة بالفصوص الملونة ٠٠ وقيل انه كان فى هذا المسجد درة نادرة المثال سرقها الانجليز فى ما سرقوا من نفائس هذه القصور ٠٠ واحسبها هى التى تحدثت عنها الصحف العالمية مؤخرا على انها اكبر درة فى العالم تزين التاج البريطانى ٠٠ وان حكومة الهند قد شرعت تطالب باستردادها ٠٠

الاســتراحة الملكيــة :

ومن ثم الى الاستراحة التى يظن انها مصممة لاستقبال كبـار الزوار ، وكل جـزء منها غارق بألوان النقوش ، وقد رصعت أسـقفها بالذهبيات الفائقة ، وعلى أحدها بيت من الشـعر الفارسى ترجم لنـا بالعبارة التالية (اذا كان فى الارض جنة فهذه ٠٠) ٠٠

ومن أعاجيب هــذه الاستراحة المطلة على نهر جمنة تلك المنضدة الرخامية الأخرى التى تذكرنا دقائقها الهندسية بأخبار المائدة ، التى غنمها الفاتحان العظيمان موسى بن نصير وطـارق بن زيـاد من انتصاراتهما فى الأندلس ، فكانت السبب فى أفجع مأساة لقيها واحد من أكـابر أبطال الاسـلام ! ٠٠

وبعد ساعات عديدة فرت من أعمارنا كذلك دون انتباه ، قفلنـا عائدين الى الباب الذى دخلنا منه ، وهو أحد الابواب الاربعة التى لم نـر منها سوى المسمى باللاهورى ، على حين تحمل الاخريات أسماء الدهلوى والجمنى والسليمى ٠٠

ولم نجد حافزا للنظر فى آثـار المستعمرين ، بعد أن امتلأت صدورنا بالمواعظ التى خلفتها فى قلوبنا آثـار المسلمين ٠٠

فى مركــز الجماعــة :

وكانت مناسبة صالحة ان تضم ذكريات القديم من ماضى الاسلام فى دهلى . بعض المعلومات عن حاضر العمل الاسلامى ايضا ، وقد تم لنا ذلك من خلال زيارتنا لمركز الجماعة الاسلامية ، التى لا يسع منكـرا اسلاميا ان يغفل اثرها العميق فى مسيرة الفكر الاسلامى ، لا فى الهند وحدها بل على مستوى العالم الاسلامى بأجمعه ٠٠

والداخل الى هذا المركز المتواضع ، بل المسرف فى التواضـع ، عقيب خروجه من قصور القلعة الحمراء وأطلال السلطان قطب ٠٠ لا بد أن تمر فى خاطره لمحة من المقارنة بين الامس واليوم ، بـين الترف الطاغى ، الذى حبس حكـام المسلمين فى نطاق المتعة العابرة فسخروا لها كل شىء ٠٠ الوقت والارض والانسان والمال ٠٠ فلما استوفوا حظهم من هذه الظلال الخادعة ، مضوا الى ربهم ليواجهوا حسابه على ما فرطوا فى حق الاسلام ، وحق الضائعين من البشر على أهل الاسلام ٠٠ ثـم صورة الحاضر الآسى الذى انتهى اليه اعقاب اولئك الغافلين ، وقـد جردوا من كل قوة الا ايمانهم بهذا الاسلام ، وتصميمهم على تـداركه ما فات آباءهم من ابراز محاسنه وتعميق الوعى لحقائقه القيمة المضيئة ٠٠

واستقبلنا فى مقر الجماعة اميرها الوقور الشيخ محمد يوسف ، واميتها العام الشيخ افضل حسين .. واتخذنا معهما مجلسنا على المقاعد الخشبية العازية ، التى لا يملكون خيرا منها ، ولكنها كانت بنظرنا ابهج واجمل من تلك الارائك المتجاوزة حدود السرف ..

وتداولنا الحديث حول نشاط الجماعة ومدى جهودهم فى خدمة الدعوة ، فكان مما علمناه ان لهذا المركز فروعا منتشرة فى سائر انحاء الهند ، منها اربعمئة وثلاثة وخمسون للرجال ، وثلاثمئة وتسعة فروع للنساء . وكلا القسمين خارج عن نطاق النشاط الطلابى ، الذى يبلغ مئتين وسبعين فرعا خاصا بالطلاب ، وخمسة واربعين فرعا خاصا بالطالبات ..

نشاط يعم الهند :

وطبيعى ان يتطرق الحوار الى ميدان الاعلام ، فكان الجواب سارا جدا اذ علمنا انهم ، الى جانب عنايتهم بنشر الكتب والرسائل ، يصدرون عددا غير قليل من الصحف ربما يزيد على عشر من لغات الهند ..

وقد سبق ان تحدثنا فى احدى الحلقات عن جامعة الفلاح التابعة للجماعة في بالرياكنج القريبة من (اعظم كره) وفيها صور رائعة من النشاط الفائق ، وبخاصة فى الوسط النسوى حيث رأينا العمل جاريا فى انشاء الكلية الخاصة بهن ..

ولعل اروع ما لمسناه من مميزات هذه الجماعة هو صبرها النفسى على اذى بعض المنتسبين للعلم الاسلامى ، الذين لا ينفكون يوغرون ضدهم صدور السلطات ، وينسبون اليهم اسوأ المفتريات ! ..

والمتأمل فى اوضاع هذه الجماعة ، والناظر فى اخلاق قادتها من حيث الصبر والتواضع وصلابة العزيمة ، سواء فى الهند او باكستان ، يدرك انهم ملتزمون بسلوك مؤسسها الاصلى المودودى ، تصميما على العمل ، وصبرا على الضر ، وزهدا بمتاع الدنيا .. وهى العناصر الاساسية التى لا مناص من توافرها فى الداعين الى دين الله ، المجاهدين لاعلاء كلمته ..

واين هواة الترف فى النقوش والزخارف والبنيان ، من دعاة الهدى وجنود القرآن ! ..

والله الموفق والمستعان ..

من دهلي الى اكـــرا :

الثلاثاء ١٠ـ٦ـ١٤٠١ هـ ٠

ها نحن أولاء في مطار دهلي ننتظر موعد اقلاعنا الى مدينـــــة اكـــــرا ٠٠

لقد قررنا ألا نغادر هذه المنطقة الا بعد أن نأخذ بحظنا من مشاهدة (تاج محل) ذلك المعلم الذي أجمع واصفوه على انه أحد عجـــــائب الدنيـــا السبع ٠٠ وأنا أذكر (السبع) جـــريا مع المصطلح القديم فقط والا فمن أين استمد صاحب هذا الرأي حكمه على السبعة المشاهد على أنها سيدة العجائب العالمية ؟ ٠٠ وفي ظني أنه لا يعدو كـــونه حكما شخصيا أطلقه انسان من خلال مشاعره ، فاذا هو يجري على الالسنة دون تفكير ، وبالتالي دون تجربة ذاتية ٠٠

ومالي ولهذا التفلسف البارد ، فنحن مصممون على استعمال بصرنا في تقدير ذلك المنظور ، الذي بات أشهر من الدولار في عـالم الانسان ، ليكون حكمنا مستمدا من البصر والبصيرة جميعا بدلا من ارتكازه على السمع وحـــده ٠٠

وما ان سمعنا اسم أكـــرا على لسان المضيفة حتى هببنـــا عن مقاعدنا المصنوعة من اللدائن ، لنأخذ مواضعنا في مقدمة الصف الى مدخل الطائرة ٠٠ وهمس أحد الاخوة في سمعي بأن وسخا قــد لطخ مؤخرة ثوبي الابيض ٠ وجعل كل منا يتفقد ثوبه ، فاذا هي جميعـــا تحمل نفس الطابع من آثار المقاعد البعيدة العهد بالنظافة فلم نستغرب ذلك ما دمنا في الارض التي تجمع النقائض ، ومن ذلك أن تترك لركـاب الطائرات أن يقوموا بتنظيف مقاعد المطارات ، ولو بنقــل أوساخها الى ثيابهم ٠٠ ولا مفر لاحدنا في مثل هذا الموقف ان يتذكر نعمة الله علينـا في مطارات المملكة ، حيث يتلألأ بلاطها بصفاء المرايا النقية ٠٠ وسرعان ما قفزت بي الذاكرة هنا الى أندونيسية ، حيث تسجل النظـــــافة حـد الغلو ، حتى ليقول أحد الاصحاب : لو صب السمن على بلاط مســاجد اندونيسية لمـــا ترددت في جمعه وأكله ٠٠ ولا غرابة ان تغير المقاعد هنا الوان ثيابنا ، ما دام السواد الاعظم من السكان يتبركون ببول البقـــر وخثيه فيمسحون به وجوههم ٠٠ وكأن المعري لا يريد غيرهم بقوله :

عجبت لكسرى وأشـــياعه وغسل الوجوه ببول البقر

على ان ثمـــة وسخا أخبث من هذا كله ، هو الذي نراه في هؤلاء

السائحين الغربيين أينما اتجهنا ٠٠ وفى السيارة التى اقلتنا قبل ساعة الى هذا المطار جلست مقابلى فتاة أوربية على جانب كبير من حسن التكوين ، ولكن ما أقبح ما ظهر منها زمى تصلح جلستها فلا يستتر منها شىء شيئا ! ٠٠

ألا انها الحضارة القردية التى مسخت الانسان ذكرا أو أنثى حيوانا مفرغا من كل حس كريم ٠٠ وفى مثل هذا الموقف فليفرح المؤمنون بفضل الله ، الذى حفظ لهم انسانيتهم بالهدى ودين الحق ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠٠

فى حدائق تاج محل :

وراكب الطائرة من دهلى الى أكرا لا تزايل بصره مشاهد العمران ، تتلاحق من تحته فى الحقول والاقنية والجواد العريضة على جوانبها الاشجار الباسقة ٠ وما هى الا عشرون دقيقة حتى يجد نفسه على الارض فى مطار أكرا ٠٠ ودقائق أخرى واذا نحن على أبواب الحدائق التى تحتضن مشاهد (تاج محل) ٠٠

أول ما يستقبل القادم الى هذا المعلم العالمى فناء رحيب ، وجزء من حدائقه التى لا تبرح كثيرة الاشجار وارفة الظلال ٠٠ يقوم فى وسطه بناء ضخم يمتد يمنة ويسرة ، وفى كل من الجانبين الاروقة المسقوفة بالحجارة المستطيلة ٠ ويقول دليلنا الاكروى انها لاجتماع زائرى القبر من حملة الازاهير ٠ وفى وسط هذا البناء البوابة الهائلة التى منها يلج الداخل باتجاه القصر المنشود ، فاذا ما تجاوز البوابة هبط الى البسيط الرائع الممتد بينهما وبين القصر ، حيث يستقبله حوض مستطيل طويل لا يزال يموج به الماء ولو قليلا ، وعلى الممر الذى بجانب الحوض يأخذ سبيله الى أحد الجانبين من الدرج الرخامى الموصل الى الفسحة الانيقة ، الممتدة أمام المشهد الذى يرقد فى جوفه الزوجان (شاه جهان) وقرينته (ممتاز محل) التى سبقته الى الموت عام ١٦٣١ فكاد يفقد فى أثرها ، ثم لم يجد وسيلة يترجم بها أحزانه الا بهذا البناء الذى استغرق صنعه احدى وعشرين سنة ، وقد عملت فيه عبقريات أمة من أهل الفن وأساطين الهندسة ومهرة العمال ، الذين امتازت بهم حضارة المسلمين العمرانية فى الهند خلال



تاج محل وظله فى البحيرة



القبران الملكيان من الداخل

ذلك العهد . وبمجرد اطلالك من البوابة المقابلة للمثوى الملكى يجتـذب بصرك الطوق الباهـــر ، الذى يمتد على ثلاثة اضلاع الواجهة ، مزدانا بالأيات الكريمات من كتاب الله الخالد ، مخطوطة بأروع ما وصل اليـه الحرف العربى فى هذه الديار ..

ولا أحب أن أتعرض لمـا لا أحسنه من وصف لهذه الكتابة ، التى اكتشف فيها أولو الخبرة أسرارا عجيبة من التوازن والتظليل ، وما اليهما من الابداعات الموجهة للنظر والمؤثرة فى استشراف المنظور ، وانما اكتفى بالاشارة الى روعة الحروف ودقة التنظيم بين الكلمات والآيات ..

مرقد الزوجين الملكيين :

وها نحن أولاء أخيرا أمـــام البناء ، الذى يعده خبراء الفنـــون احدى العجائب السبع كمـــا أسلفنا .. ويعتبره أمثالى من المجـاذيب واحدا من أمثلة الترف والسرف والضياع فى تاريخ الانسان ..

انه بناء متوسط الارتفـاع بالقياس الى ما رأينـــا من قصـــور ذلك العهد حتى الان تعـــلوه القباب ، وتقوم على زواياه الاربـــع المنارات العالية ، التى لا علاقة لها بالاذان وانما هى لمجـــرد الزينة التقليدية .. التى تربط هذه الانواع من روائع الابنية بالطراز المسجدى الذى هـــو المدخل الرئيسى لمفهوم الحضارة الاسلامية ..

والبناء كله داخلا وخارجا مؤلف من ناصع الرخام الابيض ... الذى لا بد ان يكون له جماله الاضافى اذا انسكبت عليه اشعة القمـــر فى الليالى المضيئة ، كما ان له لألآءه المتالق وهو مغمور بوهج الشمس اثنـاء النهـار ..

ودخلنا البنـــاء نتفقد أقســـامه ، ونتبين روائعـــه .. ففى الوسط منه البهو الذى يضم مثالى القبرين الملكيين ، وقد جلل كل جزء منهمـا بالنقوش الغريبة ، والفصـــوص المنزلة فى أطرها المصنوعة من الذهب الخالص ، ويقال انها تتالف من مئة وخمسة وثلاثين من الالوان الطبيعية وبعضها يمثل انواعا من الزهر ، بينها واحدة كبيرة قيل لنا ان فيها اربعة وستين فصـا ، يصور كل واحد منها نظيره فى الزهرة الاصلية بحجمها الطبيعى ..

ومن روائـع الصنعة فى هذا البهو ان السادن ، الذى يتولى تعريف الزائرين بالخصائص المميزة له ، يقف ليرسل بعض الكلمات فى انشاد

خفيض ، فاذا بالصدى ينطلق فى فضاء البهو حزينا مستطيلا متناميا مستمرا ، حتى يتلاشى بالتدريج كما يتلاشى الحلم عند الانتقال الى اليقظة وطبيعى أن للسادن حظه من نقود الزائرين ، التى تلقى فى مكانها المعين بجوار الشموع المضاءة على كلا القبرين ٠٠

القبران والقاعات الثمان :

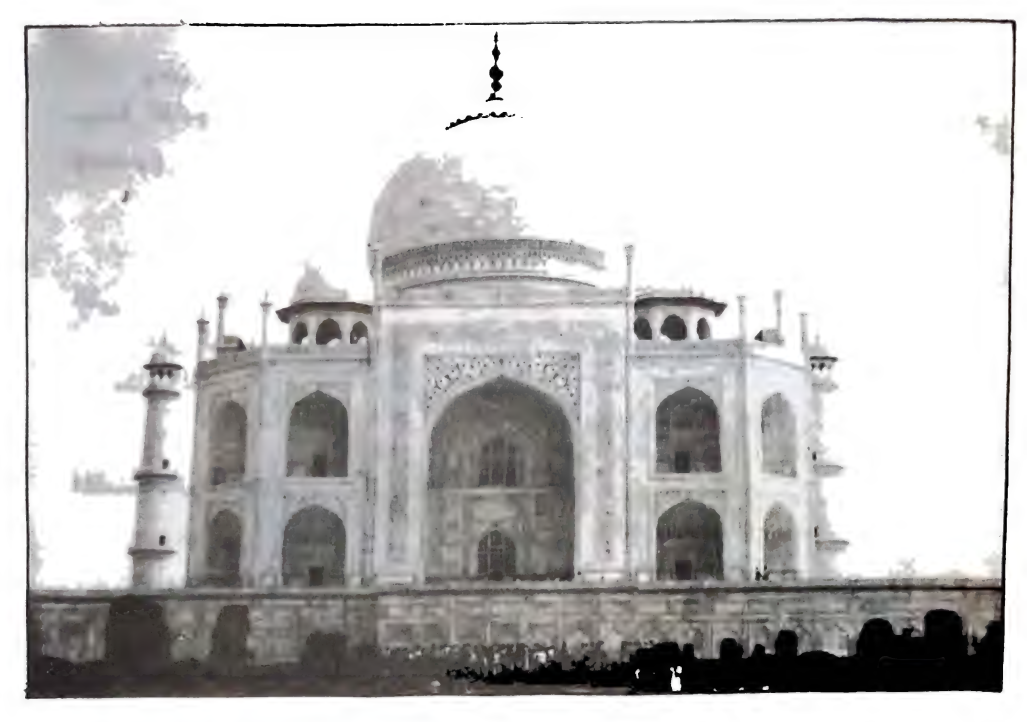
وعلى الطريقة نفسها التى رأيناها فى القبر المزدوج للسلطان التمش فى دهلى ، هكذا جعل للزوجين الملكيين ضريحا هما المزدوجان أيضا ٠٠ فتحت هذين القبرين الخاليين قاعة خاصة يقع فيها جدثاهما ، وقلما يقصدان للزيارة ٠٠ والاسفلان كالاعليين متشابهان فى الزحرف والنقش والترف ، الا ان احد الاسفلين قد طوقت جنباته بأسماء الله الحسنى مما لا اذكر أنى رأيته على غيره ٠٠

واذا تركنا بهو القبرين الملكيين الى ما حوله شاهدنا القاعات الثمانى ، التى يقال انها مخصصة للقراء ، يجتمعون فيها لتلاوة القرآن ايناسا لروحى الدفينين ٠ وفى كل من هذه القاعات منظورات لا تحصى من آثار الصنعة الفائقة التى تميز كل شىء فى هذا المكان ، وأشير منها بخاصة الى تلك المشبكات الرخامية التى أقيمت ضمن أطر النوافذ بدل المشبكات الحديدية ، التى تحصن بها نوافذ المنازل لصيانتها من اللصوص ، وهى عبارة عن صفائح كبيرة تملأ فراغ النوافذ ، وقد حفرت فيها الفروج المفرغة بأشكال هندسية غاية فى الدقة ٠٠

والعمائر الاخرى :

والان وقد فرغنا من النظر الى دواخل المشهد المشهور ، وغادرناه الى الفسحة الرخامية المحيطة به ، أعود الى مذكراتى لاقرأ فيها الكلمات التالية : من هذه الفسحة أطل على العمائر الواقعة على مسافة مئة متر من جانبى المشهد ، ففى كل من الجهتين بناء كامل بنى باللونين الابيض والاحمر ، وعليهما القباب الكثيرة والمتباينة الحجم ولا ندرى مهمة هذين البناءين ، ولعلهما انشئا فى الاصل ليكونا مساكن للخدم وللحرس ، ومضافات للزوار ٠٠

والى الغرب من الفسحة ينهض البناء الخاص بالصلاة ، وقد بنى على الطراز نفسه الذى ميز به مشهد القبرين ، وزينت أعاليه بمثل المنائر التى تعلوه ، ولولا تعريف الدليل ، بأنه هو المسجد لما أمكننا تمييزه عن سواه ٠٠



تاج محل فى مدينة أكرا



مجموعة منشـات تاج محل على كتف نهر (جمنـه)

ومن هنا أيضا ومن الجانب الشرقى الشمالى ، نطل على نهر جمنة القادم من جهة دهلى ، وهو الذى شهدناه من أعالى القلعة الحمراء يوم أمس ..

وإذا التفت الى الغرب قليلا رأيت على مبعدة ميل القلعة الواسعة التى بناها شاه أكبر ، جد السلطان الصالح عالمكير أورنك زيب .. وهى التى قررنا زيارتها عقب فراغنا من منطقة (تاج محل) ان شاء الله ..

المشغل العجيب :

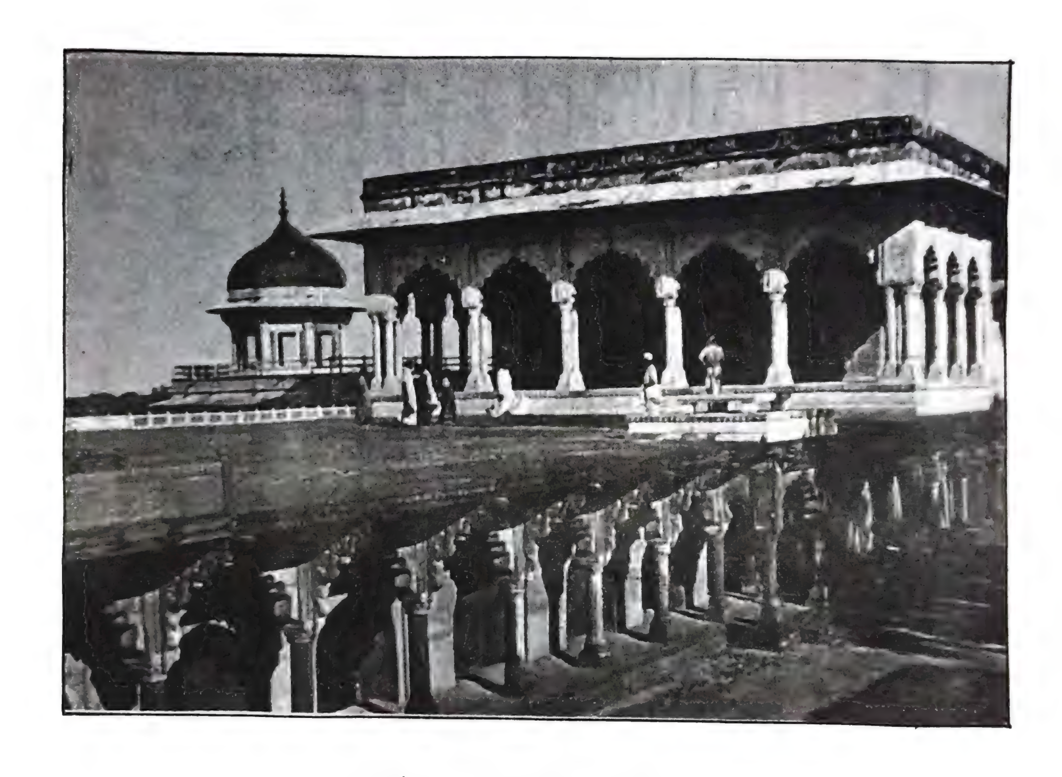
(رب صدفة خير من موعد) ..

وما أصدق هذا المثل على صدفتنا اليوم ! ..

لقد غادرنا (تاج محل) على نية الزيارة للقلعة المقابلة (ردفورد أكرا) ومعناه (قصر أكرا الاحمر) ولكن دليلنا الذى اختار لنا هذا الطريق ، قد صمم كما يبدو على ان يمر بنا على كل متجر يعرض التحف المحلية .. ولا بد ان تكون هذه من أصول حرفته ، التى حذقها فى دورات تدريبية خاصة استغرقت بزعمه ثلاث سنوات .. فتعلم خلالها كل الوسائل التى تمكن لبلده من اموال السائحين .. ومن يدرى فقد يكون له على كل سلعة نشتريها جعلا معينا ، فمن مصلحته اذن ان يقودنا الى اغلى المطاعم ، وان يطلعنا على اجمل المصنوعات المحلية الصالحة للاهداء ، وان يسهل لنا سبيل الصلوات فى أوقاتها ، وان لم يكن هو من المعنيين بأمر الصلاة ..

أجل .. انها لصدفة رائعة أن تقف السيارة بنا عند هذا المشغل العجيب الذى يدعى : (أسوال أمبر يوم) ..

ها هنا يعمل احفاد المهرة الذين حفروا ونقشوا ونحتوا وصقلوا ونزلوا الفصوص الكريمة فى متون الصفائح الرخامية ، فى تاج محل والقلعة الحمراء ، وكل الخوارق الفنية التى ابدعها ذلك العهد المترف ، الذى عاشه شاه أكبر وشاه جهان وأورنك زيب ، وهم من عظماء ملوك الاسلام فى ربوع الهند ..



الديوان الملكى فى قلعـة أكرا

انهم بقايا اسرة محمد (...) التى توارثت هذه الصناعة ، ولا تزال تعالجها على النهج نفسه ، الذى سلكه اولئك السابقون فى صنع مبدعاتهم التى لا تنفك موضع الدهشة والحيرة من الناظرين والمتأملين ..

فها هم اولا يجثون على مفرش عادى يقى ركبهم وسيقانهم صلابة الارض ، وقد اكب كل منهم على مصقله يديره باحدى يديه ، ويحرك بالاخرى الذرة الكريمة التى يريد توقيعها على مقدار الحفرة المحددة فى البلاطة التى بين يديه ..

متحف النفائس :

وهؤلاء العمال الصابرون ليسوا سواء فى البراعة ، ولذلك لا بد من أن يتفاوتوا فى الاجر ، ما بين خمس عشرة روبية ومئة وخمسين فى اليوم الواحد ..

ودعانا صاحب المشغل الى معرضه لنرى العجائب المخرسة .. مئات القطع على عشرات الاشكال ، تملأ الواجهات وتزين اركان المتحف الكبير .. ولكل قطعة ثمنها المتناسب مع نوعها وحجارتها وحجمها وزمنها .. ولكنك لن تجد واحدة باقل من الف روبية ، وقد تجد ما يلائم ثروتك حتى ثمانين الف روبية .. وهى عبارة عن لوح مستدير من الرخام اللبنى يضاهى قطره المتر ، وتنتشر على سطحه مئات ، وربما الوف الشذرات الباهرة من الياقوت والزبرجد والعقيق ، وما اليهن من الوان وانواع الحجارة الكريمة .. قد انزلت فى امكنتها المرسومة بدقة واناة استغرقتا ــ على حد قولهم ــ عمل عدة من الفنيين مدة ثلاثين شهرا .. والمعرض على اتم الاستعداد لايصال ما تشتريه من القطع المختارة الى حيث تشاء على مسئوليته .. كما هى عادته فى شحن نفائسه الى السعودية والكويت وسائر دول الخليج ..

ومن فضل الله انه لم يكن لدينا من المال ما يكفى للحصول على اية قطعة من هاتيك النفائس ، فغادرنا المشغل شاكرين حسن ضيافته التى لقينا مثلها فى كل معرض دعانا اليه ذلك الدليل ! ..

ولم نرض ان نتوقف بعد ذلك دون ابواب القلعة المنشودة ..

فى قلعة روفورد اكسرا :

وكان الارهاق قد بلغ منا عندما واجهنا مدخل القلعة الهائلة .. وعلى كتف الممر الطويل لبوح من الرخام كتب عليه خلاصة من تاريخها ومنه ان شاه اكبر قد باشر انشاءها عام ١٥٦٥ م واستمر على تعهده

الى حين وفاته ١٥٧٣ م ثم تتابع ابنائه واحفاده على استكمالها طوال خمس وتسعين سنة ..

وداخل القلعة عبارة عن مجمع من القصور المتنافسة مستقلا كل منها عن الاخر بحدوده وساحته وحديقته .. الا ان لها منافذ تصل بعضها ببعض ..

وفى مذكراتى عن هذه القصور ذكرت أن بعضها مصفح القباب بالذهب أو البرونز الساطع ، ولكن ذاكرتى خالية من هذه الصور فلا أدرى كيف ولا اين ..

على أن الاهمال يغمر اقسام هذه القصور جميعا ، وبخاصة الحدائق الموشكة على الموت .. وما اكثر الاحواض الرخامية البالغة التنظيم وليس فيها قطرة من ماء ! ..

انها أطلال .. ولكنها تحتفظ بروائع الفن ماثلة فى كل شىء ... البناء والخط والنقوش التى تركت آثارها الفائقة فى كل شىء ..

ولا بد ان يكون لهذا التخطيط الدقيق والبارع آثاره الموحية فى تنظيم القلعة الحمراء التى شهدناها فى دهلى .. فالمنطلق الفنى واحد فى كلتيهما ، واكثر ما يظهر ذلك التأثير فى اوضاع الديوان العام الذى يشبه نظيره فى قلعة دهلى الى حد بعيد .. وكذلك القول فى تاج محل الذى يحتفظ بعلاقة وثيقة من الناحية الفنية بكلتا القلعتين ، وبخاصة زخارف الحمراء التى تكاد تنطق بأن يدا واحدة هى التى نظمتها جميعا ..

الامبراطور السجين :

وساخص بالذكر من هذه القلعة موضعين لا انساهما ..

اما احدهما فالشرفة الملكية المواجهة لمشهد تاج محل .. وهى من الروائع التى لا ترتوى منها العين ، ولا يفى بوصفها القلم .. واذا علمنا ان هذه القلعة كانت هى السجن الذى اختاره لنفسه شاه جهان ، ليقضى فيه بقية حياته بأمر ولده السلطان أورنك زيب ، امكننا ان نتصور الحالة النفسية التى كان يعانيها ذلك السجين الولهان ، وهو يطل صباح مساء على ضريح زوجه الحبيبة الأثيرة ..

اما لم كان هذا السجن ؟ •• فالقول فيه مختلف ، اذ يقــال بأن اورنك زيب قد خشى ان يعهد والده بالملك لبعض اخوته الذين لا يصلحون له ، فيدمروه ويطمعوا به أعداء الاسلام •• فبدافع من الغيرة الدينية قام باقصاء والده عن الحكم ، بعد ان أحاطه بكل الاسباب التى توفر له نعيم الحياة •• ويقال ايضا ان انشغال شــاه جهان عن واجبات الملك بمتع الدنيا ، هى التى دفعت ولده لاحتلال مكانه ، تلافيا للاخطار المتوقعة ••

ومهما يكن فلا ننسى أن شـــاه جهان ، على اسرافه وتبذيـــره ومشاغله العاطفية ، كان صاحب الاثر الاول فى وقف طغيان والده شاه اكبر ، الذى غــرر به المفسدون ، فاغروه بمحاربة الاسـلام ، واختراع دين ملفق من مختلف النحــل والملل ، عمل على الزام الناس به عن طريق الارهاب والترويع ، حتى قيض الله لدينه الامـــام المجاهـــد الشيخ احمد بن عبد الاحد السرهندى ، الذى تصدى لهجمته الشرسة بعزيمـة لا تعرف الكلل ، وراح ينشر دعوة الحق فى صميم الحاشية الملكية ، وفى بعض أهله الذين كان أسرعهم الى الاستجابة له ولده جها نكير والد شاه جهان الذى اجهز على بقية ضلالات جـــده •

شــاه جهــان والمتوكــل :

وما أشبه قصة شاه جهان هذا بحكاية الامام المتوكــل على الله العباسى ، الذى هياه الله لصــد الطغيان المعتزلى ، الذى قاده آبـاؤه من قبل ، فما ان تولى أمر الخلافة حتى عمـــد الى تطهير أجهزة الدولة من بقايا المفسدين ، فاقصاهم ورد للامام أحمد بن حنبل اعتباره الرسمى فأولاه من التقدير والتكريم ما هو أحق به وأهله ، وأعاد بذلك الى قلوب علماء الاســلام الامن الذى سلبهم ايـاه الطاغوت المذهبى ، منذ عهـد المامون الى نهاية عهد الواثق ••

فمن هنا كان تلاقى الرجلين على خدمة الاسلام ، وانقاذ العقيـدة الربانية من الانحراف السفسطائى ••

ثم جـاء التلاقى الاخر ، وهو ولـع كل منهما بالترف العمرانى •• فاذا كان للسلطان الهندى عمائره المدهشة فى تـاج محـل والقلعـــة الحمراء والجامع الكبير فى دهلى ، فللمتوكل كذلك قصوره الصـــبيح والمليح والكامل والجعفرى و ••• ناهيك بالبحيرة التى يقول فى وصفها شــاعر الحضارة العباسية أبو عبادة البحترى :

بحسبهـا انهـا فى فضل رتبتها   تعــد واحدة والبحـر ثانيهـا

محفوفـة برياض لا تزال ترى   ريش الطواويس تحكية ويحكيها

اما ثالثة المتشابهات فى حياة الرجلين فهى الخاتمة التى صارا اليها ٠٠ فكان الخلع والسجن نصيب شاه جهان ، على حين كان الاغتيال الغادر مصير الامام المتوكل ٠ ورحم الله الاثنين وغفر لهما ٠٠

الحمام الفائق الاساطير :

واما ثانى المكانين اللذين أخصهما بالذكر فالحمام الملكى ٠٠

وأنظر الساعة فى مذكراتى لاستعين بما سجلته عنه فلا أجد سوى العبارة التالية : « هنا الحمام الملكى ٠٠ وهو حقا من الاعاجيب التى تفوق الاساطير » ٠٠ وطبيعى أن عبارة كهذه لا تعنى شيئا لمن أضعفت الشيخوخة والمتاعب الفكرية الفادحة حافظته ، فبات أحوج الى التفصيل الواضح منه الى العبارة الخاطفة ٠٠

على ان ما لا يدرك كله لا يترك جله ـ كرأى ابن المقنع ـ وحسب هذه الكلمات اليسيرة ان تخض أعماق الذاكرة فتطفو على سطحها بعض الرواسب ٠٠

انه لقاعة كبيرة ذات أقسام ، الاول لاستراحة الداخل وخلع ملابسه ثم الاخرى وفيها الحوض ، الذى يبدو انه مخطط على اساس ان يتجدد ماؤه بصورة دائمة ٠٠ ومن المميزات التى لم ألحها فى سواه أن جدرانه من المرايا ، ولا يفطن لها المتطلع الا ان يركز بصره من خلال المشبك ولعله من النحاس الذى ينتشر عليها ٠٠

وهنا استعير من ذاكرة الاخ الشيخ عبد الله القادرى ملاحظته على هذه المرايا بأنها تريك شخصك جيشا من الاشخاص ٠٠ ولكن لم أسأله : أعلى صورة واحدة هذه الاشخاص ، أم على صور واشكال لاعداد لها ٠٠

ومن أحد جوانب هذا الحمام الاسطورة يمتد درج حجرى طويل ، ينحدر منه النازل الى ذهر جمنة الجاثم تحت أسوار القلعة ٠٠ ويقول الدليل : ان هذا الدرج خاص باحدى زوجات شاه اكبر الثلاث ، وهى الوثنية ، فمن على هذا الدرج كانت تهبط الى النهر لتطهر جسدها بمائه المقدس على مذهب الهنادك ٠٠

الى لكنـــــاو :

نحن الان فى مطـار دهلى بانتظار الاقلاع الى لكناو ، وقد لقينـا هنا وفد قطـــر المسافر بالطائرة نفسها للغرض نفسه ، وعلى رأس الوفد فضيلة الشيخ عبد الله الانصارى ، وفيه الدكتوران على الجماز وعدنان زرزور ، والشاعر الاسلامى أحمد الصديق ٠٠

وأثناء الطريق الى المطار مررنا لاول مرة بمبنى البرلمان ذى الشكل المستدير والسعة الهائلة اللائقة بدولة شاسعة الارجـــاء كالهنــــد ٠٠ وشاهدنا كذلك المبنى الخاص بمجلس الوزراء ، وكانت الشوارع الرئيسية حافلة بأنواع الزينات المرفوعة لاستقبال تاتشر رئيسة وزراء بريطانية ٠٠

وفى الساعة ١٢ ٣/٤ هبطنا فى مطار لكنــاو البسيط المتواضع ،حيث كان بانتظارنا فضيلة الشيخ ابى الحسن ، ومعه المشايخ واضح رشيد وسعيد الاعظمى وشمس الحق ومحمد الرابع وابو سحبان وغيرهم ٠٠

اطلالـــــة فاتنـــــة :

وبعد اســـتراحة فى القاعة الخاصة حملتنا السيارات الى فنـدق (كلارك أود) ووجهوا كلا منا الى غرفة مستقلة ، ولكننا ، وفد الجامعة الاسلامية ، آثرنا جمع كل اثنين فى غرفة ، فذلك أوفر راحة لنا وايناسـا ٠٠ وكذلك فعلوا فأبدلنا بغرفنا حجرتين وفق المطلوب ٠٠

وكان نصيبنا ــ الشيخ عبد الله القادرى وأنا ــ الغرفة ذات الرقم ٥٠٩ من الدور الخامس وهى تطل على روائع من طبيعة لكناو ٠ فهناك نهـر غومتى يجرى على مد البصر ، وعلى مقربة منه جامعة لكناو الحكومية ، وبجوارها جامعة نـــدوة العلماء ، وعشرات المناظر التى لا تحصى ولا نعرف هويتها ٠٠ وفى الجانب الاخر احدى حدائق البلد التى فيها مجسم الكرة الارضية ، وقد سبقت الاشارة اليه ، يقـــابل ذلك بعض الابنيـــة التاريخية من مخلفات الشيعة ٠ على اننا هنا فقدنا المناظر التى أطللنـا عليها فى الغرفة السابقة من الدور السابع ، حيث تتكاثر اصناف الحدائق والشوارع وما اليها من مشاهد العمران الحديث ٠٠

ومن الجديد الذى أتيحت لنا رؤيته من موقع هذا الفندق الفخـم ، تلك المجموعة من المعابد الوثنية المتناثرة على ضفة غومتى ٠٠ وقـــد سرحت خلالها القرود البنية المقدسة ذات الستر السابغ ، تتواثب هنـــا وهناك ، على سطوح الابنية ، وفى أعالى الاشجار ٠٠



مجلس الشــورى بلكناو

والمهم ان وجودى فى هذا المرتفع الماتع قد اطلعنى على ما لم اكن وقعت عليه من معالم لكناو طوال اقامتى السابقة فيها ··

حتى هذه الارجال الهائلة من البعوض الناشيء فى احضان غومتى، لم أر ولم اتوقع مثله قط · لقد فوجئنا به منذ الليلة الاولى يغطى زجاج النافذة الشاملة لصدر الحجرة كلها بمجرد اقبال المساء ، وكأنه يريد اقتحام الغرفة علينا للحصول على شهوته من الدم البشرى ·· رما أدرى أى معركة كنا سنخوضها لو لم نفطن لذلك الجزء من النافذة ، الذى تركه الخادم مفتوحا لتهوية الغرفة ، ولولا الستار الذى حال دون نفاذها الينـــا ··

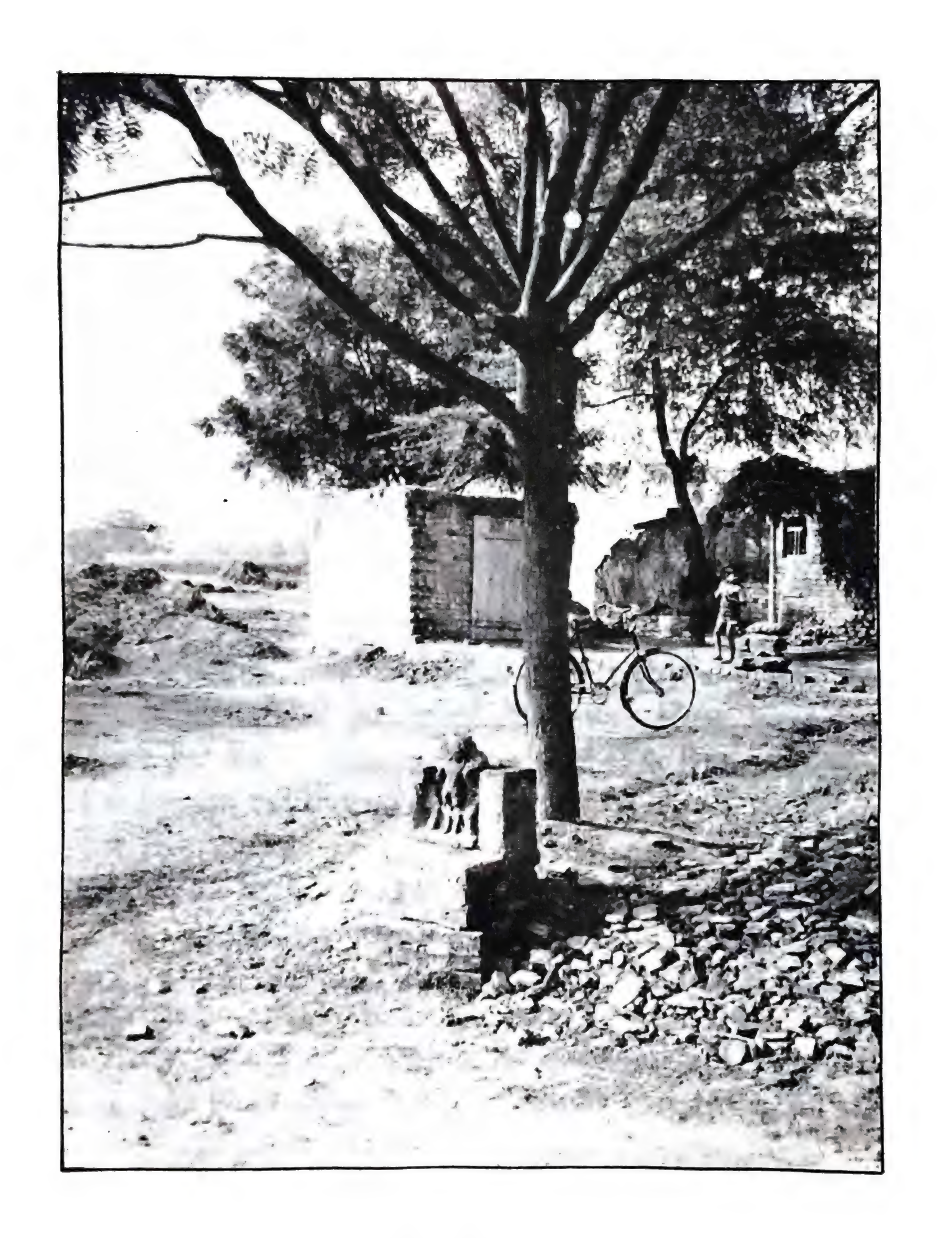
فرصـة أفـدنا منهـا :

أبلغتنا لجنة التحضير للندوة العالمية للادب الاسلامى ان موعـد الاجتماع الاول سيكون ضحى الجمعة ، الذى هو الحادى عشر من جمادى الاول ـ بتوقيت الهند ـ فامامنا اذن يومان لا ينبغى ان نقضيهما فى فراغ وقد شاء الله أن أفقد زجاجة نظارتى اثناء خروجى من آخـر صلاة فى مسجد قباء ، اذ سقطت من اطارها دون انذار سابق ، فآليت لا أرثى لها من كلالة قبل وصولنا لكناو ·· ومع الاخ ابى سحبان مضينا الى خبير بهذه المهنة ، فركب البديل المنشود مقابل عشر روبيات ، وهو الذى اديت ثمن مثله فى المدينة ثلاثين ريالا ، اى ما يساوى سبعة الاضعاف ، ولذلك أوصيت الرجل على نظارة احتياطية كاملة من النوع نفسه ، فكان ثمنها مع الاطـــار اربعين روبية ، فدفعت المبلغ وفى ذاكرتى رقم مئتين وخمسين ريالا اداها ولدى فى المدينة ثمن واحدة من هذه النظارات ··

تعقيـــدات يهـــودية :

ومن ثم اخذنا طريقنا الى أحد المصارف لاستبدال مقدار من الدولارات فاذا نحن تلقاء عملية غاية فى الثقل والاملال ، اضاعت علينا اكثر مـن ستين دقيقة فى جهد مضن يسجلون فيه كل رقم على كل دولار ، وكل رقم واسم على الجواز ·· فما انتهينا من هذه المعركة حتى انتهينــــا الى الارهـــاق ··

وما أدرى لذلك من سبب سوى فقدان الثقة العامة ، الذى تمتاز به الدول المتبنية للانظمة الاشتراكية والماركسية ·· وحمدا لله الذى حررنا فى المملكة من هذه القيود المضيعة للاعمار ، واطلقت يد كل انســان فى كد يمينه يتصرف به كيف يشاء فى حدود العدالة الاسلامية ··



معبــد وثنى بلكنــاو

وما كان اسعد الغابرين أيام كان للنقد قيمته بنفسه فضة او ذهبا أو نحاسا ، فلا يتطلب صرف أى جهد فى سوى الوزن ·· وما احسب هذا التعقيد الا حلقة فى سلسلة الاساليب اليهودية المركزية التى تجعل مصير كل معاملة اقتصادية الى ايديهم فى النتيجة ··

اللقاء النادر :

وكان من متع هذه الفرصة ، فرصة الفراغ ، ان سعدنا بلقاء اخوة ما كان لنا ان نطمع بلقائهم فى غير هذه المناسبات ·· وما اسعدنى بحب هؤلاء الذين يتلقوننى بمثل الفرح والشوق الذى اتلقاهم به ، وبخاصة أولئك الذين قدموا من الابعاد وفيهم الشيخ الفاضل ابو الليث الندوى ـ امير الجماعة الاسلامية سابقا ـ واخوة الصديق الودود الشيخ نظام الدين الاصلاحى · ويلاحظ أن كلا منهما ينتسب الى المؤسسة العلمية التى تخرج فيها ، حتى لتحسبهما من ابوين مختلفين · · ولعلها ظاهرة خاصة بأهل العلم من مسلمى الهند ، تترجم شدة حفاوتهم برابطة العلم ،وتقديرهم البالغ للقائمين على هذه الدور من فضلاء العلماء والمربين ··

وسرنى ان القى بين الوافدين على الندوة الدكتور مسعود الرحمن الندوى الاستاذ فى جامعة عليكرة ، وقد سبق الى الفضل فأهدى الى فى القدمة الاولى كتابيه فى العلامة ابن كثير ، فكانت فرصة لسرد الجميل أهديت اليه فيها نسختين من كتابى (مشكلات الجيل فى ضوء الاسلام) و (دروس من الوحى) ··

وامرهم شورى :

وجاءنى فضيلة الاخ الشيخ واضح رشيد الى الفندق يكاشفنى بالمتاعب الكبيرة التى يجب عليهم النهوض بها فى هذه المناسبة الضخمة ،

فهم لذلك شديدو الخشية من كل تقصير قد يتعرضون له ، سواء نحو المدعوين او نحو الندوة نفسها ··

وعرض على الخطوط الرئيسية التى اعدوها حتى تلك الساعة ، ليستطلع رايى فيها ، فطمأنته بأن الجهود المتضافرة كفيلة بانجاز المشروع على خير الوجوه ان شاء الله ، ولا سيما انه واخوانه ، وعلى رأسهم فضيلة الشيخ ابى الحسن ، من اكثر رجال الفكر الاسلامى مشاركة فى قضايا المؤتمرات الاسلامية · ومع ذلك فلا بأس من التعاون مع بعض الاخوة من ضيوف الندوة المحبين لها ولاهلها ، وكلهم كذلك ··

وبالاتفاق مع الاخ الدكتور عدنان زرزور موفد الامارات ، قدمنا صورة لجدول مبسط للعمل ، يعتمد فى اسه على مخططهم السابق ، فنال الموافقة ·· ثم جاء الشيخ واضح يبلغنى اقتراح اللجنة التحضيرية بأن تسند الى ادارة العمل منذ اليوم الاول للافتتاح ، فشكرتهم على تلك الثقة الغالية ، واوضحت لهم ما اعانيه من وضع صحى يحول دون قيامى بالواجب على الوجه المطلوب ، واقترحت عليهم بعض الاسماء ليتخيروا منها من يشاؤون ··

وهكذا تم التدبير اللازم على افضل وجه ولله الحمد ·· ولكنهم ابوا الا أن يشركونى فى ذلك التنظيم ، مع الاخ عبد الرحمن رأفة الباشا ، الذى عهد اليه القيام بادارته ··

تنظيم ناجح :

وانتظم عقد الاجتماع مؤلفا من عشرات المندوبين ، من رجال الفكر والادب والعلم والشعر ، من مختلف أقطار العرب والمسلمين ، فكانت فى الحق ندوة شاملة لكل ما هو خير وصالح ان شاء الله ··

وبعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم تفضل صاحب الدعوة ورئيس الندوة الشيخ ابو الحسن بكلمة الافتتاح ، وكانت واحدة من روائعه التى اعتاد ان يلامس بها العقول والقلوب ·· ومن ثم انقسم الحضور مجموعتين ، احداهما للادب الاسلامى باللغة العربية ، والثانية للادب الاسلامى باللغة الاوردية ، وانتقلت المجموعة الثانية الى القاعدة المعدة لها ·· وقبل البدء بطرح الافكار المعروضة فى البحوث المكتوبة ، ألقيت بعض القصائد تنشيطا للنفوس ، وتوجيها لانظار الحضور الى الغايات العليا ، التى يجب التطلع اليها خلال المناقشات الآتية ··

ثم عرض البرنامج المساعد على تنسيق العمل ، وعين لكل يوم عمله الخاص ، وفى الفترات التالية لخصت البحوث المقدمة فى نقاط رئيسية ، تلتها المناقشات المفيدة ·· وهكذا استمر العمل فى ترتيب محكم ناجح ، حتى استوفيت البحوث ومناقشتها خلال الايام الثلاثة ، واختيرت لجنة لصياغة التوصيات التى جاءت على غاية من التوفيق والتسديد ولله الحمد ··

وكانت الخاتمة اصمامة من القصائد العالية تلاها عدد من المندوبين ، وفى كل منها شوارد تركت آثارها عميقة فى القلوب ··

اما البحوث فلا أرى حاجة للتفصيل فى شأنها ، لانها ستنشر فى بعض صحف ندوة العلماء ، وفى العديد من مجلات العالم الاسلامى ، وحسبى اشارة خاطفة الى انها ـ فيما أتصوره ـ ستضيف الى صحائف الادب الاسلامى العالمى رفداجديدا ، فيه الكثير من رفيع الفكر بليغ البيان ٠٠ وسيتاح للقراء بعد الاطلاع عليها مجال واسع لتقييمها الذاتى والموضوعى ، بأحسن مما يتاح لحلقة كهذه ان تستوعبه ٠٠

لغة القرآن تهاجر للهند :

على ان ثمة جانبا احب ان اخصه بالذكر لاشرك القارىء فى النشوة التى خالجت نفسى ، وانا استمع الى بعض البحوث العربية المكتوبة بأقلام هندية ٠٠

لقد شارك فى المجموعة العربية عدد من الاخوة الهنود والباكستانيين وقدموا الى الندوة بحوثا قيمة اثارت العميق من الاعجاب ، فى أسلوب لا يهتدى الى صياغته العالية الا الملهمون ، الذين اشربت عقولهم والسنتهم نفحات القرآن ، فجاء أداؤهم كأبحاثهم صورة من البيان الساحر الذى يستهويك بمعانيه ومبانيه وفصاحة ملقيه ٠٠

وعلى سبيل التمثيل اذكر بحثا للشيخ محمد سعيد المجددى ، كان عرضه اكثر من تلخيص ، فكان المتوقع ان يبعث على الملل لتجاوزه الدقائق المقررة لامثاله ، ولكن الواقع جاء على غير القاعدة ، اذ أعتبر الرجل بحثه بناء متكاملا لا يصلح للاختصار ، فمضى فى قراءته حتى استوفاه ٠٠ وقد استقبل بغاية الرضى ، لان النبرة العربية قد شقت له السبيل الى القلوب ، فلم تشك منه قصرا ولا طولا ٠٠ وسمعنى الشيخ أبو الحسن اصف ما سمعت بالسحر الحلال ، فقال : من حق هذا الهندى اذن ان يستمع الى رأيك فى حديثه ، فادنيت المكبر لاقول ما خلاصته : أجل ان من حق هذا الفاضل ان يعرف رأى اخوانه فى ما القاه عليهم من عمل جمع خصائص الادب العالى من اطرافها وليس غريبا بالنسبة الى بلد كالهند ، عرف فى تاريخ الاسلام بأنه من أعظم مراكز الدعوة الاسلامية واللغة العربية ٠ وعلى الرغم من كل الاحداث والتغيرات استطاع الحفاظ على امتيازه هذا عن طريق مؤسساته الاسلامية العريقة ومفكريه الذين تركوا بصماتهم عميقة فى صميم التراث الاسلامى المستمر ٠٠ وانها لمفخرة لمسلمى هذه القارة ان يحرزوا قصب السبق فى اتقان لغة الضاد ، حتى ان المستمع للناطقين بها ، ومنهم الاخ المجددى ليخيل اليه ، وهو يصغى الى فصاحتهم المميزة ، أن العربية العليا قد

هاجرت اليهم من موطنها الاصلى . فها هنا لا نسمع من لهجات العربية سوى لغة القرآن محتفظة بسلامتها من كل لحن ولغو .. على حين لا نكاد اليوم نلمحها فى بلاد العرب الا من خلال الكتب والبحوث والخطابة المسجدية ، بعد ان فسدت فيها لغة التخاطب حتى على ألسنة كبار العلماء ..

خاتمة لا تنسى :

وهكذا ختمت ايام الندوة بما يشبه المهرجان الادبى ، بما القى فى جلستها الاخيرة من قصائد موفقة ، وتعليقات طريفة ، وبما شاع بين الحضور من روح الاخوة السعيدة ، ولئن اكتفيت حتى الان بالاشارات الخاطفة الى الكليات دون التفصيل ، فان ثمة بقية لا يحسن بى اغفالها من خواتيم هذه الايام ، تلك التى انطوت عليها كلمة فضيلة الشيخ عبد الله الانصارى مدير الشئون الدينية فى قطر ، فكانت تعبيرا نقيا عن مشاعر المؤتمرين جميعا نحو ندوة العلماء واخواتها من المؤسسات الاسلامية الاخرى فى الهند وغيرها .. وبصراحة اخوية اعلن اقتراحه - وهو ما سبق ان عرضناه على بعض الاخوان اثناء افطارنا فى مطعم الفندق - بأن يتبرع كل من المدعوين بما شاء لهذه الجهات العاملة للاسلام والعربية ، وان لم يتيسر ذلك على الفور فليكن تنفيذه عند العودة الى الديار ..

ومع ان الاقتراح بمثابة التذكير بواجب يؤمن به الجميع ، إلا ان الشيخ أبا الحسن لم يلبث ان عقب عليه بكلمة من مرتجلاته المؤثرة ، خلص منها الى القول بأنه لا يوافق على تحويل ندوة الادب الى ندوة للمال .. وأقسم أن غاية ما يرجوه واخوانه هو أن يوفقهم الله لخدمة دينه ولغة كتابه . وذكر ان هذه المؤسسة قامت على الايمان والاخلاق من أول يوم ، وكل امنيتهم ان يحفظ الله لهم هذه الصفة .. ونوه بفضل العرب واطرى مزاياهم ، وقال انه اجتمع بملوكهم ورؤسائهم ، فكان حديثه معهم مقصورا على شئون الاسلام ، وخص بالذكر المغفور له الملك فيصل ابن عبد العزيز ، فأعلن انه فى خلواته به ، التى كان بوسعه أن يطلب اثناءها ما يريد ، أبى أن يتكلم الا عن العرب والمملكة ، لانه واخوانه يعتبرون كل خير يصيبهما هو خيرا للمسلمين جميعا ، وكل ضرر ينالهما فعاقبته على أهل الاسلام فى كل مكان ..

وما ان فرغ الشيخ من بيانه البليغ حتى نهض الاخ عبد البديع الصقر - من وفد قطر - فعقب بكلمة ألهبت المشاعر ، اذ ذكر اسراف

بعض اثرياء العسرب ، وضرب على ذلك الامثال ، منها ان رجلا زوج ولده فانفق على هذه المناسبة اربعمئة مليون ٠٠ وآخــر انشا ملعبــا فى بلده الصغير بألف مليون ٠٠

وكل ذلك فى الوقت الذى تتكالب ذئاب الانـــام على اهل الاسلام فى كل مكان ، فلا تمتد اليه اليد الا بالفتات الذى لا يسمن ولا يغنى ٠٠ ولا حــول ولا قــوة الا بالله ٠٠

من لكنــاو الى بومبــاى :

الاثنين ١٦ـ٦ـ١٤٠١ هـ ٠

لم نستسلم لشهوة النــوم بعد صــلاة الفجر ، رقد جمعنــا امتعتنا استعدادا للطيران الى دهلى فبومباى ، حيث قررنا المقام حتى مساء الخميس القادم ٠٠ واجمعنا المرور بالندوة لوداع الشيخ فى طريقنا الى المطــار ٠٠

وها انــذا أكتب هذه الكلمات مشرفا على الرحب الرائــع المواجه للفندق ، وقد بدأ الوثنيون يتوافدون الى هذه المعــابد ، التى يتــواثب فيها القردة المقدسة ، ليؤدوا عبادتهم لنهر غومتى ! ٠٠

وأبى الشيخ واخوانه الا ان يصحبونا الى هناك ٠٠ وفى قاعــة الاستراحة اجتمعنا بالشيخ عبد الله الانصارى واخوانه من وفد قطــر ، وشغلنا وقت الانتظار القلق بشتى الاحاديث التى لم تخل من الخير المأجور ان شــاء الله ٠٠

وفى تمام الساعة الثانية بعد الظهر دعينا الى العبور نحــــو الطائرة ، وبدأ التفتيش المزعج ، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ٠٠ حتى مقص الشعر وآلة الحلاقة الصغيرة لم يسمحوا بمرورها فحولتهمــا الى الشيخ ســعيد ٠٠ ولبث الاخوة المشيعون على مــرأى منا حتى انتهينا الى المطية التى وصفها شــوقى بقوله غير الموفق

مركب لو سـمح الدهــر به   كان احدى معجزات القدماء

وما هى الا ثلاثة ارباع الساعة حتى تلقانا مطــار دهلى ، الذى لم نفارقه الا الى الطائرة الجبارة التى أقلعت بنا الى بومباى ٠٠

اهنــا دمشــق ؟

وقد أسلفت الكلام عن تلك المناسبة التى اعقبت وصولنا الى مطــار بومباى ، حيث ذهبنا نبحث عن الفندق المناسب ، فلم نجــد ما يرضى الاخــوة الا فى (تــاج محــل) الذى حــدد رسم الغرفة فيه لمجــرد النــوم بستمئة روبية لليلة الواحدة ٠٠

ولقد صلينا صبح اليــوم التالى فى الساعة السابعة ، اذ غلبنــا النــوم والتعب ففاتنا الشعور بمرور الزمن ، وبعد الافطار البــاهظ

الثمن امتطينا سيارة الاجـــرة الى قلب البلد ، وها نحن أولاء فى سوق (هندى بازار) وهو جزء من شارع محمد على الذى سبق ذكره ٠٠

هذه السوق تكـــاد تنسينا أننا فى بومباى الهند ، فهى اسلاميـــة مئة فى المئة فيما أرى ، فواجباتها مزدانة بالحــــرف العــــربى الجميل ، والمكتبات الكثيرة مشحونة بالمطبوعات الاسلامية على اختلاف لغاتها ٠٠ فما أقـــرب الشـــبه بين هذه السوق وسوق المسكية القائم منذ القـــدم بجـــوار الجامع الاموى فى دمشق الحزينة ٠٠

وأقبل الشيخ مختـــار النـــدوى ــ من معارف الشيخ عبد الله ــ الى مكتبته السلفية بعد ان انتظرناه طويلا ، فاذا الرجل من أهل العـــلم والعمل ، يتكلم العربية الفصحى التى لقتها فى نـــدوة العلماء بلكناو ٠٠ ويقوم بمهام رئيس الجامعة السلفية فى بنارس ، ويرئس الجامعـــــة الاسلامية التى فى ضواحى بومبـــاى ، وهو يوزع وقتـــه يوميا على الاعمال التالية : حتى الظهـــر فى منزله حيث يعمل فى تحقيق الكتب التى يريد طبعها من نفائس التراث ، ثم الى المكتبة ليواجه زبائنه ومستفتيه ، وقد أعطى الجامعة يومين من كل اسبوع ٠٠ فجزاه الله من الخـــير كفاء نشاطه الصالح ان شاء الله ٠٠

وتركـــوا روائـــع البـــدائع :

وحملتنا سيارة الشيخ مختــــار الى مطعم تخيره لنا على أنه جيد الطعام مقبول الاسعار ، وكان كما وصف ، ولكن الزحام عليه شـــديد حتى لم نجـــد مكانا فيه الا بعـــد ما يقارب الساعة ، ولا غـــــرابة فالمورد العذب ــ كما قرر بشـــار ــ كثير الزحـــام ٠٠

وتواعدنا مع السائق ــ المسلم ــ على ان يوافينا الى الفنـــــدق أثناء الاصيل ٠٠

وها أنذا أكتب هذه الكلمات العجلى من وراء زجـــاج الشرفـــة لغرفتنا ذات الرقم ١٢١٢ حيث نرقب ــ القادرى وأنا ــ بدهشة هــــذه الشوامخ الهائلة تنطلق كالصواريخ نحو الاعالى ، فى أعداد لم نجـــرب احصاءها ، وفى طبقات يتجاوز بعضها الثلاثين ، وهى تعبر بشموخها عن مدى التقدم الاقتصادى واليسار الكبير ، الذى تتمتع به المدينة العالمية ٠٠

وتمضى الساعات الطوال ويقبل الاصيل اللطيف ، وقـــد ذهـــب الاخوة الثلاثة يريدون البحـــر ، للاستمتاع برحلة فى أحد الزوارق المهيأة



برج راجا باى فى بومبـــاى

تحت غرفتنا لاستقبال امثالهم ·· واعتذرت عن مرافقتهم لظنى ان مثل هذه الجولة ميسورة فى أى من سى سواحل العالم ، بيد أن معالم بومباى الماثلة فى بحيرتها الساحرة وحديقتها العالمية ، ومتحفها السمكى ، ومتنزهاتها الساحلية ·· لا يعوض عنها منظر فى أى بلد - فيما اتصور - طلا تغنى عنها رحلة فى أى بحر ·· الا ان يكون (بحيرة الذكريات) للشاعر الفرنسى الفونس دولا مارتين ·· وقد رفضوا هذه المعالم كلها ولم يعيروا المسجد العجيب القائم على الماء اى اهتمام ·· ولا غرو فلكل امرىء عينان لا يرى بغيرهما ، وقد بدا أن عناية اصحابى بالسلعة يشترونها اكثر من عنايتهم بمواطن الجمال يستجلونها ، فيشرفون من خلالها على روائع البدائع ·· ولله فى خلقه شئون ··

متخمون ومحرومون :

انى الان وحدى هنا ارجع البصر فى هذا البحران من العمران الممتد الى الاقاصى من الحيز الذى تشرف عليه الغرفة ·· ولا يسع القلم الاتيان على بعضه ، فازداد يقينا بأن فى بومباى - كما اسلفت - اكبر العبقريات الهندسية ، واوسع الاعمال الاقتصادية ، ولكنى لا اكاد انتهى الى ذلك حتى اتذكر اولئك المحرومين ، الذين يملئون الشوارع بل معابر (كاماتى بوره) فأتخيلهم ملقين كأكياس القمامة على حواف القاذورات الوبيئة ، فأعود الى تساؤلى المكرور : هل يتاح لاولئك البؤساء أن يحلموا برؤية هذه المشاهد ، فضلا عن زيارتها ! ··

واخيرا ·· هل يمكن اعتبار نظام يشق السكان ، بمثل هذه الفواصل الواسعة بينهم ، نظاما سليما ومعقولا ! ··

اللهم لا ·· الا فى الهند ، حيث لا يزال التمايز الطبقى هو الاساس الذى عليه يقوم بنيان المجتمع ، حتى ليكون فيه مئة مليون منبوذ لا يحق لهم بموجب الديانات - الهندوكية - ان يتمتعوا بصفة الانسان ·· وقد كان فى قوانينهم القديمة توكيد حاسم على ان قتل المنبوذ ، والتمثيل بجسده حيا ، لا يعدو احداث ذلك فى جسد جرذ أو فأر ! ··

حوار مع أحد البهرة :

وفى احدى السيارتين ، اللتين اقلتانا الى مطار بومباى ، فى طريق العودة ، كنت استعيد بعض الذكريات التى حملتها من هذا البلد ، الذى يشبه مجمعا من المتناقضات الغريبة ·· ولا ادرى لم وقف بى ملف الذاكرة على تلك الهنيهة التى قضيناها فى مكتب لمدير اكبر الحاويات (السوبر ماركت) التجارية فى تلك المدينة ··

لقد جاءنا رسوله يدعونا لزيارته اثناء تنقلنا بين الاسام الحاوى نستطلع ونساوم ونشترى ، فلم نر بأسا فى اراحة اقدامنا بعض الوقت عنده ..

واستقبلنا الرجل بالاكرام ، وجعل يخاطبنا بلسان عربى .. وعرفنا شخصه بأنه من مسلمى البهرة الذين يتجمع سوادهم فى بومباى .. وراح يشرح هوية القوم على انهم بقية الفاطميين من النحلة الاسماعيلية .. للتفريق بينهم وبين الاسماعيليين الاخرين من الشيعة الاغاخانية ، الذين يتركزون مثلهم فى هذه البقعة ، وتنتشر دعوتهم واتباعهم فى العديد من ديار المسلمين وبخاصة أفريقية ..

ولقد شعرت اثناء الحوار بيننا وبينه ان اصحاب هذه النحلة يريدون التقرب من اهل الاسلام ، وان من الممكن تصحيح بعض مفهوماتهم عنه ، لو اتيح لهم الاتصال بالدعاة الوعاة من ذوى الثقافة الموسوعية ، وبخاصة ان القوم من المواظبين على الصلوات الخمس ، حتى لا تكاد تجد بينهم تاركا لها ، وهذا فضلا عن قيامهم بالحج والعمرة .. ولا جرم ان التزام هذه العبادات يؤلف نصف الطريق الى قبول الحقيقة كما اوضحها الله ورسوله .. ومع ذلك فقلما نرى معنيا بالدعوة يجرب معهم هذا الضرب من المحاولات الواجبة ، بل على الضد من ذلك نراهم ممعنين فى مباعدتهم ، حتى لا يكادون يعرفون عنهم شيئا .. ولئن هم رجعوا الى هدى رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى شأن التبليغ لادركوا انهم غير معذورين فى مثل ذلك ، بل لا مندوحة لهم عن بذل الوسع فى كل مناسبة يجدون فيها مجالا لمحاورة الشاردين بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى احسن ..

حتى الاسماعيلية الاغاخانية ، على الرغم من رفضهم للاسلام جملة وتفصيلا ، حتى ليعلنون صراحة ان لهم دينهم الخاص ، صنعه لهم الاغاخان الذى يوجهون اليه كل عبادتهم ، حتى هؤلاء لا تسقط مسئولية دعوتهم عن القادرين عليها بالوسائل الصحيحة المتاحة ، والا فكيف يحقق اهل الحق فى أنفسهم الصفة التى اختارها لهم ربهم بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ..

ما فيش فلوس ؟!

وكانت الساعة تقارب السادسة عندما بلغنا مدخل المطار ، هو وقت متأخر جدا بالقياس الى المرة السالفة ، اذ كان علينا يومئذ

ان نحضر قبل اربع ساعات ونصف الساعة من موعد الاقلاع ، ثم لا نغادر بهو المطار حتى نستوفى قسطنا من عناء الانتظار الثقيل المليل ، الذى لا سبيل الى تفسيره أو تسويغه ..

والفضل فى هذا التخفيف عائد بعد الله الى مدير الخطوط السعودية الذى أوصى بنا خيرا أحسن الله مثوبته ..

ومع ذلك فقد ظل أمامنا أنواع من المزعجات لا سبيل الى تفاديها الا بالصبر ورحابة الصدر .. ولو هى قد جمعت دفعة واحدة لسهل احتمالها ، ولكنها توافيك متفرقة واحدة تلو الاخرى ، منذ ان يرتفع النداء بمواجهة الاجراءات الى ان تضع قدمك على سلم الطائرة ..

فها هنا تدقيق الجوازات .. وهنا ضريبة المطار .. وهناك رسوم التحميل المحددة ، ولا ثم للحمالين انفسهم .. ثم هناك تفتيش الامتعة الذى لا بد معه من الدفع بعد الدفع ..

- مافيش فلوس ؟..

- بلى .. هاك خمسين ريالا سعوديا ..

ويقلبها بيده مستصغرا .. فنطمئنه بأنها تساوى مئة وخمسا وعشرين روبية كاملة .. ثم يمسك بالعلبة الشفافة التى فيها جهاز الحلاقة ، يشير الى رغبته فيها فلا أمانع .. ثم يمسك بقارورة من الطيب عزيزة على .. فأدعها له خشية ان يختلق من الاسباب ما يؤخر دخولى ..

ولم يكن حظ رفقتى بأقل من ذلك ..

ولا حاجة للكلام عن اعمال الاخرين من الفضوليين .. وحسبك ان تعلم ان لكل شىء هنا ضريبة ، والاصل فى معظم هذه الضرائب ان تكون من لابسى الزى العربى ، لانه فى تقدير كل ناظر ومسئول لا يعدو أن يكون راية على بحيرة من النفط ..

والحمد لله على السلامة ..

واخـــــيرا ٠٠٠

من المسئول عن هـؤلاء الضائعين ٠٠

فى طريقنا الى الفلبين كان لا بد لنا من الهبوط فى بومباى لتغيير الطائرة ، وكان علينا أن نقضى معظم الليل فى ردهة المطـــار بانتظار موعـد الطائرة التى ستقلنا الى مدراس ٠٠ وبينما انا اغــالب اغفــاءة خفيفة اخذ سمعى دوى بعيد ترافقه ضجة ٠ موزونة ثم ما زال يقترب شيئا فشيئا حتى انجلى لنا عن موكب يضم قـــرابة العشرين رجـلا ، كلهم من العـــرق الاوربى الابيض البشرة ، الازرق العينين الفـارع الهيكل ٠ كان احـــدهم حدثا لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وبينهم واحد فى سحنة الهنود ٠٠

وقد استرعي انتباهى من هؤلاء أزياؤهم الغريبة ، فهى عبارة عن سراويلات فصلت على الطريقة الباكستانية ، وفوقها قمص تنسـدل الى الركب ، وكانت رؤوسهم حليقة كلها ، الا امتدادا كذيل الثعلب ، يبـدأ من وسط الرأس ، ثم يتدلى الى مؤخرة الرقبة ٠٠

كان بعض هؤلاء يحمل طبولا على شكل اسطوانى ، ينتهى طرفـاه بفتحتين ضيقتين الصقت بهما قطعتان من الجلد ، عليهما يضرب حاملوها٠٠

وينطلق الجميع فى اناشيد محفوظة يكررونها وهم يترنحـون فى انتظام ، وكلما انتهوا الى فقرة منها معينة قفزوا معا الي الاعلى ، ثـم يعودون الى اهتزازاتهم الاولى ٠٠

وهكذا جعلوا يبدئون ويعيدون حتى نال منهم الارهاق ٠ وجعلت اصواتهم تخفت من التعب ٠٠ فاذا ما استعادوا بعض قدرتهم اعـادوا العمل ضربا وترنحا وقفزا وانشادا ٠٠

لم استطع بادى الراى تفسير عملهم ٠٠ وخطر فى بالى انهم مجموعة من الضـــائعين الذين يتكاثرون هذه الايام فى شــوارع أوربــة وحواضر امريكة ، قد اقبلوا على الشرق فى سياحـــــة ترفيهية ، فهم يجوبون شوارع بومباى على هذا الوضع ، اعرابا عن تمـردهم على الحضارة الغربية ، التى اعطت الانســـان الغـــربى كل وســائل الرفاه وسلبته مقابل ذلك كل اسباب الطمانينة ٠ الا انى لم البث ان هديت الى التفسير الصحيح حين اقبل رفيق رحلتى الدكتور ف عبد الرحيم ٠ فبين لى ان هؤلاء نموذج لكثيرين من الغربيين الذين فرغت قلوبهم من ســـكينة الايمان ، فراحوا يهيمون على وجوههم ، حتي احتضنهم دعاة الوثنيــة الهندية ، فاعتنقوا بعض مذاهبها ، ثم جاءوا الى الهند ليمارسوا شعائر

دياناتهم الجديدة على النحـــو الذى ترى ·· فهم يؤدون هذه الحركات داخل المعـــابد ، ولعلهم يريدون من اجرائها فى الشوارع تذكير الناس بها ودعوتهم الى احيائها ··

وسرعان ما وجدتنى مشدودا بما شاهدته من هذه الغـــرائب الى التأمل فى ما وراءها من عبر وأحداث :

لقد وثبت بى الذاكرة الى منظر بعض الطرقيين فى العديد من ديار المسلمين ، وقد تحلقوا حول (الراقص المولوى) يعزفون له ويقرعـــون وينشدون ، وراح هذا يدور فى سطهم على قدم واحدة ، كخذروف الزليد ، وقد انفتحت (تنورته) الواسعة حتى اشبهت مظلة الطيـــار الهـــابط من الاعـــــالى ··

ثم تتابعت على الرؤى حتى وقفت بخيالى على واحدة منها لم تزل تعمل عملها فى صدور الغافلين ·· انها صورة هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبـــا ولهـــوا ، فكان من بين مبتدعاتهم تلك الحلقات الاخـــــرى ، التى يتوسطها (قائد السيرك) فتأخذ فى التمايل وفق اشارته ، وقـــد تصاعدت من صدورها همهمات تبدأ واضحة باسم الله ، ثم ما تنفك تتخلل فى الغموض حتى تستحيل زفيرا وشهيقا لا مفهوم له ، ثم لا تفتر ولا تهدأ الى أن يأخذها الارهاق ، الذى يأخذ هؤلاء الراقصين فى ردهة مطـــار بومباى ··

فمن هنـــا أنن ·· من رقصـــات الهنادك والبونيين لآلهتهم ، قد تسر بهذا الرقص الطرقى ، الذى يسميه المضللون والمضللون فى بـــلاد المسلمين (حلقات الذاكرين) ! ··

ثم الفيتنى اتساءل : هذا الجيـــل المتمرد على حضارة المـــادة والشـــهوات ، وعلى تعاليم الكنيسة ، بعد ان تمردت الكنيسة نفســـها على وحى الله ، حتى صـــارت تعاليمها مجموعة من مقررات رجـــال الكنيســـــة ··

هذا الجيل الذى تتخطفه البوذية والبرهمية والهيبيـــة ·· و و ·· لماذا اغفله دعـــاة الاســـلام ، فلم يفتحوا أعينه على نـــور ربـــه ؟ اليس الاســـلام هو خاتم رسالات الله الى عباده ؟ ··

فمن المسئول عن تبليغهم حقائقه ، اذا لم يقم المسلمون من أولى العلم بهذه المهمة ؟ ··

ولا حول ولا قوة الا بالله ! ··

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٧٧ / ١٩٨٤
الترقيم الدولى ٤ - ٧ - ٠٦٧ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
١٢ نشاطى - شبرا مصر
تليفون : ٧٧٣٢٢١